محمد قطب

منهج التربية الإسلامية

دار الشروق

إهــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

منهج التربية الإسلامية

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
جدة : شارع البغدادية هاتف : ٢٦٦١٠ - ص.ب : ٤١٤٦

محمد قطب

منهج التربية الإسلامية

دار الشروق

أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي

"حديث شريف"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

فى هذه الفترة الحرجة التى تمر بها البشرية : الفترة التى يصل فيها الفزع إلى غايته ، والقلق إلى أقصاه .. يتبدى واضحاً إلى أى مدى تخبطت البشرية حين شردت عن الله وعن منهجه للحياة .

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل وعبادة الجسم وعبادة المادة ، وعبادة الحتمية التاريخية والحتمية الاقتصادية والحتمية الاجتماعية .. إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التى يعبدها الناس فى هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة الله !.. فكانت الشقوة التى تفسد الأعصاب والنفوس ، وكان العذاب الذى يمس الأفراد والجماعات ، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب !

وليس للبشرية علاج من هذه الشقوة المفسدة والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى الله ، لتجد الأمن والرعاية فى حماه ، وتجد التوجيه الراشد فى منهجه للحياة .

ومنهج التربية الإسلامية — الذى يشرح هذا الكتاب بعض جوانبه — هو المنهج الربانى لتقويم البشرية وتوجيهها ، لترشد وتتوازن ، وتسلك سلوكها المستقيم فى الحياة .

وإنى — إذ أقدم هنا الطبعة الثانية من الكتاب — لأرجو الله أن يوفقنا إلى تفهم منهجه والعمل بمقتضاه .

مقدمة الكتاب

كيف غفلنا عن أن هناك منهجاً إسلامياً للتربية ، وأن هذا المنهج موجود فى القرآن ؟!

إننى أتحدث عن نفسى ..

لقد ظللت زمناً أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذه الحقيقة !

لقد أحسست بطبيعة الحال أن فى القرآن توجيهات تربوية كثيرة ، وأن لهذه التوجيهات أثراً فى النفس ، وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها ، يصبح له سلوك معين وتفكير معين وشعور معين ، هو أقرب إلى الصلاح والتقوى ، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية .

أحسست هذا لأنه بديهية واضحة لاتحتاج إلى تفكير .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين هذا الإحساس المبهم الذى لايعرف الإنسان من أين ينبع على وجه التحديد ، وبين الإدراك الواعى بأنها ليست توجيهات تربوية متناثرة تجىء بالمصادفة فى سياق الآيات ، وإنما هو منهج شامل متكامل ، كل جزئية فيه مقصودة ، وكل كلمة فيه بحساب !

وقد لا يكون من الضرورى لكل إنسان أن يدرك بوعيه وجود هذا المنهج الشامل المتكامل المفصل ، فإن الإحساس المبهم الذى يثيره القرآن فى قارئه أو سامعه ، يؤدى مهمته فى توجيه النفس إلى الخير وتعويدها على الصلاح . ولا شك أن أعداداً لاحصر لها من المسلمين فى العصور الأولى أو الأخيرة قد أخذت انطباعاتها من هذا الطريق المباشر ، الذى يصل مباشرة إلى أعماق النفس ، ويحركها ويوجهها إلى حيث ينبغى أن تكون .

ومع ذلك فلهذا الوعى قيمته .

له قيمته فى أنه يسند الإحساس الوجدانى المبهم ويزيد من تأصله فى النفوس.

وله قيمته لدى الدارسين والباحثين، الذين يصعب عليهم إمساك الوجدانات الطائرة، فيريدونها مناهج ثابتة تخضع للبحث والتحليل.

وله قيمته أخيراً فى مواجهة الفتنة بالمناهج الشائعة فى الغرب والشرق، والتى تفتن الناس بأنها « مناهج » مفصلة مدروسة، فيغفلون عما فيها من انحراف خطر، ويظنونها صالحة لمجرد كونها مدروسة مفصلة!

* * *

ولقد ظللت زمناً أقرأ القرآن دون أن أفطن إلى هذا المنهج.

وحتى حين ألفت كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » وأبرزت فيه بوضوح أن للإسلام نظرة خاصة إلى «الإنسان»، وطريقة خاصة فى معاملة النفس الإنسانية، تختلف فى أساسها عن الطريقة المادية التى يمارسها الغرب المادى: شرقه وغربه سواء.. حتى حينئذ لم أكن فطنت إلى منهج التربية الإسلامية، لأنى كنت مشغولا بالدراسة السيكلوجية فى ذلك الكتاب، وبالنظرة العامة إلى الإنسان.

وقد أوردت فى ذلك الكتاب صفحة واحدة عن التربية الإسلامية، لاتحمل أكثر من خطوط عريضة جداً لهذه التربية، ثم كتبت عنها فصلا واحداً فى كتاب لم ينشر بعد عن سياسة التعليم. وكنت فى هذا وذاك أعالجها فى حذر ومن بعيد.

ذلك أنها لم تكن فى حسى قد اتضحت بعد!

ومرت سنوات وأنا لا أزداد قرباً من موضوع التربية ولا أتجه إلى الكتابة فيه.

حتى كانت ليلة عجيبة مازلت أذكرها كأنها الأمس، وقد مر عليها أكثر من أربع سنوات!

كنت فى ضائقة نفسية شديدة لايبدو فى ظلمتها بصيص من النور.

وكان القرآن كتابنا الأوحد الذى نقرأ فيه .

وكنت إلى تلك الليلة قد قرأته — كله — ثلاث مرات أو أربعا ، وعشت فيه كل لحظة من النهار والليل ، وعشت منه كل آية وكل حادثة وكل خبر وكل توجيه .

وفجأة — فى تلك الليلة — أحسست بصفاء ذهنى وروحى غير معتاد . وفجأة كذلك أحسست بمجموعة من الخواطر تنثال على نفسى متتابعة كأنها درس محفوظ !

ياعجباً ! هذا منهج متكامل للتربية الإسلامية لم يخطر فى نفسى أبداً من قبل!

منهج متكامل لايترك صغيرة ولا كبيرة .. يشمل النفس الإنسانية كلها بحذافيرها ، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل !

كيف كان هذا المنهج غائباً عنى .. لا أدرى !

إنه فى وضوحه وبساطته يشبه البديهيات !

ومع ذلك فقد كان غريباً عن نفسى قبل ذلك بلحظات !

ومنذ تلك اللحظة أصبح منهج التربية الإسلامية واضحاً فى نفسى ، واعياً فى حسى ، أجد له الشواهد فى كل توجيه قرآنى ، وفى كل حديث أو عمل للرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الترجمة الواقعية للقرآن. وقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن.

ومن ثم كان هو النموذج الحى للتربية الإسلامية ، والمفسر لهذا المنهج ، سواء بأخلاقه الذاتية أو بتوجيهاته للناس .

وأخذت أدرس المسألة على هذا النحو ، وصح فى عزمى أن أسجلها فى كتاب.

* * *

ومنهج التربية الإسلامية فريد فى كل مناهج الأرض ، وإن التقى ببعضها فى التفصيلات والفروع . فريد فى شموله ويقظته لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية وكل خالجة وكل فكرة وكل شعور . وفريد فى أثره فى داخل النفس وفى واقع الحياة . فقد كان من أثره تلك الأمة العجيبة فى التاريخ . الأمة التى انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء . والتى قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقى على غير الصراع والحرب ، فإذا هى أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها فى الأرض ، تفتسح وتغزو ، وتعمر وتبنى ، وتقيم مُثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد ، وتنتشر فى سنوات قليلة فى رقاع الأرض ، تنشر النور والهدى ، وتنشىء الحياة بإذن ربها من جديد .

هذه الأمة كلها من نتاج هذا المنهج . كلها ، بماديانها ومعنوياتها ، بمشاعرها وأفكارها ، وسلوكها وأعمالها .. أمة فريدة فى التاريخ .

ولئن كان الزمن قد مزق هذه الأمة وشتت كيانها ، على مراحل بطيئة بطيئة استغرقت أكثر من ألف عام ، فقد كان سبب التمزيق على أى حال هو البعد عن منهج التربية الإسلامية ، وعن الحياة الاجتماعية الإسلامية مع المحافظة على بعض المظاهر الخاوية أحياناً ، والبعد عنها جهرة فى بعض الأحيان .

فإذا كان هذا الكتاب يستطيع أن يكشف للمسلمين عن نواحٍ من منهجهم ، ويبعثهم على فهمها والإيمان بها ، فقد أدى مهمته كاملة ، ومن الله التوفيق.

وقد خصصت هذا الجزء من الكتاب لشرح النظرية ، مأخوذة من وجهة النظر النفسية ، على أن يخصص جزء آخر للتطبيق ، فى مراحل الطفولة ، والمراهقة ، والشباب المبكر ، والنضج ، واستعراض ما كتبه المسلمون فى التربية فى العصور المختلفة ، والموازنة بين النظرية الإسلامية والنظريات الغربية فى التربية.

اللهم وفقنى إلى ما فيه الخير ، إنك سميع مجيب الدعاء .

محمد قطب

تمهيد :

الوسائل والأهداف

هل العبرة فى مناهج التربية بالوسائل أم الأهداف ؟

إن بعض الوسائل على الأقل يتغير من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل .

ثم إن الوسيلة الواحدة يمكن أن تخدم أهدافاً عدة . أو لا تخدم هدفاً على الإطلاق !

الرياضة البدنية مثلاً وسيلة من وسائل التربية . ولكنها — فى ذاتها — لا تحدد منهجاً ولا ترسم طريقة .

فهى يمكن أن تربى الطاعة والحرص على النظام كما كانت فى ألمانيا النازية ، حيث كان الشباب يدرب على الرياضة البدنية تدريباً عنيفاً ، لا لخلق أجسام قوية فحسب ، ولكن لتعويد الشباب على طاعة الأوامر ، والفناء فى شخصية الدولة ، والفناء فى شخصية هتلر القائد المتحكم صاحب السلطان .

ويمكن أن تربى التعاون والروح الجماعية كما يقصد بها فى انجلترا ودول الشمال .

ويمكن أن تنقلب إلى أنانية فردية كما هو الحال فى بعض الرياضيين عندنا حيث يوجهون همهم إلى البروز الشخصى ، حتى فى كرة القدم ، التى أنشئت فى الأصل لبث الروح الجماعية المتعاونة !

ويمكن أن تنقلب إلى عبادة الجسد والافتتان بالقوة الجسمية البحتة ، أو « بجمال » الأجسام ، كما كان الحال عند الرومان .

ويمكن أن تنقلب إلى مجرد تربية « عجول آدمية » منتفخة الرقبة ممتلئة العضلات ، لا تحس من الروح الرياضية شيئاً ، ولا ترتفع عن محيط الحيوان !

والتربية بالقصص وسيلة من وسائل التربية ، يمكن أن تخدم أهدافاً عدة ، ويمكن ألا تخدم هدفاً على الإطلاق !

يمكن أن تربى فى الناس الروح الفنية والحساسية المرهفة للجمال .

ويمكن أن تربى فيهم التفكر فى الأنفس وفى الآفاق ، وتوجههم إلى تدبر العبرة من الحوادث ، والتطلع إلى المدى ، والبعد عن الضلال .

ويمكن أن تكون مجرد « تسلية » .

ويمكن أن تشيع فى الناس التفاهة والانحلال . .

وهكذا كثير من الوسائل ، لا يحكم بذاته على منهج ، ولا يبين الطريق .

ولكن هذا ليس معناه أن نهمل الوسائل و نسقطها من الحساب .

كلا . فالوسائل هى أداتنا الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف ، وينبغى العناية الكاملة بها ، والتدقيق فى بحثها واختيارها ، إذ الوسيلة الفاسدة تضيّع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق .

ومن ثم فالوسائل والأهداف ترتبطان ارتباطاً كاملاً فى مناهج التربية .. لا تفترقان . لا يمكن تقويم الهدف من غير الوسيلة التى تؤدى إلى تحقيقه ، ولا يمكن تقويم الوسائل بمعزل عن الأهداف .

* * *

ومنهج التربية الإسلامية منهج متميز متفرد فى وسائله وفى أهدافه بشكل ظاهر يلفت النظر ، ويدعو إلى التفكر فى مصدر هذه العقيدة التى تفردت على مدار التاريخ .

ولا شك أن التقاء عرضياً يحدث بين الإسلام وغيره من مناهج التربية ومناهج الحياة ، سواء فى الوسائل أو الأهداف . ولكن هناك حقيقة تظل قائمة بعدذلك : هى أن البشرية لم تعرف فى تاريخها كله نظاماً بهذه السعةوهذا الشمول وهذه الإحاطة ، بحيث لا يند عنه شيء فى حياة الإنسان ولا لحظة من حياته ، لا تقع فى محيط منهاجه الشامل الدقيق . وتظل له مزية أخرى فوق ذلك : هى أن هذه السعةوهذه الإحاطة لا تخرجان به عن وحدة الهدف ووحدةالطريق . فهو ليس طرائق قددا كل منها يؤدى إلى غاية منفصلة ويجذبالنفس فى اتجاه ، فتتمزق بين الشد والجذب ، وإنما هو طريق واحد وغاية واحدة ، تجمع كل شتات النفس وتوحدها ، فتستقيم على النهج ، وتتجمع على الغاية . فتلتقى النفس من داخلها فى سلام بعضها مع بعض ، وفى سلام من خارجها مع الكون والناس والحياة .

ومنذ اللحظة الأولى يحس الإنسان بذلك التفرد .

فبينما تلتقى مناهج التربية الأرضية كلها تقريباً على هدف متشابه ، وإن اختلفت فى وسائل تحقيقه متأثرة بالبيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية . . . إلخ ، نجد الإسلام منذ البدء مفترقاً عنها فى هذا الهدف ، مغايراً لها فى الاتجاه .

تلتقى مناهج التربية الأرضية على أن هدف التربية هو إعداد « المواطن الصالح » .

وتختلف الأمم بعد ذلك فى تصور هذا المواطن وتحديد صفاته . فقديكون هو الجندى الشاكى السلاح ، المتأهب فى كل لحظة للوثوب سواء للعدوان أو لرد العدوان. وقديكونهو الرجل الطيبالمسالم الذى لا يحبالاعتداءعلىأحد

ولا اعتداء أحد عليه . وقد يكون هو الناسك المتعبد الذى يهجر الحياة الدنيا وينصرف عن صراع الأرض الكريه . وقد يكون هو العاشق لوطنه المجنون بعنصريته .. وقد يكون .. وقد يكون .. ولكنها تشترك كلها فى شىء واحد : فى إعداد « المواطن الصالح » .

أما الإسلام فلا يحصر نفسه فى تلك الحدود الضيقة ، ولا يسعى لإعداد «المواطن» الصالح ، وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر وأشمل ، هو إعداد « الإنسان » الصالح .

الإنسان على إطلاقه ، بمعناه الإنسانى الشامل . الإنسان بجوهره الكامن فى أعماقه . الإنسان من حيث هو إنسان ، لا من حيث هو « مواطن » فى هذه البقعة من الأرض أو فى ذلك المكان .

وذلك معنى أشمل ولا شك من كل مفهوم للتربية عند غير المسلمين .

* * *

منذ الخطوة الأولى ، فى العهد المكى ، والمسلمون قلة قليلة تعد بالأفراد .. قلة مطرودة من كل حمى إلا حمى الله ، محرومة من كل قوة وكل سلطان .. يقرر القرآن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها، فيقول فى سورة مكية من أوائل السور : سورة التكوير : « إن هو إلا ذكر للعالمين » .

« للعالمين » منذ أول خطوة . لا للعرب ، ولا لأهل مكة ، ولا لقريش . للعالمين كلهم فى كل بقاع الأرض ، لا فرق بين أعجمى وعربى فى ميزان الله إلا بالتقوى والهدى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .

---

(١) سورة الحجرات (١٣)

دعوة لا تعرف حدود الوطن ولا العنصر ولا القبيلة ولا الأسرة . لا تعرف حاجزاً واحداً من الحواجز المصطنعة التى يقيمها الناس لأنفسهم فى الأرض ، ويتصارعون من داخلها على الغلبة والسلطان .

دعوة لا تقسم الناس طوائف ، ولا تقسمهم ألواناً ولا عناصر . وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة ، حيث يكمن « الإنسان » . الجوهر الفذ الذى تتكون منه الإنسانية .

* * *

وهو فى عمله لإعداد « الإنسان الصالح » لا يترك الناس حيارى يخبطون فى التيه ، كل منهم يرسم الصورة على هواه ، وإنما يحدد لهم « مواصفات » هذا الإنسان فى دقة ووضوح ، ويرسم لهم المنهج الذى يصلون به إلى تحقيق تلك الغاية .

فهذا الإنسان هو الإنسان « الأتقى » : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .

وهو الإنسان الذى يعبد الله ويهتدى إليه : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[2] . ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة ، وإنما هى معنى شامل جداً وواسع جداً ، يشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، ويشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور : هو التوجه بكل نشاط حيوى إلى الله ، ومراعاة ما يرضى الله فى هذا النشاط وما يغضبه ، وتوقى غضبه والعمل على رضاه .

وهو الإنسان الذى يتبع هدى الله : « فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[3] » ، فهو يستمد من هذا الهدى منهج حياته ومنهج شعوره ومنهج سلوكه ، ولا يتلقى من مصدر سواه .

---

(١) سورة الحجرات (١٣) . (٢) سورة الذاريات (٥٦) .
(٣) سورة البقرة (٣٨) .

وهو بالجملة الإنسان الذى يفى بشرط الخلافة فى الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة[1] » . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[2] » . فشرط الاستخلاف هو العمل بمقتضى هذا التكريم الإلهى ، فلا يهبط الإنسان عن مستوى « الإنسانية » ولا يتنازل عن الأفضلية التى فضله بها خالقه على كثير ممن خلق . فينشط فى عمارة الأرض بما يوحيه حمله « فى البر والبحر » ورزقه « من الطيبات » فيستغل هذه الطاقات الممنوحة له فى كل اتجاه ، ولكن على المستوى الكريم الرفيع ، فى حدود التقوى والاستمداد من منهج الله .

* * *

ولكى يصل إلى هذا الهدف المحدد الواضح السمات ، الذى نفصله فى الفصول التالية من الكتاب ، فهو يرد الناس إلى خالقهم ويصلهم به مباشرة وبلا حواجز : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك[3] » . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه[4] » . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[5] » .

وهذا الرد إلى الخالق هو محور العقيدة الإسلامية كلها ، ومحور منهجها التربوى كله ، ومنه تتفرع كل التشريعات والتنظيمات والتوجيهات ، ومنه تسير الحياة البشرية على نهجها القويم .

يرتد الناس إلى خالقهم ، فيعلمون أنه وحده صاحب القوة والحول ، وصاحب

---

(١) سورة البقرة (٣٠) .
(٢) سورة الإسراء (٧)
(٣) سورة الانفطار (٦ — ٨) .
(٤) سورة الانشقاق (٦) .
(٥) سورة ق (١٦) .

الجبروت والسلطان . هو المالك لكل ما فى الأرض وكل من فى الأرض «بيده ملكوت كل شيء[1]» فلا يتطلعون لأحد غيره ، ولا يتعبدون لأحد سواه . ومن ثم تتحرر قلوبهم وأرواحهم ، وينطلقون خفافاً إلى الله .

ويرتدون إلى خالقهم فيهتدون بهديه ويسيرون على منهجه ، ولا يسيرون على نهج أحد آخر ولا قوة أخرى من قوى الأرض ، لأنها كلها ضعيفة هزيلة . كلها ضائعة مضيعة . كلها زائلة فانية . والقوة الحقيقية هى قوة الله ، والسلطان الحقيقى سلطانه ، والمنهج الصحيح منهجه . ومن ثم تصلح نفوسهم وتصلح حياتهم على الأرض .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون بقوتهم إزاء كل قوى الأرض . . قوتهم التى يستمدونها من قوة الله ، فإذا هم قوة فاعلة موجّهة مريدة . قوة تبنى وتنشئ وتعمر ، وتستغل ما سخر لها من قوى الأرض : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه »[2] ، فلا يقعدها العجز ، ولا تضعف بها الوسيلة ، وإنما تظل تحاول حتى تصل ، مستمدة عزيمتها من الله .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون أن منه المنشأ وإليه المصير . كلهم نشأوا من قدرته القادرة ، وكلهم صائر إليه : «فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر »[3] «إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير»[4] «إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »[5] ومن ثم يتطلعون إليه وحده فى كل أمر ، ولا يلجأون إلى أحد سواه .

---

(١) سورة يس (٨٣) .
(٢) سورة الجاثية (١٣) .
(٣) سورة الطارق (٥ — ١٠)
(٤) سورة ق (٤٣) .
(٥) سورة مريم (٤٠) .

ويرتدون إلى خالقهم فيحسون المشاركة فى الإنسانية،فهم جميعاً قد صدروا عن إرادة الله ، ثم هم جميعاً خلقوا من نفس واحدة : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء[1] » ومن ثم تصلح نفوس بعضهم تجاه بعض ، وتقوم بينهم أواصر الإنسانية والتعاون والمحبة ، ولا يقوم بينهم النزاع والشقاق .

* * *

ذلك باختصار هو الأساس الذى يقوم عليه منهج التربية الإسلامية،وتلك خطوطها العريضة التى سيجىء تفصيلها فى الكتاب ، وهى كلها مستمدة من حقيقة واحدة : حقيقة الخالق الذى ترجع إليه جميع الأمور .

وسوف يتبين لنا فى البحث التفصيلى مدى تفرد الإسلام فى الأهداف والوسائل ، ولكنه منذ اللحظة الأولى واضح التفرد ، فكل النظم الأخرى غير الإسلام أحد فريقين : فريق يصل الناس بخالقهم ، ليتركوا الأرض ، ومتاع الأرض ، وكفاح الأرض . وفريق يصل الناس بالأرض فيستمتعون بها ، ويكافحون من أجلها ، ويعمّرون فيها . . ويتركون الله . . والإسلام وحده هو الذى يصل الإنسان بالله ليُصلح حاله على الأرض وينظم حياته ، فيسير بجسمه على الأرض ، وهو متجه بروحه إلى السماء .

---

(١) سورة النساء (١) .

خصائص المنهج الإسلامي

طريقة الإسلام فى التربية هى معالجة الكائن البشرى كله معالجة شاملة لاتترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء . جسمه وعقله وروحه ، حياته المادية والمعنوية ، وكل نشاطه على الأرض .

إنه يأخذ الكائن البشرى كله ، ويأخذه على ما هو عليه ، بفطرته التى خلقه الله عليها ، لايغفل شيئاً من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئاً ليس فى تركيبها الأصيل .

ويتناول هذه الفطرة فى دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

وفى الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة . لايعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازاً لا تناسق فيها . ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر ، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل ، الذى يصل فى جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع .

* * *

وحين يستعرض الإنسان وسائل الإسلام فى التربية ، يعجب للدقة العجيبة التى يتناول بها الكائن البشرى . الدقة التى تتناول كل جزئية على حدة كأنها متفرغة لها ، ليس فى حسابها سواها ! ثم الشمول ، على هذا المستوى من الدقة.. الشمول الذى يتناول الجزئيات جميعاً ، وفى وقت واحد .

إنها دقة معجزة لاتصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم .

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم »[1].

والإسلام دين الفطرة . . . فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام ، أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها وضبط إيقاعاتها ما يستخلصه الإسلام .

إنه لا يعطى كل جانب من الإنسان غذاءه فحسب ، بل يعطيه إياه كذلك بالقدر المضبوط الذى لا يجيعه ولا يتخمه ، ومن ثم ينطلق الإنسان وقد أخذ حظه من الغذاء الصالح ، بمقاديره الصالحة ، نشيطاً منتجاً متحركا على الدوام .

وما من نظام آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول .

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشرى فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحاً له .

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة .. كل ماتدركه الحواس فهو حقيقة . ومالا تدركه فهو غير موجود ، أو ساقط من الحساب . ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض : الزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادى على أوسع نطاق . وتهتم بكل محسوس فى الكيان البشرى ، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه ، ويسرت له قضاء الشهوات .

ثم أغفلت من كيانه جانب الروح .

أهملت كل مالا تدركه الحواس . أهملت الله والعقيدة ، وما يشع من العقيدة من مثل وأخلاق .

وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع ، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع : التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية ..

ثم .. انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة .

---

(١) سورة الروم (٣٠) .

وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة، ويجعلها سباقاً دائماً لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة: راحة الجسد أو النفس أو الضمير. وتزايد الصراع فما عاد صراعاً فى باطن النفس، ولا صراع فرد مع أفراد، أو صراع جماعة مع جماعة .. وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخ .. ودمار رهيب يهدد وجه الأرض.

ونظم آمنت بالجانب الروحى من الإنسان.

آمنت بأن هذا الجانب هو الجوهر الحق. وكل ماعداه خداع لايثبت على حقيقة. زبد يذهب جفاء.

وراحت تغذى الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق.

واحت تتعبد وتتنسك، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لاتنبغى إطاعته، ورجس لا ينبغى له أن يكون.

واستمتع الناس بحياة الروح. سبحوا فى ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة، النظيف من أدران الشهوات. وحلقوا فى آفاق عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام .. ثم .. تمرد الجسد المكبوت على خنق الفطرة، وكفر الناس بمتاع الروح .. أو أصابتهم السلبية الخاملة التى لا تنتج شيئاً فى واقع الأرض، لاتنشىء ولا تعمر، ولا تهدم ولا تبنى. ولا تغير الباطل ولا تقيم الصحيح من الأوضاع.

كلاهما انحراف عن السبيل.

كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التى أرادها له خالقه يوم قال: « إنى جاعل فى الأرض خليفة ». الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله.

والإسلام يجمع هذه وتلك، ولا ينحرف كما تنحرف هذه وتلك.

الإسلام يؤمن من الكائن الإنسانى بما تدركه الحواس ، وبما يقع خارج نطاق الحواس .

يؤمن بكيانه المادى المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض : « إنى خالق بشراً من طين[1] » .

يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب ، ويؤمن بما فيه من طاقات .

ويعترف بهذا الكيان اعترافاً كاملاً لا يغض شيئاً من قيمته ، ولا يهدر شيئاً من طاقاته .

يستجيب لحاجاته ومطالبه ، فيوفر له المأكل والملبس والمسكن والجنس ، ونصيبه من المتاع . ويجند طاقاته لتعمل فى تعمير الأرض وإنشاء النظم وتشييد الحضارات .

وفى الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحى للإنسان ، يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[2] » .

يؤمن بما لهذا الكيان الروحى من مطالب ، وما يشتمل عليه من طاقات .

فيعطيه ما يطلبه من عقيدة ومثل وصعود وترفع ، ويجند طاقاته فى إصلاح كيان النفس وإصلاح شرور المجتمع ، وإقامة الحق والعدل الأزليين .. بأن يصله بالله ، يستمد وجوده ووحيه من مولاه .

وليس هذا فقط ولا ذاك .

ليست مزية الإسلام أنه يشمل الكيان البشرى كله ولا يترك شيئاً من جوانبه المتعددة الطاقات .

وإنما المزية الحقة أنه يساير الفطرة فيما هو أبعد من هذه الحقيقة .

---

(١) سورة ص (٧١)   (٢) سورة ص (٧٢)

إن كيان الإنسان من جسم وروح ، أوجسم وعقل وروح إذا اعتبرنا العقل كياناً متميزاً عن هذين ، هذا الكيان ليس منفصل الأجزاء . . إنه ليس جسما وحده مستقلا بذاته لا علاقة له بالروح أو العقل . وليس عقلا منفصلا مستقلا بذاته لا يرتبط بجسم أو روح ، وليس روحاً وحدها هائمة بلا رابط من عقل أو جسم . وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء .

ولقد أغرى الانفصال الظاهرى بعض النظم فتخصصت . . تخصصت لعبادة الجسد أو عبادة العقل أو عبادة الروح . . ونسيت الكيان المتكامل وأهملته من الحساب .

وقد أغرى البحثَ العلمىَّ المتخصص بطبعه ، فقسم الإنسان جسما بلا عقل ، أو روحاً بلا جسم ، أو عقلا بلا روح . . وراح يبحث كل واحد على حدة وهو يوهم نفسه أن هذا هو الإنسان .

ولكن الواقع المشهود ليس كذلك .

نعم توجد لحظات كأنها لحظة جسد خالصة أو لحظة عقل خالصة أو لحظة روح . كأنها . . وليست كذلك فى الواقع !

واستغراق الإنسان فى لحظة من هذه اللحظات هو الذى يوهمه أن هذا الانفصال قائم ، وأنه فى حيز الإمكان .

لحظة الروح الخالصة . . أروع لحظة على ظهر الأرض فى تاريخها كله . . أرفع إشراقة لأعظم روح .. لحظة الوحى الذى تنزّل على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأضاء روحه الصافية وأضاء وجه الأرض كله كما لم يضئ قط . هذه اللحظة لم تكن لحظة روح خالصة !

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه »[1] !

(١) سورة القيامة (١٦ — ١٧) .

حتى فى تلك اللحظة « الخالصة » تحرك اللسان وهتف هاتف من هواتف النفس ، حرصاً على حفظ القرآن أن يذهب من الذاكرة .. تحرك الجسم وتحرك العقل فى أروع لحظة وأرفع إشراقة لأعظم روح ..

ولحظة التفكير الخالصة التى يسهو فيها الإنسان عن جسمه وروحه ، لا تنسيه جسمه فى الواقع إلا نسياناً ظاهرياً ، لأنه فى تلك اللحظة ساكن أو مستريح ، ولو أحس بالألم فى أى جزء من جسمه ، لو أحس بالصداع أو أحس بالجوع أو أحس بالعطش لتنبه لجسمه المهجور !

ولحظة الجسد الخالصة التى ينسى فيها الإنسان عقله وتركبه الشهوة الجارفة ، ليست طويلة الأمد كما قد يخيل لصاحبها وهو منهمك فى طعام شهى أو شراب شهى أو متاع لذيذ . وهى فوق ذلك ليست خالصة إلا من الظاهر ، فالعقل ساكت لأنه ساكن أو مستريح . ولو خطرت للإنسان فكرة مزعجة أو ذكرى غائبة لأيقظته من متاعه « الخالص » ولتغير إحساسه فى لحظات .

كل ما يحدث أن لحظة من اللحظات يغلب عليها لون معين من المشاعر ، أو يبرز فيها جانب معين من الإنسان . ولكنه لا ينفصل قط عن ترابطه مع بقية الكيان البشرى ، ولا يستقل بعيداً عنها فى اتجاه .

وكما يتصل الكيان النفسى الداخلى بعضه ببعض حتى مع غلبة جانب من الجوانب فى بعض اللحظات ، فكذلك يتصل الكيان الخارجى فى واقع الحياة . لا يوجد عمل واحد من أعمال الإنسان منفصلا فى حقيقته عن بقية الأعمال ، وإن بدا من الظاهر كذلك ، أو ظهر غالباً فى بعض الأحيان .

حياة الإنسان المادية لا تنفصل عن حياته العقلية وحياته الروحية .

ومشاعره الروحية لا تنفصل عن واقعه المادى .

وتفكيره العقلى مرتبط بالجميع .

تلك حقيقة الكيان البشرى . ولكن الذى يُرى فى الظاهر حين تستغرق الناس مطالبهم المادية أو جهدهم المادى .. أو العقلى أو الروحى .. أن الجوانب الأخرى تتوارى مؤقتاً فلا تبرز على السطح .

ولكنها لا تقطع الاتصال !

إن الكيان النفسى للإنسان كيان مرن متحرك لا يجمد على صورة واحدة .

إنه دائم البروز والانحسار . يبرز منه جانب ويختفى وراءه جانب . فى حركة دائمة لا تهدأ . ولكن مزيته هى مرونته . المرونة التى تسمح له بالتحول الدائم والتشكل المستمر دون أن يفقد ترابطه أو يتفكك . إنه — والتشبيه مع الفارق — كجسم الأميبا ، دائم التشكل ولكنه هو هو فى المجموع .

وحين يحسب الإنسان أن بروز أحد جوانبه فى لحظة من اللحظات معناه انقطاعه عن بقية الكيان الداخلى .. أو حين تريد له عقيدة من العقائد أو نظام من النظم أن يحسب كذلك ، فالذى يحدث أن الجوانب الأخرى تكبت فى الداخل . تكبت ولا تنفصل عن الكيان !

فحين توحى عقيدة من العقائد أو نظام من النظم بأنه ليس ثمة روح ، أو ليس ثم إله . وأن الواقع المادى هو الحقيقة الوحيدة (حقيقة العالم تنحصر فى ماديته[1]) وأن الإنتاج المادى والتنظيم الاقتصادى هو كل حياة البشرية . . حين ذلك تكبت مؤقتاً جوانب الإنسان الروحية والوجدانية والفكرية . وقد تذبل وتنحسر ويصيبها الشلل فتعجز عن النشاط . ولكنها لا تبقى كذلك إلى الأبد ، وإلا مات الشعب وانقرض كما حدث لبعض الشعوب فى التاريخ .

---

(١) ذلك شعار المذهب المادى .

وكل النظم التى تأخذ جانباً واحداً من الإنسان وتفصله عن بقية الكيان تقع فى هذه الخطيئة ، وتؤدى بشعوبها إلى الهلاك فى النهاية بوسيلة من وسائل الهلاك .

والإسلام — كلمة الله إلى الأرض — قد سلم من هذه الخطيئة ونجا من ذلك الانحراف .

إنه فى الوقت الذى يؤمن فيه بكل جوانب الإنسان : جسمه وعقله وروحه ، ومطالب كل جانب وطاقاته ، يؤمن كذلك بوحدة الكيان البشرى واتصاله ، واستحالة فصل جانب منه عن جانب فى الفطرة السوية التى تسير على نهجها الذى خلقه الله .

ومن ثم لا يفصل فى داخل النفس بين الجسم والعقل والروح . ولا يفصل فى واقع الحياة بين هذه الطاقات . بل يأخذها بفطرتها السوية ممتزجة مترابطة ، ويرسم لها دستورها على ذلك الأساس .

الروح والعقل والجسم كلها كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان .

والروح والعقل والجسم كلها تعمل ممتزجة مترابطة فى واقع الحياة .

ولقد يغلب أحد جوانب الكيان فى لحظة وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر . ولكنها لا تنفصل قط وإلا فإنها تموت !

اليد وحدها تعمل وتتحرك وتمسك وتدع . ولكنها لا تعمل مستقلة عن بقية الجسم . إنها مرتبطة به بالعروق والدماء والأعصاب . ولو انفصلت لحظة فقدت القدرة على الحياة . وكذلك الكيان كله . كل جزء منه كاليد من الجسم . جزء مستقل فى الظاهر ، وفى الواقع متصل أوثق اتصال .

والإسلام يجارى الفطرة فى تركيبها جميعه .

مجاريها فى السماح ببروز بعض الجوانب أحياناً وانحسار بعض ، فيجعل ساعة للعبادة ، وساعة للتفكر ، وساعة للعمل ، وساعة للاستمتاع .

ولكنه مجاريها كذلك فى ترابط الجوانب كلها وامتزاجها ، فلا يسمح بفصل جانب عن بقية الجوانب ، أو إبراز جانب بكبت الجوانب الأخرى فى أى وقت من الأوقات .

ساعة العبادة ليست تهويمة روح خالصة ، وإنما هى حركة جسم وحركة عقل وانطلاقة روح ، والصلاة تظهر فيها بوضوح هذه الحقيقة ، فهى تشمل الجسم والعقل والروح كلها فى آن[1] ، ثم كل عمل فى عرف الإسلام عبادة مادام يتجه به الإنسان إلى الله .

وساعة التفكر — أيا كان لونه وهدفه — لا تنقطع عن الإحساس بالله والتفكير فيه .. لاتنقطع عن صلتها بالروح .

وساعة الجسد الخالصة لايفصلها الإسلام عن الروح !

إن كانت طعاماً أو شراباً فهى باسم الله . والصلة بالله هى صلة الروح . وإن كانت متعةجنس — حلال — فهى كذلك ، يُقرأعليها اسم الله . ويقول فيها الرسول الكريم : « إن فى بضع أحدكم لأجراً ! قالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ ! قال : أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذ وضعها فى حلال فله عليها أجر[2] ! » .

وكذلك نظم الاقتصاد والإنتاج المادى والتنظيمات « الأرضية » البحتة . لا يعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان النفسى فى مجموعه . فلا يعترف بأن هناك

---

(١) انظر فصل « العبادات الإسلامية » من كتاب « فى النفس والمجتمع » .

(٢) رواه مسلم .

قوانين اقتصادية منقطعة عن الصلات النفسية والروحية . أو أن هناك قوانين مادية لاتتصل بقوانين الروح !

ويقيم تنظيماته كلها على أساس هذه الحقيقة . على أساس الفطرة البشرية الممتزجة المترابطة التي لاينفصل فيها كيان عن كيان ، ولو غلب جانب من الجوانب في بعض الأحيان .

تشريعاته « الأرضية الخالصة » من زواج وطلاق وإرث وتنظيم اقتصادي وسلام وحرب وسياسة .. إلخ ، كلها تقوم على أساس العقيدة ، مرتبطة بها ارتباط العقل والجسم بالروح . وكلها تجيء في القرآن ممتزجة بالتوجيه إلى الله وخشيته وتقواه .

وتوجيهاته «الروحية الخالصة» ليست مقصودة لذاتها . العبادة الخالصة التي هي غاية الخلق كلهم من جن وإنس : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»[1] ليست مقصودة لذاتها ، فالله سبحانه لاينفعه ولا يضيره أن يعبده الناس أو لايعبدوه : «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون» [2] . «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغني عن العالمين » [3] . وإنما هو كرم الله سبحانه أن يجعل العبادة — التي هي غاية الخلق — هي الوسيلة لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة في الأرض . ثم كرمه السابغ سبحانه أن يثيب الناس على العبادة وهي عمل يعمله الإنسان لنفسه ، والله غني عنه وعن العالمين[4] !

* * *

هكذا يعالج الإسلام النفس البشرية والحياة البشرية : جسم وعقل وروح

---

(١) سورة الذاريات (٥٦) . (٢) سورة الذاريات (٥٧) .

(٣) سورة العنكبوت (٦) .

(٤) انظر فصل « العبادات الإسلامية » من كتاب « في النفس والمجتمع » .

ممتزجة مترابطة فى كيان واحد . وطاقة جسمية وطاقة عقلية وطاقة روحية عاملة فى الأرض ، ممتزجة مترابطة ، لا ينفصل عمل هذه عن تلك ، ولا تنحسر واحدة انحساراً دائماً لتبرز الأخريات .

وهو يصل من هذا المزج إلى نتائج معينة هى التى تحدد سمات « الإنسان الصالح » وتبرزه حقيقة ملموسة فى واقع الحياة .

فالتوقيع على أوتار النفس كلها ، مجتمعة مترابطة ، يضمن شيئين معاً وفى آن واحد :

الأول : هو استغلال طاقات الإنسان كلها ، فلا تهدر منها طاقة واحدة يمكن أن ينتفع بها الإنسان فى عمارة الأرض والخلافة عن الله . فهذه الثروة المتمثلة فى الكيان البشرى ثروة ثمينة متفردة فى نوعها ، عجيبة فى النتائج التى يمكن أن تصل إليها . ومن الكفران لنعمة الله — وهو بخس من الإنسان لنفسه فى ذات الوقت — أن يهمل شيئاً منها فلا يستغله إلى آخر مداه .

من الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الحيوية فى عمارة الأرض ، بالتنقيب عن كنوزها ، والتعرف على رزق الله الواسع فيها ، واستغلال ذلك كله لترقية الحياة وتنميتها ، والوصول بها كل يوم إلى مستوى جديد .

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الروحية فى التعرف على الله ، والاتصال به ، والاستمداد من قوته ، والاهتداء بهديه ، والعمل بمقتضى ذلك كله على ترقية الحياة النفسية وتنميتها ، والتعود على الخير ، والتعود على الحب ، والتعود على الشعور بترابط الإنسانية ، ومحاولة إيصال الخير المادى الذى يصل إليه الإنسان بطاقته المادية ، إلى جميع البشر ، الخلفاء لله فى مجموعهم ، الشركاء فى كل ثمار الحياة .

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته العقلية فى التعرف

على أسرار الكون وقوانينه ، والتعرف على سنن الله فى الكون المادى وفى حياة الإنسان ، واستغلال ذلك كله فى تنظيم الحياة البشرية وتقويمها ، والسير بها على نهجها القويم .

ومن بخس الإنسان لقدر نفسه أن يجهل طاقاته أو يهدر بعضها لحساب بعض . فهو يستطيع دائماً أن يَكُونَ نفسه كلها ، وأن يعمل بطاقاته جميعاً فى واقع الحياة . يستطيع أن يكون الإنسانَ العابدَ لله ، المستمد من هداه ، ويكون الإنسان المفكر المتعرف على أسرار الكون وقوانينه ، ويكون الإنسان العامل بجهده الحيوى لترقية الحياة وتنميتها . ولن يعطله جانب من هذه الجوانب — حين يسير على المنهج السوى — أن يُشبع الجوانب الأخرى ، أو يستفيد منها إلى غايتها . فهكذا قد خلقه الله قادراً على هذا النشاط المتعدد ، محققاً لكيانه فى الاتجاهات كلها ، وبهذه الطاقات المتعددة ذاتها منحه الخلافة فى هذه الحياة .

بل الأمر أبعد من ذلك . فهو حين يستغل طاقاته كلها يكون أجود إنتاجاً وأوفر حصيلة . فهذا المخلوق البشرى كالنبع الثر ، يفيض بقدر ما تتفتح منه العيون ، كلما فتحتَ عينا جديدة تدفق المجموع . وهذا واقع الحياة الإسلامية الأولى هو الشاهد على تلك الظاهرة البشرية الفذة ، فقد نشطت فى كل اتجاه فى العلم والعمل والفتح والتنظيم والتشييد ، فكان علماؤها هم العلماء ، وقادتها هم القادة ، ونظامها هو النظام وحضارتها هى الحضارة ، ولم تشعر أن نشاطها المادى يمنعها من عباة الله والاستمداد من هديه ، ولا أن عبادة الله تمنعها من الضرب فى مناكب الأرض ولا عمارتها ، ولا أن هذا وذلك يمنعانها من التفكير العلمى التجريبي ، بل كانت هذه الجماعة — كما يقول « جب » وغيره من المستشرقين — هى التى أدخلت الطريقة التجريبية فى البحث العلمى .

والأمر الثانى أن استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازناً فى داخل النفس وواقع الحياة سواء .

التوازن — وهو سمة من سمات الإنسان الصالح — معنى واسع شامل يشمل كل نشاط الإنسان .

توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح . توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته . توازن بين ضروراته وأشواقه . توازن بين الحياة فى الواقع والحياة فى الخيال . توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذى لا تدركه الحواس . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن فى النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . توازن فى كل شىء فى الحياة .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[1] . وسطا فى كل شىء ، متوازنين فى كل ما تقومون به من نشاط .

هذا التوازن هو فى الحقيقة سمة الكون كله الذى تتوازن فيه كل الأفلاك وكل الطاقات ، لا تختل منها واحدة فى الكون على اتساعه . وهو كذلك سمة الإنسان الصالح الذى يفى بشروط الخلافة عن الله فى الأرض ، ويسير حسب منهج الله خالق الكون والإنسان .

والوصول إلى التوازن فى حياة الإنسان — المتعدد الطاقات والاتجاهات — ليس أمراً هيِّناً فى الحقيقة . فهو جهد جاهد يستغرق حياة الإنسان كلها ، ويشمل كل لحظة من لحظات هذه الحياة . جهد التوفيق بين الضرورات القاهرة والأشواق الطائرة . جهد التوفيق بين ما يجب أن يكون وما يمكن أن يكون . جهد التوفيق بين مطالب الفرد الواحد المتعددة المتعارضة وبين مطالب المجموع . جهد التوفيق

---

(١) سورة البقرة (١٤٣) .

بين العمل للعاجلة والعمل للآجلة . جهد التوفيق بين هذه اللحظة وهذا الفرد وهذا الجيل وبين جميع اللحظات وجميع الأفراد وجميع الأجيال ... جهد جاهد يستغرق كل طاقة الحياة !

ومع ذلك فهو هدف يستحق كل ما يبذل فيه من جهد ، لأنه يحقق للإنسان فى الأرض أقصى ما يستطيعه من سلام وسعادة وإنتاج ، فى كل حقل من حقول الإنتاج المادى والمعنوى على السواء .

وكل ما يصيب الإنسان فى الحياة من شر . كل ما يصيبه من قلق أو جزع أو اضطراب . كل ما يصيبه من فساد وبوار وشقوة . هو نتيجة حتمية لفقدان التوازن فى داخل النفس ، وفقدانه من ثم فى واقع الحياة .

حين تطغى على الإنسان شهوة من شهواته : شهوة مال أو شهوة جنس أو شهوة قوة أو شهوة سلطان .. فذلك اختلال فى باطن نفسه ، لا يسعده فى الحقيقة وإن بدا له فى أول الأمر أنه مستمتع وراض وسعيد . إنما هو فى الواقع فى شقوة دائمة لأنه قلق على ما عنده وراغب فى المزيد . ثم هو اختلال فى واقع الحياة . فكل شهوة زائدة عن الحد لا تجرف صاحبها وحده ، وإنما تصيب غيره من الناس فى الطريق . تصيبهم بعدوان يقع عليهم لا محالة من هذه الشهوة التى تجاوز الحدود .

وحين يجنح الإنسان بطاقة من طاقاته على حساب بقية الطاقات ، فذلك اختلال فى باطن النفس ينتج عنه اختلال فى واقع الحياة . حين يجنح بطاقته الحيوية فيسعى إلى المتاع الزائد عن الحد ، أو يجنح بطاقته العقلية فيعيش فى برج عاجى بعيداً عن واقع الحياة ، أو يجنح بطاقته الروحية فيهوم فى سبحات روحية سلبية لا تتحول إلى عمل وإنتاج فى عالم الحس ، فلن يكون سعيداً وهو فرد ، لأنه يظل يظلع فى مشيته وتختل مواقع أقدامه — لأن الثقل يقع عليها غير

متوازن — ولن يكون سعيداً وهو مجوع ، فلا يمكن أن تستقيم حياة جماعة كل همها المتاع الحيوانى — وقد انهارت فرنسا حين وصلت إلى هذا المدى من المتاع . ولا جماعة يشتغل مفكروها بالفلسفة المنقطعة عن واقع الأرض — وقد تعرضت أوربا لأعنف الاضطرابات فى القرنين الأخيرين ، وانتهت إلى الشيوعية فى نهاية المطاف ، كرد فعل للفلسفة المثالية التى كانت تحلق فى أفكارها النظرية الخاوية وتترك جموع البشر يأكلهم الجوع والحرمان والمذلة المهينة لكرامة البشرية . ولا جماعة تعيش فى تهويمة الروح السالبة — وقد كانت الهند والصين ترزحان تحت وطأة التأخر والانكماش والضياع حتى بدأتا تتخلصان أخيراً من هذه التهويمة السالبة وتعيشان فى واقع الحياة .

لذلك يحرص الإسلام على التوازن ويجعله هدفاً أساسياً فى منهاجه ، ويبذل فيه كل ما فى الطاقة من جهد . يبدأ فيه مع الطفل من مولده ، ويسير فيه مع الإنسان فى جميع مراحل نموه ، ولا يتركه فى لحظة واحدة دون معاونة أو توجيه .

وطريقته هى تلك التى أسلفنا : التوقيع على أوتار النفس كلها ، مجتمعة مترابطة فى آن . فإن ذلك — كما سنرى فى الفصول التالية — يؤدى إلى التوازن المنشود حين تتخذ له الوسائل الصحيحة التى يرسمها منهج الإسلام .

* * *

من خصائص المنهج كذلك — وهى من سمات الإنسان الصالح فى ذات الوقت — الإيجابية السوية . فمن نتائج المزج بين طاقات الإنسان كلها وربطها بعضها ببعض ، أن يتحول المخلوق البشرى إلى طاقة إيجابية عاملة فى واقع الحياة . ولكنها الإيجابية السوية التى لا تتنكب الطريق .

فى الكائن الإنسانى استعدادات مختلفة متباينة فيها الموجب وفيها السالب فى كل اتجاه . وإذا تركت هذه الاستعدادات وشأنها ، كل منها ينمو من ناحيته

أو يتوقف عن النمو ، فالنتيجة هى اختلال التوازن من جهة ، واضطراب السمة التى يتصف بها الإنسان فى مجموعه ، فهو سلبى أحياناً وإيجابى أحياناً ، على غير منهج سوى أو هدف مرسوم .

والإنسان — كما يريده الله — قوة فاعلة موجِّهة مريدة ، ومن ثم فهو قوة موجبة فى واقع الحياة . قوة دافعة إلى الأمام . قوة تسيطر على القوى المادية وتستغلها فى عمارة الأرض .

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه[1] » . قوة يغيّر الله واقع البشر عن طريقها : « إن الله لا يغيّر مابقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم[2] » . قوة تنشئ واقعها حسب المنهج الذى تؤمن به ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم بنفسها نظامها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[3] » .

قوة إيجابية .. ولكن بغير طغيان .

والطغيان — بكل أنواعه — هو المنزلق السهل أمام الإيجابية الفاعلة .

يطغى الإنسان على نفسه فيكبت بعض طاقاتها ليبرز بعضها الآخر . يكبت طاقة الروح ليبرز طاقة الجسم أو طاقة العقل . يكبت معنوياته ليبرز جوانبه المادية ، ويحقق كيانه عن طريق الإنتاج المادى .

ويطغى الإنسان على غيره ، فيعطى نفسه حقوقاً لا يعطيها للآخرين . يعتبر نفسه — فرداً أو شعباً — من عنصر ممتاز يحق له أن يستعبد الآخرين ويخضعهم لسلطانه . يحق له أن يسلبهم كراماتهم وحرياتهم ومقومات حياتهم ،

(١) سورة الجاثية (١٣) . (٢) سورة الرعد (١١) .
(٣) سورة آل عمران (١١٠) .

لينتفش بها وحده ويتضخم .. أو يحق له أن يصنع كما يشتهى ، يقرر حقوقه كما يتراءى له ، ويقرر واجباته بنفسه — إذا رأى أن تكون عليه واجبات! — ولا يعنيه ترابط المجتمع ولا الخلل الذى يطرأ عليه حين يصنع كل فرد فيه ما يريد حينما يريد .

تلك نماذج من الإيجابية المختلة .

وفى مقابلها .. سلبية مريضة .

يكون الإنسان سلبياً مع نفسه ، فيطلق لها عنان الشهوات ، لأنه لا يملك القوة الضابطة — القوة الموجبة — التى يضبط بها نوازع الشهوة .

ويكون سلبياً مع غيره. سلبياً إزاء القوى المادية والاقتصادية والاجتماعية. سلبياً إزاء العرف والعادات والتقاليد . سلبياً إزاء سطوة المجتمع أو جموده أو القوى المسيطرة عليه . ومن ثم يضيع كيانه الفردى وينسحق تحت ما يقع عليه من ضغوط .

كلاهما اختلال لا يليق بخليفة الله فى الأرض !

وكلاهما اختلال ينشأ من سوء التربية وسوء التوجيه ، ينشأ من التوقيع على بعض أوتار النفس دون بعضها الآخر ، أو ينشأ من التوقيع على بعضها بالنغمة النشاز .

فحين يكون التوقيع على النزعة الفردية وحدها أو النزعة الجماعية ..

أو حين يكون على الجانب المادى وحده أو الجانب الروحى ..

أو حين يكون على الطاقة المحركة وحدها أو الطاقة الضابطة ..

فالنتيجة هى الإيجابية المختلة هنا أو السلبية المختلة هناك .

وكذلك حين يكون التوقيع على إحدى هذه الطاقات بأكثر مما ينبغى لها ، بحيث تطغى على ما يقابلها من طاقات .

والإسلام يريد الإنسان قوة إيجابية فاعلة ، ولـكنها سوية ، وطريقته هي ذاتها التي أسلفنا : التوقيع على الأوتار كلها ، مجتمعة مترابطة في آن .

* * *

ومن خصائص المنهج كذلك — ومن سمات الإنسان الصالح في ذات الوقت — الواقعية المثالية أو المثالية الواقعية .

الإسلام يأخذ الـكائن البشري بواقعه الذي هو عليه . يعرف حدود طاقاته ويعرف مطالبه وضروراته ، ويقدر هذه وتلك : « لا يـكلف الله نفساً إلا وسعها »[١] . « فاتقوا الله ما استطعتم »[٢] . ويعرف ضعفه إزاء المغريات : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »[٣] . وضعفه إزاء التـكاليف : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً »[٤] .

يعرف كل ذلك فيساير فطرته في واقعها ، ولايفرض عليه من التـكاليف ما ينوء به كاهله ويعجز عن أدائه : « هو اجتباكم وما جعل عليـكم في الدين من حرج »[٥] . ويجعل التـكليف الملزم في حدود الطاقة الممـكنة . ولـكنه مع ذلك لايتركه لفطرته الضعيفة دون تقويم ، فتظل تهبط وتتراجع عن موقفها إلى موقف دون .

كلا ! إنه في واقعيته يأخذ الواقع الأكبر للإنسان ، الواقع الذي يشمل لحظة الضعف ولحظة القوة . لحظة الهبوط ولحظة الارتفاع .

إن مزية الإنسان الـكبرى هي هذا الاستعداد الدائم للصعود . الاستعداد

---

(١) سورة البقرة (٢٨٦)
(٢) سورة التغابن (١٦)
(٣) سورة آل عمران (١٤)
(٤) سورة النساء (٢٨)
(٥) سورة الحج (٧٨)

لأن يتفوق على نفسه ، ويرتفع على « الواقع » ليبلغ المثال . وقد لا يبلغه فى كل مرة . بل قد لا يبلغه فى أية مرة ! ولكنه يظل يحاول — مادام يوجّه إلى الطريق — وفى محاولته تلك يرتقى ويرتفع فى الآفاق .

وتمر على هذا الإنسان لحظات معجزة يحقق فيها انتصارات رائعة على نفسه وعلى كل قوى الأرض المحيطة به ، ذلك حين يرتفع إيمانه بالطاقات التى وهبها له الله ، فيحاول أن يحقق كيانه كاملاً كما أراده له الله .

وهذه اللحظات « واقع » وإن كانت هى « المثال » .

والإسلام — وهو يجارى واقع الفطرة بما فيه من ضعف وطاقة محدودة — لا يغفل عن تلك الطاقة المكنونة التى تحقق المثال . ومن ثم يسير فى نهجه على واقعية تشمل المثال فى أطوائها ، ومثالية لا تغفل واقع الحياة !

* * *

تلك أبرز الخصائص فى المنهج الإسلامى ، وهى بذاتها أبرز سمات الإنسان الصالح الذى يسعى المنهج لتحقيقه فى واقع الأرض :

الشمول والتكامل .

التوازن .

الإيجابية السوية .

الواقعية المثالية .

وفيما يلى من الفصول تفصيل لهذه الخصائص وهذه السمات .

منهج العبادة

من أبرز سمات المنهج الإسلامى أنه منهج عبادة ، ولكن العبادة فى هذا المنهج تحتاج إلى توضيح . فهى ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة ...وإنما هى معنى أعمق من ذلك جداً .. إنها العبودية لله وحده . والتلقى من الله وحده فى أمر الدنيا والآخرة كله .. ثم هى الصلة الدائمة بالله فى هذا كله ..

وهذه الصلة فى الحقيقة هى منهج التربية كله . تتفرع منه جميع التفريعات وتعود فى النهاية كلها إليه .

والصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية ، إن هى إلا مفاتيح.. مجرد مفاتيح للعبادة ، أو « محطات » يقف عندها السائرون فى الطريق يتزودون بالزاد . ولكن الطريق كله عبادة ، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل ، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة .. ما دامت وجهته إلى الله . ما دام قد شهد حقاً — لا باللسان — أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقام حياته كلها وواقعه كله على هذا الأساس .

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة .

إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التى تشغلها مناسك التعبد . وما كان هذا هو القصد من الآية الكريمة « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[1] .

---

(١) سورة الذاريات (٥٦) .

وإلا فما قيمة لحظات عابرة فى صفحة النفس وفى صفحة الكون ، لاتكاد تترك لها أثراً وتضيع فى الفضاء ؟

إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة . قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح ، يتبين فيه — فى كل لحظة — ما ينبغى ومالا ينبغى أن يكون .

ومرد الأمور كلها فى ذلك هو الله ، هو المرجع الذى يُرجع إليه فى كل أمر ، ودستوره هو الدستور الذى يستشار فى كل لحظة . يستشار فى داخل القلب وفى وعى العقل وفى واقع السلوك .

وإيجاد الصلة بين القلب البشرى وبين الله ، الصلة الدائمة التى تدفع القلب إلى الرجوع لله فى كل لحظة ، واستشارة دستوره فى كل أمر ، هو القاعدة الرئيسية للتربية الإسلامية ، التى بها يتم كل شىء ، ومن دونها يصبح كل شىء خواء .

والإسلام يتخذ لهذا الهدف كل وسيلة من الوسائل الموصلة ، بالتوقيع على كل وتر من أوتار النفس كما أسلفنا ، وربط هذا التوقيع بالله ، وسيأتى فى الفصول القادمة تفصيل شامل لهذه الطريقة ، وخاصة فى « تربية الروح » . ولكننا هنا — ونحن بصدد القواعد العامة للمنهج — نقرر هذه الخصيصة التى يتميز بها المنهج الإسلامى على غيره من المناهج .

بعض مناهج التربية يربط القلب البشرى ببقعة من الأرض معينة ، وبعضها يربطه بفرد من الناس معين ، وبعضها يربطه بأسطورة من الأساطير ، ثم يكون المنهج كله قائماً على هذه القواعد ، فيصطبغ العمل والشعور والفكر والسلوك بهذه الصبغة ، ويتجه كله فى هذا الاتجاه ، ثم ينشأ الفرد على « فضائل » بعينها مستمدة من هذه القاعدة ، نابعة من مفاهيمها ، متمشية مع صالحها .

ولاشك أن فى هذه الفضائل قدراً من الفضائل « المطلقة » التى تلتقى عندها البشرية ، فمهما ضلت البشرية وانحرفت فإنها — ببصيرتها التى وهبها الله لها — تهتدى إلى قدر من « الحق » قليل أو كثير . ولكنها غالباً ما تكون فضائل « محلية » أو « إقليمية » . وليس من بينها فضائل « إنسانية » حقاً إلا ما كان نابعاً من العقيدة فى الله ، مستمداً من دستوره الذى ارتضاه .

وخذ لذلك مثلا مناهج التربية الأوربية ، وخذ من بينها أفضلها جميعاً فى نظر كثير من الناس : التربية الإنجليزية . إنها تنشّىء الفرد على كثير من الفضائل: لا يسرق ولا ينهب ولا يغتصب ولا يكذب ولا يغش . استقامة جميلة فى الطبع والمعاملة . استقامة مريحة تثير الإعجاب . وميل إلى التعاون ونبذ للأنانية وإحساس بالصالح « العام » وتضحية بشىء من الصالح الخاص فى هذا السبيل .

كل ذلك نعم !

ولكنه فى حدود بريطانيا ! فى حدود القومية البريطانية !

فإذا انتقل هذا الرجل الإنجليزى قيد شعرة خارج الحدود البريطانية ، خارج الوثن الذى ربّى على عبادته ، وقام منهج التربية كله على أساسه ، فهنا يفجؤك منه شخص آخر لم تعهده من قبل ! الأنانية البغيضة والجشع الكريه . الغش والخداع والكذب والدسيسة ، والغصب والسلب والنهب ، وإيثار الصالح الخاص على كل قيم إنسانية أو صوت للضمير !

لماذا ؟ هل تغيّر ؟

كلا . وإنما هو ما يزال مخلصاً للوثن الذى يتعبده ؛ ولم يكن قط مخلصاً « للإنسانية » لأنه لم يترب تربية إنسانية . ولم يكن قط مخلصاً لله ، لأن قاعدة تربيته لم تكن الاتصال الحقيقى بالله .

ذلك مثل يبين الفارق الحاسم بين منهج التربية الإسلامية ومناهج التربية

غير الإسلامية ، ويبين فى الوقت ذاته لماذا يحرص الإسلام — كلمة الله إلى « الإنسان » عامة — على أن يقيم منهجه التربوى على أساس العبادة — بمعناها الشامل الواسع — وعلى أساس الصلة الدائمة بالله .

إنه لا ضمان للخير الحقيقى فى هذه الأرض إلا بعقد الصلة الحية الواصلة بين القلب البشرى والله . لا ضمان لإقامة الحق والعدل الأزليين إلا بالتقاء البشر كلهم عند خالقهم ، ومن ثم استشعار الرابطة الإنسانية الحقيقية التى تربط الجميع .

وإذ يدرك الإسلام هذه الحقيقة فإنه يجعل العبادة هى القاعدة الكبرى ، ويستمد منها نظام الحياة كله .

الفرد فى خلوته . والناس فى جمعهم . فى وقت التعبد وفى وقت العمل . فى وقت التعامل فى تجارة أو صناعة أو سياسة أو حرب أو سلم . فى وقت المودة وفى وقت الخصومة .. فى كل لحظة من هذه اللحظات يربى الإسلام الفرد على أن تكون صلته بالله ، وتعامله مع الله ، وخشيته من الله ، وحبه لله ، ورجوعه إلى منهج الله .

وهذه هى العبادة فى مفهوم الإسلام .

ليس معناها أن يتزهد الإنسان ويتنسك ويترهبن .

وليس معناها أن تستولى التقوى على قلبه فى السجود والركوع ، فإذا ختم صلاته هبت فى داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان . أو تخاذل عن القيام بالأمانة . أو ضعف عن نصرة الحق . أو تواكل عن العمل المنتج فى عالم الحس .

كلا ! فما هو إذن موصول القلب بالله . إنه « متسكع » فى « محطة العبادة » ولكنه لا يسير فى الطريق .

والعبادة هى السير فى الطريق ، مع التزود بين الحين والحين ؛ السير فى الطريق والقلب يحمل الشحنة الحية الواصلة ، التى تدفع للعمل .. تدفع دائماً إلى الأمام .

والإسلام يحرص حرصاً شديداً على هذه الشحنة الحية التى تعبيء القلب ، فتكون الهادىَ له فى الطريق . تهديه وهو فى خلوته يفكر ويشعر ، وتهديه وهو قائم يعمل بيديه وجسمه ، وتهديه وهو يلتقى إخوته فى البشرية ويتعامل معهم . تهديه وتضيء له كالقبس ظلمات الطريق فلا يتعثر . وإن تعثر لا يجثم فى عثرته ، وإنما ينفض عنه التراب ويقوم ، ما دامت الشحنة حية تضيء .

والإسلام صريح فى اعتبار العمل هو العبادة ، ما دام القلب يتجه فيه إلى الله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »[1] .

هذا هو منهج العبادة الذى يرسمه الإسلام ويقيم عليه أسسه التربوية . ويشترط فيه الصدق مع الله ، والتقوى لله ، أى الصلة الدائمة بالله .

وفيما يلى من الفصول بيان لطريقة الإسلام فى ربط القلب البشرى بالله .

---

(١) سورة البقرة (١٧٧) .

تربية الروح

ما هى الروح ؟

شىء مبهم غامض ليست له حدود !

وهذا الإبهام فى طبيعة الروح ، والغموض الذى يحيط بهـا ، والعجز عن إدراك كنهها ، هو الذى أغرى الماديين فى العصور الحديثة أن يهملوها إهمالا ويسقطوها من الحساب .

كل مالا تراه الحواس — فى نظرهم — فهو غيرموجود ! والروح لا تُرى بالحواس .. فهى إذن شىء ليس له وجود !

ولـكن ألدوس هكسلى يردعليهم فىهذا الأمر ، رغم أنه لا يؤمن بالدين ، فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون : « إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التى يتم بها هذا الاستشفاف لايبرر إنـكارنا له . فإنه لايزيد على جهلنا بالطريقة التى تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك ؟ أو التذكر ؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف . ولـكنه رغم ذلك حقيقة علمية » .

إن ألدوس هكسلى لا يسير معنا الطريق كله . ولـكنه يسير نصف الطريق . يقرر أن هناك طاقة مجهولة فى الإنسان يقدر بها على الاستشفاف ، ويقرر كذلك أن جهلنا لـكُنه هذه الطاقة لايعنى أنها غيرموجودة فى الواقع . فهى موجودة رغم هذا الجهل . وهى حقيقة علمية . . وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا

من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى رغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل ، كعملية الإدراك وعملية التذكر .

وذلك نصف الطريق ! فهكسلى يقصر هذه القدرة على الاستشفاف ، ثم يقصرها على « بعض » الناس فقط ، ولا يجعلها طاقة « بشرية » أصيلة . ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادى الغارق فى المادية ، الذى يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره ، يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة ، يعد فى الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان ، الفهم الذى قررته العقيدة منذ أقدم الأزمان !

الروح طاقة مجهولة .. مبهمة ، غامضة ، محجوبة عن الإدراك .

ومع ذلك فهى حقيقة !

وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية « محسوسة » ، ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى ، فنحن مخطئون فى هذا الظن . فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها ! وإنما نحن ندرك نتائجها . ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذى أغرانا بذلك الظن الخاطىء ، كما أنه هو الذى أدخل فى وهمنا أننا « نعرف » كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر ! أما الحقيقة فهى أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك ، ونكتفى منهما بالنتائج التى تدركها الحواس !

ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك !

إنها مجهولة فى كنهها ، مبهمة ، غامضة ، محجوبة عن الإدراك . ولكن نتائجها ليست مجهولة ، ولا محجوبة عن الإدراك .

ونحن لو حاولنا أن نعرّف عملية التذكر ، فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها ! سنقول إنها عملية التذكر !

ولو حاولنا أن نعرّف عملية الإدراك ، فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها ، وسنقول إنها عملية الإدراك !

ولكننا سنقول عن الروح : إنها الطاقة التي يتصل بها الإنسان بالمجهول .. بالغيب المحجوب عن الحواس !

الاستشفاف « عملية » من عمليات الروح .

والحلم التنبؤى عملية من عمليات الروح .

والتخاطر عن بعد (التليپاثى) كحادثة عمر الشهيرة مع سارية ، حين ناداه على بعد ألوف الأميال : ياسارية الجبل ! الجبل ! فسمعه سارية ونجا من الكمين وانتصر .. هذا التخاطر عملية من عمليات الروح .

وهى كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة .. يقف الإنسان حائراً أمامها ، مبهوتاً من العجب والإعجاب !

ولكنها مع ذلك عمليات جانبية .. إنما الوظيفة الكبرى للروح ، هى الاتصال بالله .

كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليپاثى ، والاستشفاف ، والحلم التنبؤى ؟ لاندرى . كما أننا لاندرى كيف يتم الإدراك والتذكر .. ولكنه يتم على أى حال !

* * *

الروح .. تلك الطاقة المجهولة التى لانعرف كنهها ولا طريقة عملها .. هى وسيلتنا للاتصال بالله .

وهى مهتدية إلى الله بفطرتها . إنها من روح الله التى أودعها قبضة الطين :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (١) . ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها ، وتتصل به على طريقتها : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا » (٢) . تهتدى إليه كما يهتدى كل شىء من خلق الله ، بفطرته ، دون كد ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٣) . كل ما فى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٤) . ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان فؤاداً واعياً : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » (٥) فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير ، فتفترق بذلك عن الطاعة التى يمارسها الجماد والنبات والحيوان . .

ومع ذلك فالإنسان يضل . . يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض . . يضل فلا يهتدى إلى الله ، ولا يصل بروحه إليه ، ولا يستمد منه ، ولا يلجأ إلى حماه .

على أنه حتى حين يضل ، حين تتغبش روحه فلا تستطيع أن تشف ، حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور . . حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة ــ برغم ضلالها ــ تتجه إلى خالقها ، كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء ، لا تراه كله ، ولكنها لا تعمى عنه . فيعبد الناس الله ويشركون به غيره من الكائنات « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٦) . « ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله . . (٧) »

---

(١) سورة الحجر (٢٩)
(٢) سورة الأعراف (١٧٢)
(٣) سورة طـه (٥٠)
(٤) سورة الإسراء (٧٠)
(٥) سورة السجدة (٩)
(٦) سورة الزمر (٣)
(٧) سورة الزمر (٣٨)

أو يعبدون قوة ـ ما ـ يزعمون أنها الله . ولكنهم ـ فيما عدا الشذوذ الذى لا يحسب له حساب ـ لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوى مسيطر مريد .

ومهمة العقيدة هى مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها . مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله . . الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .

مهمتها أن تطلق الروح من إسارها . . لكى ترى الله .

* * *

والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح .

إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه . إنها القاعدة التى يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها . إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان . إنها الموجّه إلى النور . يكفى أنها صلة الإنسان بالله .

والإسلام ـ فى عنايته الفائقة بتربية الروح ـ هو دين الفطرة .

فالحق أن الطاقة الروحية فى الإنسان هى أكبر طاقاته ، وأعظمها ، وأشدها اتصالا بحقائق الوجود .

طاقة الجسم محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس .

وطاقة العقل أكثر طلاقة ، ولكنها محدودة بما يُعْقَل . محدودة بالزمان والمكان . بالبدء والنهاية . ومحكومة بالفناء .

وطاقة الروح ـ وحدها ـ فى كيان الإنسان ، هى التى لا تعرف الحدود والقيود . لا تعرف الزمان والمكان . لا تعرف البدء والنهاية . لا تعرف الفناء .. هى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل . هى وحدها التى تملك الاتصال بالخلود الأبدى والوجود الأزلى . . تملك الاتصال بالله .

كما أنها هى التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان .

كيف ؟ لا نعلم ! لكننا نحس ! نحس بإشراقة الروح الصافية التى تشمل الحياة كلها فى ومضة وتشمل الآباد والآماد . نحس بسبحة الروح الطليقة التى تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حىّ فيه ، والكون كما يقول العلم كله حياة ! نحس بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة ، التى يرتعش فيها الكيان كله ، ويحس فى أعماقه أنه يرى الله !

وقد كان طبيعياً إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر هذه الروح . وكان طبيعياً أن يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة ، وهو الذى جعل منهجه الاهتمام بالطاقات البشرية كلها ، وإعطاءها حقها من الرعاية والتوجيه .

* * *

طريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله ، فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

إن الإنسان ـ بطبيعته ـ قد تشرق روحه لحظة . قد تأخذه روعة الصبح الوليد مرة ، وهو يتنفس كمن يصحو من سباته . قد تأخذ بلبه الليلة المقمرة ، فينتشى بشعرها المهموس ، وأطيافها الراقصة ، وظلالها المسحورة . قد تأخذه ضخامة الكون وانتظام سننه ودقة نظامه . قد تروعه حادثة مفاجئة فتهز نفسه وتوقظه لعالِم الغيب ومدبر الأمور . . وكل ذلك جميل . ولكنها لحظات منقطعة لا دوام لها ولا استقرار . لحظات خاطفة لا تلبث ـ بزوال مؤثرها ـ أن تزول . والإسلام لا يريد ذلك . لا يريد لهذه الإشراقة الروحية أن تنطفىء . لا يريد لها أن تخنس وتخبو . لا يريد أن يغشّى صفاءها شىء أو يحجبها عن انطلاقها فى الآفاق . ومن ثم لا يكتفى بتلك اللحظات الفائقة التى تجىء عرضا ولا تلبث

أن تزول، لا تكاد تترك لها أثراً فى النفس، ولا تسيِّرها على منهج واضح أصيل .

إنما يريد الإسلام أن يجعل هذه الإشراقة منهج حياة ! يريد أن يذكى الشعلة المقدسة فتظل على الدوام مضيئة . يريد أن تظل القبسة التى يشتمل عليها الإنسان من روح الله، مشعشعة واصلة لنبعها الأصيل .

يريد ألا تكون الطلاقة فلتة عابرة، وإنما تكون هى الأصل، والقعود عنها هو الفلتات !

وحين يصنع الإنسان ذلك فهو لا شك يحقق أرفع ما فى كيانه، ويصل إلى ما يشبه المعجزات .

ومع ذلك ففى الإسلام تتجلى رحمة الله بعباده .. إنه لا يريدهم على المستحيل . وهو يعلم أن الطلاقة الدائمة الكاملة بالنسبة للبشر مستحيل . فقبضة الطين لها ثقلة . ودفعة الشهوة لها قوة . وثقلة المادة لها ضغط . ومن ثم يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » .[1] ويقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[2] .

ولكنه لا يقول – كما تقول المذاهب « الواقعية » المنحرفة، المذاهب التى تؤمن بحيوانية الإنسان وماديته[3] – لا يقول : أيها البشر، ما دامت فيكم ثقلة الطين ودفعة الشهوات وضغط المادة، فلا فائدة من رفعتكم، ولا أمل فى انطلاقكم . فاجثموا حيث أنتم على الأرض، كلوا وتمتعوا كما يتمتع الحيوان !

كلا . لا يقول ذلك، لأنه – وهو دين الفطرة – يؤمن بكل ما تحتويه الفطرة من طاقات، ويؤمن أولا بطاقة الروح وقدرتها الفائقة على التحليق والانطلاق .

---

(١) سورة التغابن (١٦) . (٢) سورة البقرة (٢٨٦) .
(٣) انظر « معركة التقاليد » فصل « حقائق وأباطيل » .

وهو — فى واقعيته الكاملة التى تحسب حساب الضعف البشرى — لا يكف أبداً عن المحاولة ، لا يكف عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح . لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة ، والطريق الوحيد لموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال .

والطريق ـ كما أسلفنا ـ هو عقد الصلة الدائمة بين الإنسان والله .

ويستخدم لذلك وسائل شتى .

فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة فى صفحة الكون ، لتحس دائماً بوجود الله ، وقدرته المطلقة التى ليست لها حدود .

ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه . فهو مع الإنسان أينما كان ، وهو مطلع على فؤاده ، عالم بكل أسراره ، وبما هو أخفى من الأسرار .

ومن ناحية يثير فى القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ، ومراقبته فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور .

ومن ناحية يثير فيه الحب لله ، والتطلع الدائم إلى رضاه .

ومن ناحية يبعث فيه الطمأنينة إلى الله فى السراء والضراء ، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء . والهدف فى النهاية واحد : هو وصل القلب البشرى بالله .

* * *

الكون آية الله الكبرى ، ومعرض قدرته المعجزة التى تبهر العقول .

ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون ، وروعة الإحساس بها جياشة واصلة إلى الأعماق .

الحواس تتبلد لما ترى وما تسمع ، فتمر بكل شىء كأنه لا وجود له ،

وتنسى — بحكم التعود — أن كل شيء حولها آية للقدرة المبدعة الخالقة التى تبدع كما تريد .

الليل والنهار متعاقبين متكورين على الأرض ، مختلفين فى الطول باختلاف الفصول واختلاف المكان .

الشمس الطالعة الغاربة فى كل يوم لاتكف يوما عن الطلوع أو تكف يوما عن الغروب .

النجوم المتلألئة فى ظلمة الليل كأنها عيون توصوص فى الظلمة وتتناجى على ما بينها من أبعاد .

القمر الذى يبدأ زيقة صغيرة لاتكاد ترى ، ويظل يكبر حتى يمتلىء وجهه بالنور ، ويغمر الأرض بنور رائق شفاف حالم هادىء جميل ، ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ زيقة لاتكاد ترى .. ثم يختفى فى المحاق .

الحياة النابتة فى الشطأة الصغيرة التى تفتح الأرض بقوة فتتشقق عن ورق أخضر صغير جميل .

الحياة النابتة فى الطائر الصغير والحيوان الضئيل وهو يدرج وراء أمه تزقه أو ترضعه أو تغذوه .

الحياة المنبثة فى تضاعيف الكون « الميت » لظاهر العين ، وهو فى حقيقته طاقات حية متحركة على الدوام .

النظام المذهل فى روعته ، المذهل فى دقته ، الذى يسير عليه الكون كله ، فلا يختل منه كوكب واحد ، ولا يخرج عن مساره قيد أنملة فى الزمان الطويل الذى يقدر بالبلايين والبلايين من السنين .

الزمن ذاته ! كنهه وحقيقته ، وطريقة إدراكه !

المخلوق البشرى المعجز بكل ما فيه من أجهزة دقيقة وطاقات .

« العمليات » الجسمية ، و « العمليات » الفكرية ، و « العمليات » الروحية فى كيان الإنسان .

امتزاجه وترابطه المحكم الشامل الدقيق الذى يجمع كل طاقاته ويوحد بينها فى كيان .

آيات كلها من آيات الله فى الكون . كل منها معجز . وكل منها هائل . وكل منها مثير . ولكنها لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعى ودون تفكير .

والإسلام — وهو يربى الروح — يعمد إلى هذه الآيات فيبث فيها الحياة :

فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله فى الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. فى أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ، ويوقظها من إلفها وعادتها ، فتتفتح للكون كأنه جديد .

وللقرآن فى هذا الجانب قدرة عجيبة . . فإيقاظ النفس من إلفها ليس مهمة ميسرة !

الإلف جزء من كيان النفس ، يؤدى لها مهمة ضرورية لامحيص عنها . فلا بد أن تألف النفس والحواس والأعصاب ألواناً معينة من التجارب والأحاسيس والأماكن والأشياء .. لكى تنطلق إلى تجارب جديدة وأحاسيس جديدة وأماكن جديدة وأشياء جديدة . ولولا الإلف والعادة لقضى الإنسان حياته كلها يتعلم النطق مثلا ، أو يتعلم القراءة أو الكتابة أو الحساب ! أو يشغل أعصابه بالعادىّ من الأمور ، فلا تبقى فيها طاقة لتحمل شىء جديد . .

تلك وظيفة الإلف والعادة فى كيان النفس .

ولكنهما فى أحيان كثيرة يتجاوزان وظيفتهما ، فيطغيان على كل مساحة النفس ، فتتبلد المشاعر ، وتُغلَقُ البصائر ، وتجمد الأفكار !

عندئذ يصبح الإلف عائقا عن التقدم ، معطلا عن الطلاقة ، مجمداً للكيان .

وعندئذ لابد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و « تستنشق » الحياة !

وحين يحدث التفتح فإنه يُحدث أعجب الأثر فى الكيان البشرى . إنه يشبه — مع الفارق — ذلك النشاط الحىّ الذى يحس به الإنسان فى أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء ، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه ويستنشقه إلى أعماقه . إنه يتجدد . . يتجدد حقيقة . . حسا ومعنى . وينطلق فى خفة نشيط الحركات .

والتفتح النفسى يشبه ذلك الأثر ولكنه أعمق وأشمل وأروع . إنه يهز الكيان النفسى كله ويوقظه وينشطه ويجدد حياته . كل فكرة تمر به جديدة . وكل إحساس يخطر له جديد . وكل تجربة يمر بها فهى حية . . حية تطلق شحنة من النشاط وطاقة من الإشعاع .

وما أعجب كل شىء يحدث لأول مرة ! إنه تجربة نفسية رائعة حية . . كأنها لمسة رفيقة تلمس طرف عصب مكشوف ، فيتفزز ويتأثر ، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها . . إنها عملية جميلة ممتعة . . تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعاً متجدداً على الدوام .

ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شىء كأنما يحدث لأول مرة . . ! إذن لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم الذى لايدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء !

ولكنها عملية عسيرة. فمطالب العيش الدائمة ، وزحمة الحياة ، وقصر العمر ، ووفرة المشكلات .. كلها تستنفد الطاقة وتستنفد الاهتمام .

ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجيبة !

إن أسلوبه الساحر ، وجوه المشرق ، وروحه الصافية ، لتنقل الإنسان نقلا من إلفه وعادته ، وتهزه ليستيقظ ؛ تلمس — برفق — أعصابه المكشوفة! فتعطيه الشحنة كاملة ، ينقلها إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها .. ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ، ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب .

والإنسان يعيش فى القرآن مع الكون فى لقاء دائم جميل حبيب . لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح .. نشيطة طليقة تسبّح لله .

والقرآن فى ذاته كتاب جميل ممتع ، لاينتهى منه قارئه حتى يحب أن يعود من جديد . ومن ثم كان اللقاء متجدداً فى داخل النفس وفى صفحة الكون ، لاينفد ، ولا يُسأم ، ولا يزول .

« إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون(١) » .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحىّ من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها

---

(١) سورة البقرة (١٦٤)

فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون[1] » .

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين[2] » .

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ »[3] .

« والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نُسقيكم مما فى بطونه من بين فرث

(١) سورة الأنعام (٩٥ — ٩٩)
(٢) سورة الأعراف (٥٤)
(٣) سورة النحل (١٠ — ١٧)

ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[1] .

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون»[2] .

« أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ »[3] .

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج »[4] .

---

(١) سورة النحل (٦٥ — ٦٩)
(٢) سورة النحل (٧٨ — ٨١)
(٣) سورة الأنبياء (٤٤)
(٤) سورة الحج (٥)

« يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »[1] .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور »[2] .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم

---

(١) سورة الروم (١٩ — ٢٥)   (٢) سورة فاطر (٢٧ — ٢٨)

من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم ، فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ، ومتاعاً إلى حين » (١) .

« خلق السماوات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ، ويكوّر النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون » (٢) .

« كلا والقمر . والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر » (٣) .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم » (٤) .

« فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فماله من قوة ولا ناصر » (٥) .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت ؟ وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » (٦) .

« والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس » (٧) .

وهكذا .. وهكذا .. يوقظ القرآن الحس لآيات الله فى الكون وفى النفس ،

---

(١) سورة يس (٣٣ — ٤٤)
(٢) سورة الزمر (٥ ـ ٦)
(٣) سورة المدثر (٣٢ ـ ٣٤)
(٤) سورة عبس (٢٤ ـ ٣٢)
(٥) سورة الطارق (٥ ـ ١٠)
(٦) سورة الغاشية (١٧ ـ ٢٠)
(٧) سورة التكوير (١٧ ـ ١٨)

ليعيش متفتحاً لها ، حفياً بها ، محساً بعظمتها ، متتبعاً لها فى كل صغيرة وكبيرة ، شاعراً بالقدرة القادرة من وراء كل آية ، واليد المبدعة من وراء كل تدبير ؛ ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق ، تسبّح بحمده ، وتتطلع إلى حماه .

بل يصل استخدام « الطبيعة » فى إيقاظ الحس ، وإحياؤها داخل النفس ، إلى حد استخدام تشبيهات من الطبيعة الحيـة لتمثيل المواقف النفسية ، والاجتماعية والاقتصادية :

« كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الـكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل . والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تـكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الـكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لـكم الآيات لعلـكم تتفـكرون »(١) .

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ، ابتغاء حلية أو متاع ، زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »(٢) .

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال

---

(١) سورة البقرة (٢٦٤ — ٢٦٦) . (٢) سورة الرعد (١٧) .

للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »[1] .

« الله نور السماوات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درىٌّ يوقد من شجرة مباركة : زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم »[2] .

والفنون تعالج أحياناً مثل هذه الأمور ، فتلفت الناس إلى جمال الطبيعة وروعتها ، وتفتّح الحس لها ليتملاها ، ويحس بها جديدة حية متحركة أخاذة .. ولكنها كثيراً ما تنحرف فتجعل ذلك هدفاً فى ذاته ، ثم تضل فيصبح الجمال معبوداً تفتتن به النفس فيصرفها عن الجد فى الحياة .

أما القرآن فيجعلها رباطاً بين القلب البشرى والله ، وهاديا إلى سواء السبيل فى داخل النفس وفى واقع الحياة .

* * *

وكما يوجه القرآن القلب البشرى إلى قدرة الله المبدعة فى صفحة الكون ، فكذلك يوجهه إلى قدرته القاهرة التى تمسك بيدها كل أمر ، وتدبر وحدها كل تدبير .

ولا نحتاج أن ننقل الشواهد الكثيرة من القرآن على هذا التوجيه ، كما نقلنا من قبل الشواهد على التوجيه لآيات الله فى الكون .. فإنما صنعنا ذلك هناك لنبين أن ما يبدو تكراراً فى القرآن ليس تكراراً فى الحقيقة . وإنما هو تجديد للمسات . كل لمسة فى موضع . وكل لمسة لها جو من الإشعاع .

---

(١) سورة ابراهيم (٢٤ – ٢٦) . (٢) سورة النور (٣٥) .

وإنما نكتفى هنا بآيات متفرقة :

« ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ؟ » [1] .

« بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » [2] .

« الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ، لاتأخذه سنة ولانوم ، له مافى السماوات ومافى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » [3] .

« ولله مافى السماوات وما فى الأرض ، وإلى الله ترجع الأمور » [4] .

« ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء قدير » [5] .

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » [6] .

« سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن : فيكون » [7] .

« إن الله لايغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » [8] .

« من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا » [9] .

---

(١) سورة البقرة (١٠٧) .
(٢) سورة البقرة (١١٧) .
(٣) سورة البقرة (٢٥٥) .
(٤) سورة آل عمران (١٠٩) .
(٥) سورة آل عمران (١٨٩) .
(٦) سورة آل عمران (٢٦) .
(٧) سورة مريم (٣٥) .
(٨) سورة الرعد (١١) .
(٩) سورة الكهف (١٧).

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ » [1] .

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » [2] .

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » [3] .

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون ؟ » [4] .

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وماذلك على الله بعزيز » [5] .

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً » [6] .

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » [7] .

« أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ » [8] .

---

(١) سورة آل عمران (١٦٠) .
(٢) سورة النمل (٦٢ — ٦٤) .
(٣) سورة فاطر (١٠) .
(٤) سورة فاطر (٢) .
(٥) سورة فاطر (١٥ — ١٦) .
(٦) سورة فاطر (٤١) .
(٧) سورة فاطر (٢) .
(٨) سورة يس (٢٣) .

« قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ » [1] .

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » [2] .

« وهو القاهر فوق عباده » [3] .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » [4] .

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » [5] .

« والله يختص برحمته من يشاء » [6] .

« أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً . إن الله على كل شىء قدير » [7] .

« والله يرزق من يشاء بغير حساب » [8] .

« والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » [9] .

« ولو شاء الله ما اقتتلوا . ولكن الله يفعل ما يريد » [10] .

« قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم » [11] .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » [12] .

---

(١) سورة الزمر (٣٨) .
(٢) سورة يس (٨١ — ٨٣) .
(٣) سورة الأنعام (١٨)
(٤) سورة الإنسان (٣٠) .
(٥) سورة التوبة (٥١) .
(٦) سورة البقرة(١٠٥) .
(٧) سورة البقرة (١٤٨) .
(٨) سورة البقرة (٢١٢) .
(٩) سورة البقرة (٢٤٥) .
(١٠) سورة البقرة (٢٥٣) .
(١١) سورة آل عمران (٧٣) .
(١٢) سورة آل عمران (١٥٩) .

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[1] .

« لا تبديل لكلمات الله »[2] .

« ولله غيب السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله »[3] .

« ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً »[4] .

« وما بكم من نعمة فمن الله »[5] .

« فعال لما يريد »[6] .

« ولن تجد لسنة الله تبديلا »[7] .

وكلها آيات توجه القلب لهذه الحقيقة الضخمة فى بنية الكون وبنية النفس : أن الله وحده هو الخالق . والله وحده هو المدبر . والله وحده هو الذى يصرف الأمور . ولا قوة سوى قوته . ولا تدبير سوى تدبيره . وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية لا تملك لنفسها شيئاً فضلا على أن تملك للآخرين . النفع والضر بيده وحده . لا ينفع أحد إلا بإذنه ، ولا يضر شيء إلا بإذنه . الرزق بيده . والموت والحياة بيده . والبعث والجزاء بيده . « بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير »[8] .

* * *

وكما يوجه القلب إلى قدرة الله المبدعة ، وقدرته القاهرة ، كذلك يوجهه إلى علم الله الشامل الذى لا يند عنه شيء فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا فى داخل النفوس :

---

(١) سور الأنفال (١٧)

(٢) سورة يونس (٦٤) .

(٣) سورة هود (١٢٣) .

(٤) سورة الرعد (١٥) .

(٥) سوزة النحل (٥٣) .

(٦) سورة البروج (١٦) .

(٧) سورة الأحزاب (٦٢) .

(٨) سورة الملك (١) .

« وعنده مفاتح الغيب ، لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر . وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ، ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار . ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (١) .

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (٢) .

« يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » (٣) .

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » (٤) .

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (٥) .

« ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » (٦) .

« يعلم السر وأخفى » (٧) .

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر

---

(١) سورة الأنعام (٥٩ — ٦٠) .
(٢) سورة الرعد (٩ — ١٠) .
(٣) سورة سبأ (٢) .
(٤) سورة فاطر (١١)
(٥) سورة غافر (١٩) .
(٦) سورة لقمان (١٥ — ١٦) .
(٧) سوة طه (٧)

إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم »[1] .

* * *

فإذا وجه القلبَ هذه التوجيهات كلها ، وهزه بها من أعماقه ، وجعله ينفعل بها انفعالا حيا متجدداً مطرداً لا ينقطع ولا يفتر . . فقد انعقدت بين الله وبين القلب البشرى صلة لا تنقطع فى النهار أو الليل. لا تنقطع فى عمل أو شعور أو فكر . لا تنقطع فى سر ولا جهر . لا تنقطع فى خلوة ولا صحبة . لا تنقطع ما دامت الحياة . . .

ويتصل القلب بالله صِلَاتٍ شتى :

يتصل به خشوعاً وتقوى .

ويتصل به مراقبةً له فى كل أمر من أمور الحياة .

ويتصل به حباً وتطلعاً .

ويتصل به اطمئناناً إلى قدره ، وتسليما بما يرضاه .

* * *

الخشوع والتقوى هما سمة المؤمن الذى تأثر بالقرآن ، واهتز للمساته وانفعل بتوجيهاته :

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون »[2] .

« الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين

---

(١) سورة المجادلة (٧) . (٢) سورة المؤمنون (١ – ٢) .

يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء »[1].

« وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »[2].

« إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »[3].

« ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »[4].

والخشوع والتقوى هما ثمرة هذه الجولات الهائلة التى يجولها القرآن مع القلب البشرى فى آيات الكون ، وآيات النفس ، وقدرة الله القادرة ، وقدرته القاهرة ، وعلمه الشامل ، وملكه العظيم . فما يملك القلب أمام هذه اللمسات المتوالية من كل جانب . وما يملك حين تتفتح بصيرته على القدرة المعجزة والملكوت الهائل . وما يملك وهو يرى آيات الله فى كل شىء حوله . . فى الدقيق والكبير . . فى الجامد وفى الحى . . فى حبة الرمل الضائعة فى الأرض يحيط بها علم الله .. فى النبتة النابتة والشجرة النامية .. فى الزهرة الأريجة البديعة الألوان .. فى ملايين الملايين من الخلائق .. فى ملايين الملايين من النجوم .. كله صادر عن إرادة الله . وكله مدبر بأمره . وكله صائر إليه .. ما يملك القلب إزاء ذلك إلا أن يخشع ويهتز لعظمة الله .

وما يملك وهو يرى آيات القدرة كلها ، وهو يحس السماوات والأرض معلقة بإرادة الله ، وكل ما فيها من كائنات وخلائق خاضع لمشيئته ، طائع لإرادته . . ما يملك إلا أن يحس بتقوى الله فى أعماقه ، فيعبده ويخشاه .

* * *

---

(١) سورة الزمر (٢٣) .
(٢) سورة الحج (٣٤ — ٣٥)
(٣) سورة مريم (٥٨)
(٤) سورة الإسراء (١٠٩) .

وحين يتيقظ القلب لعلم الله الشامل المحيط ، العلم الذى لا يند عنه شيء ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى لا يغفل عن الإنسان لحظة واحدة ،ولا يتركه أينما كان . . حين يحس بمراقبة الله الدائمة له فى كل تصرف ، وكل فكرة ، وكل شعور ، وكل هاجسة فى النفس مستورة ، وكل خائنة فى العين خافية . . يهتز ويرتعش ، ويخر خاشعاً ، ويراقب الله فى الصغيرة والكبيرة ، وفى الجهر وفى الخفاء .

يراقبه وهو يعمل ، ويراقبه وهو يفكر ، ويراقبه وهو يحس .

يراقبه وهو يعمل . . فلا يعمل شيئاً بغير إخلاص . لا يعمل شيئاً بقصد الشر . لا يعمل شيئاً دون تمعن وتفكر . لا يعمل مستهتراً ولا مستهيناً بالعواقب .. ولا يعمل شيئاً لغير الله !

إن الله لا يحاسبه على ظاهر عمله . إنما يحاسبه على النية وراء العمل ، وعلى الإخلاص فيه : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »(١) .

والله لا يقبل أن يكون شيء من العمل لغير وجهه : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر . ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ! فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ! ثم قال : «إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه »(٢) .

ويراقبه وهو يفكر . . فالله مطلع على أفكاره . يراقبه فلا يفكر فى الشر ولا يتمناه للناس . وإنما يفكر فيما ينفع الخلق . يفكر فى أن يعمل صالحا . حتى يصبح الخير له عادة متأصلة نابعة من أعماق النفس .

---

(١) البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .   (٢) أبو داود والنسائى.

ويراقبه وهو يحس .. فالله يعلم السر وما أخفى من السر . الهاجسة فى باطن النفس لم يطلع عليها أحد ، ولم تتبين حتى لصاحبها لأنها مطمورة فى الأعماق ! يراقبه فلا يحس بإحساس غير نظيف . يراقبه فينظف مشاعره أولا بأول . لا يحسد . ولا يحقد . ولا يكره للناس الخير . ولا يتمنى أن يحرمهم منه ويستحوذ هو عليه . ولا يتشهى الشهوات الباطلة والمتاع الدنس ! إنه ليس وحده ! ولا يكون مطلقاً وحده ! « والأخلاق » التى ينبغى له أن يتخلق بها ليست نفاقا اجتماعياً ، يلبسها أمام الناس ليقال عنه إنه فاضل ، أو لأنه لا يملك الظهور أمامهم بأدرانه وخباياه . بل هى أخلاق تنبعث من الداخل . من الإيمان بها . والإيمان بالله . إنه ينظف سلوكه وفكره وشعوره لا لأن الناس معه وهو مضطر إزاءهم أن يتنظف . وإنما لأن معه دائماً وفى كل لحظة الله : « هو معهم أينما كانوا » وهو لا يملك أن يستتر من الله كما يستتر من الناس . لا يملك أن يغلق على نفسه باباً لا يراه الله من ورائه . ولا أن يقيم حول مشاعره المنحرفة سياجا يحميه من علم الله .. وما دام يحفظ الله فى قلبه ، فليكن قلبه نظيفاً لا يتدنس بالأدران ! « قال وما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) .

وحين توجد فى القلب هذه الحساسية المرهفة تجاه الله ، تستقيم النفس ويستقيم المجتمع وتستقيم جميع الأمور .

ويعيش المجتمع نظيفاً من الجريمة ، نظيفاً من الدنس ، نظيفاً من الأحقاد ، لأنه لا يتعامل فى الحقيقة بعضه مع بعض ، وإنما يتعامل أولا مع الله .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى من حديث الإيمان . انظر فصل « تعبد الله كأنك تراه » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

وحين يعيش الإنسان فى جو الإسلام وجو القرآن ، لا يملك نفسه من حب الله ، حتى وهو يخافه ويخشاه !

إنها عجيبة من عجائب العقيدة .

فى ظل العقيدة يتطلع القلب إلى الله بحب دافق وشوق دائم للقياه .

كيف يتم ذلك ؟

إنه ليس عملا واحداً ، ولا كلمة واحدة، ولاشعوراً واحداً ،ولا لمسة واحدة.

إنما هو مزيج من الأعمال والأقوال والمشاعر واللمسات . . كلها فى النهاية تحدث هذا الحب المتدفق الفياض .

الحياة الدائمة مع الله . . فى صفحة الكون وباطن النفس .

التطلع الدائم إلى الله . . فى السماوات والأرض . . وفى الظاهر والباطن.. فى السر والجهر . . فى المعلوم والمجهول .

المراقبة الدائمة لله فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور ..

الإحساس الدائم بالله فى كل لحظة ..

المصاحبة الدائمة لله فى كل أمر ..

الصلاة والعبادة ..

قراءة القرآن ..

ومئات من المشاعر الخفية ، واللمسات اللطيفة ، والخفقات ، واللمحات ، والومضات .

وفى النهاية يتدفق هذا الحب الواغل فى الأعماق .. حب أعمق من أن يصفه اللفظ ، وألطف من أن يمسكه التعبير . سارب فى النفس ، مشع فى الكون ، لا تمسكه الألفاظ !

ولكنه على خفائه ذلك قوى جاهر مبين ! يعلمه صاحبه ، ويحسه فى أعماقه ، ولا يحتاج أن يعبر عنه بلفظ ، فهو ممتلىء به لا يحس الفراغ الذى يُحْوِجُ للتعبير !

وذلك الحب ، وهو قمة العبادة هو الكفيل بطاعة الله طاعة منبعثة من الرضا ، لا من القهر والخوف من العقاب .. وهو الكفيل بالتطوع النبيل فوق ما تفرضه الضرورة وما يفرضه القانون . التطوع الذى يرتقى بالإنسانية إلى أعلى ، ويحثها على التقدم إلى أمام .

* * *

وحين يعيش الإنسان فى جو الإسلام وجو القرآن لا يملك نفسه من التسليم لله .

إن الله هو مالك الملك . وهو موزع الرزق . وهو قاسم الحياة والموت . وهو مدبر الأمر ، وحده لا شريك له « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم »[1] .

فلمن يلجأ الإنسان إلا إليه ؟ وما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته ؟ ماذا يملك الناس من أمر أنفسهم حتى يملكوا من أمر غيرهم ؟ ما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته إلا المذلة للناس ، والهوان والضعف ، والخسران المبين : « أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً »[2] .

وهل يملك الإنسان أنى لجأ أن يخرج من قدر الله ؟ أفإن ذهب إلى فلان يحتمى به فلن يصل الله إليه ولن ينفذ قدره فيه ؟ « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك . وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »[3] .

أفليس الأسلم إذن والأجمل أن يركن الإنسان إلى الله ويلجأ إلى حماه ؟

---

(١) سورة فاطر (٢) .
(٢) سورة النساء (١٣٩) .
(٣) حديث رواه الترمذى .

كذلك تصنع العقيدة فى النفوس . إنها تولد هذا الاطمئنان إلى الله والتسليم بقدره ، والرضا بما يرضاه .

كذلك فعلت فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، فأسلم نفسه لله كلها لم يحتجز لنفسه ولا لغيره شيئاً منها ، وعاش مسلماً لله قانتاً ، راضياً بقدر الله فى السراء والضراء ، مطمئناً دائماً إلى أن الخير هو ما اختاره الله : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »(١) . « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »(٢) . فالله وحده هو الذى يعلم . والله وحده هو الذى يرتب النتائج على الأسباب . يرتبها بحكمته سبحانه ، وبقدرته سبحانه . ولا يملك البشر أن يرتبوا شيئاً على شيء ولا أن يجزموا بنتيجة شيء عن شيء . أو يعرفوا على وجه اليقين أين يكمن الشر وأين يكمن الخير . إنما هو الله المدبر . وهو القادر . وهو الفعال لما يريد .

وكذلك فعلت فى نفوس الصفوة من المؤمنين فى صدر الإسلام ، فأسلموا نفوسهم لله — بقدر ما أطاقت نفوسهم — وأحسوا أن ذلك هو الخير . وأنهم أودعوا نفوسهم ، وأعمالهم ، ومشاعرهم ، عند الحق الذى لا تضيع عنده النفوس .

وكذلك تفعل فى كل نفس يتملكها الإيمان الحق ، فتسلم أمرها لله كاملا ، وتطمئن إلى قدره ، وتستريح ولا تعود تقلق على الصغيرة أو الكبيرة . ولا تعود تجزع لما يصيبها من الضراء أو تطيش بما يصيبها من السراء . لا تقلق على الرزق فهو بيد الله . ولا على الحياة فالموت والحياة فى يد الله . ولا على الصحة فالصحة والمرض بيد الله . ولا على المكانة . . ولا على ما يصيبها من أذى الناس . . ولا شيء مما يقلق النفوس على الأرض ويصيبها بالجزع والاضطراب : « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . . إلا المصلين . . »(٣)

(١) سورة البقرة (٢١٦) . (٢) سورة النساء (١٩) .

(٣) سورة المعارج (١٩ — ٢٢) .

وعندئذ تنطلق النفس للعمل بما فيه الخير . . تنطلق خفيفة من الأعباء !

ولقد يغلب على الظن أن هذا التسليم المطلق لله هو التواكل.. هو الضعف.. هو السلبية .. هو الخنوع !

كلا ! فما كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً ولا سلبياً ولا خانعاً ولا قاعداً عن الجهاد والحركة والاندفاع الدائم نحو الخير والبناء والتعمير .. وما كانت أمته التى رباها على عينه كذلك .

وتلك هى أمثلة التسليم الحق لله ! فلا سلبية إذن ولا ضعف ولا تواكل .

إنه التوكل على الله ، لا التواكل عليه . التوكل الذى يشحذ العزيمة ويمنح المضاء .

التوكل الذى يزيح عن القلب سم القلق المدمر المحطم للأعصاب .

يزيح عن القلب التردد الناشىء عن الخوف ، والقعود الناشىء من العجز عن مواجهة الأحداث .

الأحداث بيد الله . والنتائج بيد الله . والأعمار بيد الله . . ففيم التردد ، وفيم الخوف ، وفيم القعود ؟

كلا ! بل هى عزيمة وقوة وانطلاق !

وبهذه العزيمة وهذا الانطلاق وُجدتْ تلك الأمة الفريدة فى التاريخ . الأمة التى انتشرت فى رقاع الأرض ورقاع التاريخ : « خير أمة أخرجت للناس »[1] .

الأمة التى كانت تجاهد ولا تهاب . وتحرص على الموت فتوهب لها الحياة.

---

(1) سورة آل عمران (١١٠) .

والعبادة هى الوسيلة الفعالة لتربية الروح . العبـادة بمعناها الواسع الذى يشمل الحياة . .

العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج.. كلها قد قصد بها تربية الروح ، وسَنْد النفس وهى تواجه الحياة الواقعة بما فيها من مشكلات وعقبات، وتواجه ثقلة الجسم ودفعة الشهوات[1] .

والصلاة خاصة هى جوهر العبادة وركنها الركين ، ومن ثم كانت العناية الشديدة التى يوجهها إليها الإسلام :

« والمسلم حين يتوضأ ينظف يديه من الوسخ الظاهر ، وينظفهما كذلك مما اجترحتا من آثام . ولا يتم وضوؤه الحقيقى الكامل حتى يستشعر هذا المعنى ، ويحس أنه يغسل عن يديه حقاً ما اقترفتاه من الإثم . أى أنه يتذكر ما اقترفه من الإثم بيديه ، ويتوجه إلى الله يطلب المغفرة .. ولعل هذا التوجه أن يجعله فى المرة التالية يتوب . . !

« وهو يغسل عينيه لينظفهما .. من التراب والوسخ .. وينظفهما كذلك من كل نظرة آثمة أو نظرة خائنة . . وحين يستشعر فى نفسه هذا المعنى فلعله فى المرة التالية أن يستحى من الذنوب !

«وهو يغسل أذنيه ويغسل ساعديه وقدميه على هذا النحو ذاته وهو يستشعر المعنى نفسه ، فتتم له فى كل مرة وفى آن واحد طهارة البدن وطهارة الروح .

« وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يوجه المسلمين لهذا المعنى ويكرره عليهم مرات كثيرة ، يقصد إلى ذلك قصداً ، ويرمى لتثبيته فى قرارة النفس .

« إنه لا يريد أن يكون الوضوء — وهو مدخل الصلاة — « روتينـاً »

---

(١) انظر فصل « العبادات الإسلامية » من كتاب « فى النفس والمجتمع » .

آلياً يؤديه المسلم بحكم العادة وهو شارد الفكر غير عابئ الضمير . وإنما يريد أن يتوجه له المسلم بنفسه كلها وكيانه كله ، وأن يعبر هذا المدخل إلى الصلاة بقلب خاشع وضمير متيقظ ، فيكون ذلك تهيئة نفسية جميلة للحظة التطلع إلى الله .. اللحظة التى تربط الأرض بالسماء ، تربط البشر بالخالق . تربط تلك الذرة الضئيلة الفانية بقوة الأزل والأبد ، فتقبس منها النور والقوة والثبات و « الوجود » .

« ولا يريد أن ينصرف الوضوء إلى معناه الحسى الظاهر فيفقد معناه !

« إنه إذا انحسر إلى مجرد تنظيف لظاهر الجلد ، فقد يغنى إذن عنه أىّ تنظيف ! ثم يظل يفقد معناه وحكمته حتى يفقد أثره الروحى فى أعماق النفس ، أثر التطهر من الداخل ، والتوجه إلى الله بنفس تنظفت حقاً ، ورغبت إلى الله حقاً ، بحكم ما اشتملت عليه من نظافة وطهور . والرسول المربى لا يريد أن يرين على قلوب الناس ما يطفىء تلك الإشراقة الجميلة التى تنبعث من الروح الطاهرة ، أو يحول دون هذه الانتفاضة الحية التى تهتز بها النفس المتطهرة ، فتنفض عنها ما علق بها من ركام الأرض ووعثائها ، وما هبط بها من ضرورات ضاغطة وقيود عاتية ، ثم تنطلق .. جديدة .. حية .. شابة .. فتية .. مغسولة من الأدران .. تحلق فى الأكوان ، وتسبح فى ملكوت الله .

« إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يذكر الإنسان بدنه الظاهر وينسى روحه الباطنة . لا يريد أن يحجبه عالم الظاهر عن عالم الخفاء . لا يريد له أن يكون تافهاً لا يرى من الأشياء غير ما تدركه الحواس ! وإنما يريد له أن يأخذ الحياة بكل شمولها وكل عمقها . يريد له ألا يقف عند الظواهر المحسوسة بل ينفذ إلى ما وراءها فى أعماق الضمير وأعماق الكون . يريد له أن يرى الحقيقة الكاملة . يريد له أن يرى الله .

« ثم يدخل المسلم فى الصلاة .. يدخل ذلك العالم الواسع الفياض بمجالى النور .

« يدخل فى تلك اللحظات العلوية العجيبة التى يتفتح لها القلب البشرى — حين يتفتح — فإذا هو ينتقل من حدود الحس الضيقة ، وينتقل من حدود الأرض ، وينتقل من حدود « الواقع » ، وينتقل من حدود « المعلوم » كله والمنظور .. إلى ذلك العالم الذى لا حدود له تُرى ولا غاية تدرك ولا ملمس يحس! عالم النور الغامر الذى ليست له حدود . النور الذى تدركه الأرواح ، وتنهل منه الأرواح : « الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء » .

« الصلاة التى تربط الإنسان بخالقه ، فإذا هو كائن عجيب لا يشبهه شىء من خلق الله كله . كائن يقف بجسمه على الأرض وروحه تسبح فى السماء . كائن قادر — فى عجزه وطاقته المحدودة الفانية — أن يقوم بالمعجزة .. أن يقبس من الروح الخالقة . أن يحطم السدود والحواجز . أن تنفسح جوانحه فيشمل الكون . أن تنفسح روحه فتشمل الحياة . أن ينفسح كيانه فيتذوق الخلد . ويتذوق حقيقة الوجود »[(١)] .

والصيام .. « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون »[(٢)] .

إنها التقوى لله غاية الصيام .. التقوى التى تنشأ من الطاعة . الطاعة التى

---

(١) من فصل لم ينشر بعد فى كتاب « قبسات من الرسول » .
(٢) سورة البقرة (١٨٣) .

تتطوع بالامتناع عن شهوات النفس وشهوات الجسد ، فى حين تملك ألا تمتنع ولا تطيع !

والصيام حين يؤدى على أصوله ، ولا يكون مجرد امتناع عن الطعام والشراب . . حين يكون صيام النفس من الداخل لا صيام الأحشاء . . حين يتوجه به الإنسان إلى الله . . حين يحس أن كل خاطرة فى نفسه ، وكل إحساس فى شعوره ، وكل لفتة وكل نظرة وكل خالجة وكل سر ، ينبغى أن تكون — فى هذا الشهر خاصة — نظيفة متطهرة تصلح للصيام والتبتل ، والتوجه الكامل إلى الله . . حينئذ تملأ التقوى القلب ، وتنطلق الروح إلى آفاق عالية من النور المشرق الوضىء .

والزكاة . . تطهير من شح النفس ، وإطلاق للروح من الأثرة البغيضة التى تحس بوجودها وحدها ولا تحس بالآخرين . إنها إحساس بالأخوة النبيلة التى تجمع الأسرة البشرية الواحدة ، فإذا كلها قريب من قريب . وكل فرد فيها ذو رحم مع الآخرين . الأخوة التى تخرج بالإنسان عن الشعور « بالملك » فيما يمتلك . فليس هناك ملك خالص فى الأسرة الواحدة . . وإنما الناس شركاء فى الخير ، أصلاء فى رزق الله العميم .

والحج . . « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء

فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا ، وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »[1] .

« والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذه الفريضة ، يحكون عجبا ويحسون عجبا .

« إن حالات « الوجد » التى تستجيشها فى وجدانهم زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها لهى حالات عجيبة نادرة المثال فى واقع الحياة . حالات ترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض ، ومطامع الأرض ، وشهوات الأرض ، وتتجرد لله خالصة ، تتوجه إليه أن يتقبلها فى عباده ، ويمنحها مغفرته ورضوانه .

« والشفافية التى يحسها الناس هناك ، وهم يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويصلون حيث صلى ، وحيث تنزل عليه الوحى ، وحيث جاهد وصبر ، وحارب وانتصر .

« إنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هزًّا ، وتصل إلى أعماقه . . تصل إلى الكيان الخالص المصفَّى من الأدران ، إلى الجوهر المشرق المستضىء بنور الله ، هنالك حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه »[2] .

* * *

تلك هى العبادات « المفروضة » . . ولكنها ليست كل عبادة الإسلام .

---

(١) سورة الحج (٢٧ ـ ٣٥) .

(٢) من فصل « العبادات الإسلامية » كتاب « فى النفس والمجتمع » .

إن الإسلام يوسّع معنى العبادة حتى تشمل كل الحياة . كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة . وكل عمل يتركه الإنسان تقربا لله واحتسابا فهو عبادة. وكل شعور نظيف فى باطن النفس فهو عبادة . وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فهو عبادة . وكل ذكر لله فى الليل والنهار فهو عبادة . ومن ثم تشمل العبادة الحياة . ويصبح الإنسان عابدا لله حينما توجه إلى الله .

وبهذا المعنى تصبح العبادة هى الصلة الدائمة بين العبد والرب ، وتصبح هى التربية الدائمة للروح .

* * *

هذه الصلة الدائمة بالله . . حبه وخشيته وتقواه . التطلع الدائم إليه واللجوء إلى حماه . الرضى بما يحبه ويرضاه .. أى نتيجة تنتج عنها ؟ وأى ثمرة تتوصل إليها؟

إنها نتائج شتى وثمار جنية كثيرة فى كل اتجاه .

من ثمارها الإحساس الحيّ بالصلة الوثيقة بين الإنسان والكون . . صلة التعاطف والقربى والحب والإعجاب . الإنسان بضعة من هذا الكون الهائل الفسيح . بضعة صادرة من ذات المصدر الذى صدر منه الكون . صادرة من إرادة الله . ومن ثم فهناك وشيجة القربى وصلة النسب العريق ! هناك الصلة الحية التى تربط قلباً بقلب ، وشعوراً بشعور !

هذا التعاطف يحييه القرآن بوسائل شتى ، منها إحياء مشاهد الكون وجعلها تتحرك حركة الأحياء :

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين »[1] .

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت »[2] .

---

(1) سورة فصلت (11) . (2) سورة الانشقاق (1 — 5) .

« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلّاها ، والليل إذا يغشاها »[١] .

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها »[٢] .

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »[٣] .

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت »[٤] .

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت »[٥] .

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »[٦] .

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة »[٧] .

« والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس »[٨] .

ومنها جمع الخلائق كلها فى حكم واحد وميزان واحد :

« سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم »[٩] .

« يعلم ما فى السماوات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون »[١٠] .

« وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون »[١١] .

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »[١٢] .

---

(١) سورة الشمس (١ — ٤) .
(٢) سورة الزلزلة (١ — ٥) .
(٣) سورة يس (٤٠) .
(٤) سورة الحج (٥) .
(٥) سورة فصلت (٣٩) .
(٦) سورة الحشر (٢١) .
(٧) سورة الإسراء (١٢) .
(٨) سورة التكوير (١٧ — ١٨) .
(٩) سورة الحشر (١) .
(١٠) سورة التغابن (٤) .
(١١) سورة الروم (٢٦) .
(١٢) سورة الأحزاب (٧٢) .

ومنها رد الإنسان إلى منشئه من تراب الأرض وطينها وتربتها :

« والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً »[1] .

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »[2] .

وهكذا .. وهكذا مما يربط وشائج القربى بين النفس والكون . ويعمّق الإحساس بما بينهما من اتصال .

والفنون كما قلنا مرة تعالج هذا الأمر . . ولكنها لا تصل به إلى هدفه . إن الاستمتاع بجمال الكون جزء أصيل من العقيدة الإسلامية . جزء مقصود ، لما يحدث فى النفس من رحابة أفق وسعة تصور وعمق إدراك . ولكنه ينبغى أن يصل إلى غايته . يصل إلى الإحساس بالله . فيلتقى الفن بالعقيدة ، والمتعة الحسية بالمتعة الروحية ، وتصفو سريرة الإنسان بهذه السعة التى يحسها والشمول الذى يقدر عليه ، فيصبح إنساناً صالحاً . صالحاً لأن الحواجز قد زالت من نفسه حين وسع أفقه واتصل بالله .

* * *

ومن ثمارها حب الحياة فى جميع الأحياء .

فإذا أحس الإنسان بالوشيجة الحية بينه وبين الكون الجامد لظاهر العين ، الحىّ فى حساب الروح ، فإنه من باب أولى سيحس بالوشيجة الحية بينه وبين الأحياء . . التى يشعر بحياتها الحس والروح على السواء .

والحديث الدائم عن الأحياء فى القرآن ، ولفت النظر إليها ، سواء فى عالم النبات أو الحيوان ، ينتج هذا الأثر فى النفس ، فتحس بصلة القربى وعمق الاتصال . وتولّد فى الإنسان حبا لكل كائن حىّ ، حتى وهو يصارع مايضره من هذه الأحياء !

---

(١) سورة نوح (١٧ — ١٨) . (٢) سورة طه (٥٥) .

إنه يصارعها ليدفع أذاها عن نفسه ، ولـكنه — فيما عدا هذا — يحس نحوها بالصداقة والود ، ويهفو لها بالوئام والسلام .

وهذا الإحساس — كالإحساس بالصداقة مع الكون الواسع — يعمل عمله فى تهذيب النفس ، وتطرية خشونتها وإزالة جفوتها . فإن التعود على شعور الصداقة والحب ، وهو شعور رخىّ ندىّ ، يزيل التوتر الذى يصيب النفس من مجاهدة « الواقع » المادى والواقع الحسى ، والذى يصيبها من الكدح الذى لا بد للإنسان منه لكى يعيش .

هذا التوتر — الذى ينشأ طبيعيا من عملية الكدح — هو حصيلة خطرة . إنه كالسموم التى تنشأ فى داخل الجسم من عملية الطعام . لا بد أن تطرد . لا بد لها من مزيل .

وإذا كان الجسم يتخلص من سمومه بطريقة ما ، ويمرض إذا تراكمت السموم داخله . . فإن النفس كذلك ينبغى لها أن تطرد سمومها . وليس شىء يزيل سموم النفس كما يزيلها الحب . ذلك الروح العلوى الشفيف الذى تتمثل فيه عظمة الإنسان ، تتمثل فيه نفخة الروح التى نفخها الله فى قبضة الطين .

الحب على نطاقه الواسع . الحب لكل شىء ولكل موجود . .

وهذا الذى يصنعه الإسلام ، ويصنعه القرآن .

* * *

والحب كذلك للناس . . حتى والإنسان يصارع فيهم الشر ويصيبه منهم الأذى فى الطريق !

إن العبادة الدائمة لله ، والحياة الدائمة فى كنفه ، والتطلع الدائم إلى رضاه . . تحدث هذا الشعور الوثيق بالحب لبنى الإنسان .

الناس كلهم من خلق الله . إخوة فى الخليقة .

والناس كلهم من طين الأرض . إخوة فى المنشأ .

والناس كلهم صائرون إلى الله . إخوة فى المصير .

والناس كلهم من نفس واحدة . إخوة فى الإنسانية .

والناس كلهم ، أو ينبغى لهم ، أن يعبدوا الله ويلتقوا فى حماه . إخوة فى الاتجاه .

ومن هنا ينشأ الحب للإنسانية ، والصلة بين بنى الإنسان . وبروح الإسلام يغذيه بكل توجيهاته وكل تطبيقاته حتى يصبح جزءاً من العقيدة حياً ممتزجاً بالكيان .

وحين يكون هذا هو المبدأ ، حين تكون هذه هى الركيزة الموجودة فى باطن النفس ، فإن صراع الشر فى الناس يكون هو الحالة الطارئة التى لا تلبث أن تزول . ويصير السلام هو الأصل فى الحياة ، والحرب هى الشذوذ . وحتى لو طال الصراع واستمر ، وحتى لو بلغ الأذى مبلغه ، فليس هناك الحقد على بنى الإنسان . إنما هو الكره للشر الذى فى نفوسهم ، والرجاء لهم فى الوقت ذاته أن يهتدوا ويكفوا عن الطغيان .

وحتى إذا انقطع الأمل والرجاء فيهم ، وصرح الشر ، وأعلن القتال . . فهو ليس قتال الوحوش ولا بربرية الحيوان . وإنما هى مشاعر البشر المترفعة المستعلية على الأحقاد .

ذلك كان شعور الرسول وتوجيهه وهو يمنع التمثيل بالقتلى وينهى عنه أشد النهى . وكان شعوره وتوجيهه وهو يقول : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة »[1] . وكان شعورة وتوجيهه وهو يقول :

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

«استوصوا بالأسارى خيراً » . وكان شعوره وتوجيهه وهو يقول عن قومه الغلاظ القساة الذين يرمونه بكل شر ويلتوون عليه كل التواء : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وذلك كان شعور المسلمين وسلوكهم فى كل حرب دخلوا فيها ، حتى فى الحروب الصليبية حين أمكنهم الله من عدوهم الذى فسق وفجر ونقض كل عهود الأمان ، ودخل على المسلمين فى بيت المقدس فأعمل فيهم السيف وحول المسجد إلى بركة بشعة من الدماء . . حتى حينئذ تذكر المسلمون إيحاء دينهم ، وارتفعوا على أنفسهم وعلى البشرية كلها ، فلم ينتقموا بالمثل من المجرمين!

ذلك الشعور الإنسانى النبيل هو مفتاح الحياة الصالحة فى الأرض . وهو وصية الله للناس فى الأرض . وهو ثمرة العبادة الدائمة والاتصال الدائم بالله .

والدعوات « الإنسانية » الأرضية تحاول هذه المحاولة وتدعو إليها بكل سبيل .

وكل دعوة إلى الخير فهى خير . .

ولكن الأمر الواقع هو أن كل دعوة إنسانية منقطعة عن الله والعقيدة لم تستطع أن تتجاوز حدود دارها ، ولم يكن لها رصيد فى واقع الأرض . إنها أحلام جميلة ومثل طائرة فى الهواء . . أما الواقع الذى تحقق فى واقع الأرض ودوّنه التاريخ ، فهو واقع هذه العقيدة الإسلامية التى تستمد كيانها من الله . وهذه دعوة غاندى الإنسانية المرفرفة ما كادت تصل إلى الواقع حتى تحولت مع جيرانه المسلمين إلى عصبية دينية ووطنية لا ترعى حرمة ولا تخضع لمنطق ولا تحتكم لقانون . وهذه هى الشيوعية — الدعوة الإنسانية المزعومة — تؤيد اغتصاب اليهود لكيان العرب سنة ١٩٤٨ ، وتؤيد فرنسا فى الجزائر سنة ١٩٦٠! وتعيش على « حمامات الدم » حتى مع « المواطنين » !

* * *

ومن ثمارها الاستعلاء على دفعة الجسد وموازنة ثقلة الأرض .

إن دفعة الجسد جزء من الكيان الحى للإنسان . جزء مطلوب لذاته ، وهو موضع الرضاء الكامل ، لا الكبت والاستقذار[1] . ولكنه مع ذلك حين يترك وحده يهبط بالإنسان عن مستواه اللائق بخليفة الله فى الأرض . يهبط به إلى مستوى الضرورة وعالم الحيوان .

ويستعبد الإنسان نفسه لشهوته . . فلا يملك نفسه منها ، ولا يستطيع تحرراً ولا انطلاقاً .

وليس فى هذه العبودية سعادة للإنسان نفسه ، بصرف النظر عن الآفاق العليا التى يعجز عن التحليق فيها ، والتبعات الجسام الملقاة على عاتق الإنسان. ليس فيها سعادته لأنها تصبح سعاراً دائماً لا يهدأ،وشواظاً لا ينطفىء ولا يكف عن اللذع والإحراق .

من أجل ذلك يعمل الإسلام على موازنته ــ لا كبته ــ بإطلاق الروح فى ملكوت الله ، وصلة القلب الدائمة به ، فتهويمة الروح تخلع الإنسان قليلا من تشبثه بالأرض،ونشوة القلب تخفف قليلا من ثقلة الجسم . فيحس الإنسان بخفة فى كيانه كما لو كان يسير على كوكب مخفف الجاذبية ، فإذا خطواته رشيقة الحركة وإذا قفزته طيران !

* * *

ومن ثمارها الاستعلاء على كل قوة فى الأرض . .

فما وزن هذه القوى الأرضية كلها بإزاء قوة الله ؟ لا شىء . لا شىء البتة على الإطلاق .

---

(١) انظر الفصل الخاص بتربية الجسم .

وإذن فلاعبودية لقوة من قوى الأرض، ولا ذلة ولا استكانة ولاخنوع .

كل قوة على الأرض إما أن تكون مهتدية بهدى الله مستمدة من نهجه وهداه . وإذن فهي حق . وإذن فينبغي أن تساند بكل مافى طاقة الإنسان من سناد .

وإما أن تكون ضالة منحرفة عن الله . خارجة على نهجه مستكبرة على هداه . وإذن فهي باطل . باطل ينبغي أن يجاهد بكل مافى طوق الإنسان من جهاد .

ولا هدنة بين الحق والباطل .

إنه الجهاد الدائم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

جهاد تراعى فيه كل مبادىء « الإنسانية » كما رسمها خالق الإنسان . ولكنه جهاد . جهادِ واستعلاء . لاضعف ولا استخذاء ولاهوان : « ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»[1] .

فى صميم عقيدة المؤمن أنه خير من كل قوة فاسدة على الأرض . وأقوى من كل قوة فاسدة على الأرض . أقوى ولو ضعفت قوته المادية أمام الباطل . أقوى ولو انهزم . أقوى ولو غُلب على أمره . أقوى ولو غُلت قوته المادية عن الجهاد . أقوى بروحه المتصلة بالله . وأعز بروحه المهتدية بهداه .

وهذا الاستعلاء على الباطل ، وهو عنصر أصيل فى العقيدة الإسلامية والتربية الإسلامية ، هو ثمرة من ثمار العبادة الدائمة والصلة بالله . ثمرة قد تجىء دفعة واحدة ، وقد تجىء رويداً رويداً وتتمكن ، ولكنها عنصر أصيل لا يكون بدونه إيمان .

* * *

---

(١) سورة آل عمران (١٣٩)

ومن ثمارها استمداد القوة من الله تجاه « القوى المادية » التى تظن النظرة القصيرة أنها هى الواقع الحق وكل ما عداها أباطيل !

القوى الاقتصادية ، والقوى الاجتماعية ، والقوى السياسية ، والقوى المادية . كلها حقائق . ولكنها حقائق صغيرة هزيلة ، ليست لها « حتمية » وليس فى يدها وحدها تقرير الأمور .

والعقيدة الحية تستطيع أن تصارعها كلها وتتغلب عليها وتوجهها الوجهة الصحيحة !

حين وقف أبو بكر فى حروب الردة وحده ، من كان يسنده من كل قوى الأرض ؟

الجيوش لا تريد أن تحارب ، والأفكار تجزع من حدوث الصدام . وأبو بكر وحده .. وحده حتى من عمر بن الخطاب ، أعنف الناس حماسة فى الجاهلية وفى الإسلام !

فكيف وقف أبو بكر وانتصر ، وضم إلى صفه قوة الجيوش وقوة الأفكار ؟

هل شىء هو غير الإيمان ؟

هل شىء هو غير تلك الطاقة الروحية العجيبة التى رباها الإسلام ، والتى كانت أوثق الطاقات الروحية صلة بنبي الإسلام «ثانى اثنين إذ هما فى الغار»[1] ؟ ومن ثم صمدت وحدها وغيرت الميزان ؟

* * *

من أجل ذلك يحرص الإسلام على هذه الطاقة الروحية ويضعها فى المقام الأول . لأنها — فى حقيقة الأمر — هى التى تنشىء الواقع المادى وتشكل

(١) سورة التوبة (٤٠) .

ظروفه . هى التى تهدم وتبنى ، وتُثْبِتُ وتمحو . هى الجوهر الحق ، والمادة مجرد كساء .

وتلك طريقة الإسلام فى تربية الروح . طريقة عميقة محيطة شاملة ، توقع على كل وتر ، وتلمس كل جانب حى . طريقة تشمل النشاط البشرى كله وتحيط بكل جذوره . طريقة لا تدع شيئاً يفلت ولا شيئاً ينحرف عن السبيل .

وهى مهمة دائمة لا تسكن فى نهار أو ليل . وإنما تصاحب الإنسان فى كل عمل يعمله وكل سلوك يسلكه . بل تصاحبه فى داخل نفسه ، وتؤنس مشاعره وتشع عليه من نور الله .

تربية العقل

قلنا من قبل : إن الكائن الإنسانى وحدة مترابطة ممتزجة الأجزاء . لاينفصل منه جسم عن عقل عن روح . وقلنا : إننا سنضطر اضطراراً إلى الحديث عن كل واحد على حدة ، ولكنها ضرورة بحث لا رصيد لها من الواقع .

وفى هذا الفصل ، والفصل الذى يليه[1] ، سيتبين لنا مصداق هذه الحقيقة : حقيقة الترابط والامتزاج فى الكيان البشرى . لقد أفردنا فصلاً خاصاً بتربية الروح لأنها هى القاعدة التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله : تشريعاته وتوجيهاته ، وتنظيماته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والفكرية .. ولكننا سنرى فى هذا الفصل وفى الذى يليه ، كيف تتصل التربية العقلية والتربية الجسمية كلتاهما بالقاعدة الروحية ، وتمتزج بها ، وتترابط معها ، فإذا هى بناء واحد متكامل موحد الكيان .

سيبدو لنا أن منهج الإسلام يستمد كل ألوان التربية من تلك القاعدة الروحية ، كأنما يستنبتها نباتاً من « تربة » الروح ، فتخرج مشعة بإشعاعها ، متأرجة بأريجها العذب ، حتى وإن كانت فكرة عقل أو دفعة عضلات .

* * *

العقل البشرى طاقة من أكبر طاقاته ، ونعمة من أكبر نعم الله عليه .

« قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »[2] .

---

(١) تربية الجسم .

(٢) سورة الملك (٢٣) .

« والفؤاد » يستخدم فى القرآن بمعنى العقل ، أو القوة الواعية فى الإنسان ، أو القوة المدركة على وجه العموم .

ولقد فُتِنَ الإنسان بعقله ، إذ استطاع به أن يميز بين الأشياء ، ويدرك خصائصها ، ويستنبط فوائدها ، ويشكل صوراً جديدة من « المادة » التى وجد نفسه محاطاً بها على ظهر الأرض أو فى السماوات .

وفى العصور الحديثة خاصة زادت فتنة الإنسان بعقله ، حين رأى المخترعات التى ينتجها ، والكشوف التى يقع عليها ، وبلغت الفتنة قمتها بانطلاق الطاقة الذرية وانطلاق الصواريخ .

وكانت هذه الفتنة على حساب الروح . على حساب الطاقة التى تتصل بالله وتتصل بالمجهول .

وهى فتنة عمياء . . لا تبصر . فلو كانت تبصر مارضيت أن تقصّ أجنحة الكائن البشرى وتقعده عن الانطلاق ، ليجثم على الأرض ، فى حين أنه قادر على ارتياد الأرض بقدميه فى ذات الوقت الذى يرتاد بجناحيه فسحة السماء .

ولو كانت تبصر ما رضيت أن تبدد الطاقة الكونية الكبرى ، طاقة الروح ، لتُضَخِّم الطاقة العقلية وتفرش مساحتها ، فى حين أن هذا العقل البشرى على ضخامته لا يستطيع أن يهتدى وحده ، ولا بد له من مدد مشع ينير طريقه فى الظلمة . . مدد من طاقة الروح .

إن كشوف العلم كلها ومخترعاته ليست هى التى توجه الحياة أو التى تحكمها ، إنما الذى يوجهها ويحكمها هو طريقة الاستفادة من كشوف العلم ومخترعاته : أفى سبيل الخير أم فى سبيل الشر ، وفى سبيل السلم أم فى سبيل الحرب . والعقل يميز ولاشك بين الخير والشر ، ولكنه ليس هو الذى يقرر الطريق! فكثيراً

ما قرر عقل الإنسان أن كذا من الأمور خطأ ولا يجوز فعله ، ثم اندفع إليه لانحراف روحه وانجرافها مع الشهوات !

الروح هي التي تقرر !

الروح الواصلة المهتدية تقرر طريق الخير ، وتسخر العقل ليسير في طريقه.

والروح المنقطعة الضالة تقرر طريق الشر ، وتدفع بالعقل في ذلك الطريق .

* * *

والإسلام دين الفطرة .

الإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها ، فهي هبة الله المنعم الوهاب،ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة ، لا يبخسها قدرها ، ولا يعطيها فوق قيمتها . ويستغلها جميعاً إلى أقصى طاقتها لفائدة المخلوق البشرى وصلاح حاله على الأرض .

ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها ، ويربيها لتتجه في طريق الخير . ولكي يصل إلى ذلك فإنه يمزجها بمزيج الروح ، ويستنبتها — كما قلنا من قبل — في « تربة » الروح الأريجة المشعة ، لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق .

* * *

يبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي ، فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشرى أن يحكم فيها .

وهو يعطي الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات ، بالقدر الذي يلبي ميله للمجهول[1] . ولكنه يكل أمر ذلك إلى الروح ، فهي القادرة على ذلك

---

(١) انظر بعد ذلك فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » .

المزودة بوسائل الوصول . أما العقل فوسيلته إلى الله وإلى معرفة الحق ، هى تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل ، ومن ثم يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق ، ولا يتركه يغرق فى التيه الذى غرقت فيه الفلسفة من قبل واللاهوتيات ، فلم تصل إلى شىء حقيقى يستحق مابذل فيها من جهد ؛ إن لم تكن قد غبّشت مرآة الفكر البشرى ، وشتتت ما ينعكس عليها من أضواء[1] .

ثم بعد ذلك يأخذ فى تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة ، فيتخذ إلى ذلك وسيلتين .

الوسيلة الأولى هى وضع المنهج الصحيح للنظر العقلى .

والوسيلة الثانية هى تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط.

والوسيلة الأولى يصل إليها بطائفة من التوجيهات والتدريبات :

فهو أولا يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن . فينعى على المقلدين الذين يقولون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[2] ! « قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ ! »[3] وينعى على الذين يتبعون الظن : « إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس »[4] « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »[5] .

ثم هو يأمر بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه : « ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا »[6] .

---

(١) انظر فصل « لا تفكروا فى ذات الله » من كتاب « قبسات من الرسول » .
(٢) سورة الزخرف (٢٣) .
(٣) سورة البقرة (١٧٠) .
(٤) سورة النجم (٢٣) .
(٥) سورة النجم (٢٨) .
(٦) سورة الإسراء (٣٦) .

وهى مسئولية ضخمة ، يبرز التعبير ضخامتها بإفراد السمع والبصر والفؤاد فى مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولا على حدة ، ثم جمعها كلها بعد ذلك ، وإشراكها فى المسئولية ، بهذا الجمع والتوكيد : « كل أولئك » . وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر ، فلا يأخذ الأمور باستخفاف ، ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسئول .

والتوجيهات فى هذا الباب كثيرة . فأصحاب الكهف مثلا يقولون : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ؟ ! »[1] هلا يقدمون دليلا واضحاً على هذه الآلهة التى يتخذها القوم من دون الله ؟ دليلا يتثبت منه العقل قبل اقتفائه ؟ وفى حادث الإفك يقول القرآن : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ؟ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون »[2] . والشهادة ضرورية فى إقامة الحدود للتثبت فى الأمر . فلا تؤخذ الأمور اعتباطا وإنما ينبغى الوصول فيها إلى اليقين قبل إصدار الحكم . ودرء الحدود بالشبهات — وهو مبدأ فقهى إسلامى مأخوذ عن السنة — يشير إلى هذا الاتجاه ، وهو ضرورة التثبت الكامل قبل النطق بحكم فى أى موضوع . وأن الأمر يظل معلقاً مالم يصل الإنسان إلى الدليل القاطع . وكلها توجيهات وتدريب للطاقة العقلية على طريقة العمل الصحيحة ومنهج التفكير السليم .

والوسيلة الثانية — وهى تدبر نواميس الكون — تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم .

إن نواميس الكون تجرى فى دقة عجيبة ونظام لا يختل . وفوق ما يوحيه ذلك للقلب البشرى من تقوى الله الصانع المدبر والتوجه إليه فى كل أمر ،

---

(١) سورة الكهف (١٥)   (٢) سورة النور (١٣) .

فإنه يعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام . إن دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ولا بالثالثة .. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع الذى يقطع ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ! والنظر فى هذه الدقة المذهلة يعود العقل أن يدقق! فكل خلل بسيط فى التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة ، لو كان يحدث مثلها فى الكون لانفلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك ! والعقل قمين — حين يرى تلك الدقة والترابط — أن يحاول ضبط أفكاره وربطها ، والوصول إلى الكليات التى تربط الجزئيات وتحكمها — كما يرى فى نظام الكون الكبير .

وقد انطبع تفكير المسلمين بهذه الدقة العلمية — على الرغم من قلة ما كان بأيديهم يومئذ من الآلات والأدوات — فوصلوا إلى كشوف علمية تثبت لهم الجد فى التحصيل والصدق فى التفكير ، كما تثبت لهم قدراً من الدقة يعتبر مثالياً بالنسبة لذلك الحين . وأبحاث ابن الهيثم فى البصريات ، وأبحاث البتانى الذى قاس بالدقة دورة الأرض حول الشمس وحسب بالدقة مواعيد الكسوف والخسوف ، تعتبر شاهداً على طريقة تأثر العقل الإسلامى بمنهج التربية الإسلامية فى تربية العقول .

* * *

يوجه الإسلام الطاقة العقلية أول ما يوجهها إلى التأمل فى حكمة الله وتدبيره . وهو أمر أقرب ما يكون إلى مملكة الروح .

الله الخالق المدبر الذى خلق السماوات والأرض بالحق ، ويدبرها بالحق . . ذلك موضع التأمل .

وهو بحر واسع من التأملات لا ينتهى ولا ينفد .. ولقد عالجته الفلسفات

من أول ظهورها إلى اليوم . ولكن فى ذهنيات مجردة جافة لا تنبض بالحياة ولا تصل إلى غاية . بينما يمزجها القرآن بنداوة الروح فتنبض ، وتسرى الحياة إليها فتهز القلب البشرى وتربطه بالله[1] .

إن هذا التأمل ليس مقصودا لذاته ، ليس مقصوداً به أن يصبح فلسفة ! يتعاظل فيها الفلاسفة و يَغْمُضُون ويبهمون . . ثم لا ينتهون إلى شئ !

إنما غايته إصلاح القلب البشرى ، وإقامة الحياة فى الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين فى بنية الكون وبنية الحياة .

يكرر القرآن هذه الحقيقة فى كثير من آياته :

« وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق »[2] .

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ؟ »[3] .

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق »[4] .

« خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون»[5] .

« خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن فى ذلك لآية للمؤمنين»[6] .

« ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق»[7] .

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا »[8] .

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين »[9] .

---

(١) انظر فصل « لا تفكروا فى ذات الله » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

(٢) سورة الأنعام (٧٣) .

(٣) سورة إبراهيم (١٩) .

(٤) سورة الحجر (٨٥) .

(٥) سورة النحل (٣) .

(٦) سورة العنكبوت (٤٤) .

(٧) سورة الروم (٨) .

(٨) سورة ص (٢٧) .

(٩) سورة الدخان (٣٨) .

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »[1] .

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم »[2] .

الحق إذن فى بنية الكون ذاته يوم خلقه الله . فقد خلقه بالحق ، فامتزج الحق فى كيانه ، وارتفع عن الباطل والضلال .

فالكون لم يوجد مصادفة ، ولم يوجد باطلا ، ولم يوجد عبثاً . وكذلك الإنسان :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ »[3] .

وفى آية التغابن يربط بين خلق السماوات والأرض بالحق ، وخلق الإنسان فى صورته الحسنة : « خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » فيجعل خلق الإنسان على صورته التى هو عليها جزءاً من الحق الذى خلقت به السماوات والأرض . كما يربط فى آية الجاثية بين خلق السماوات والأرض بالحق ، وجزاء كل نفس بما كسبت : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون » . فيجعل الجزاء الأخروى جزءاً من الحق الذى خلقت به السماوات والأرض . كما جعل الرجعى إلى الله حقاً ينفى به عن الله سبحانه وتعالى العبث فى الخلقة : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » . وبذلك يكون الإنسان منذ نشأته إلى رجعته ، إلى توفيته الجزاء يوم الجزاء ، قائماً بالحق فى كل مرحلة ، محاطاً بالحق فى كل خطوة ، لا باطل فى خلقته ولا عبث ولا لهو ولا انحراف .

هذا المعنى عميق جداً فى بناء الفكرة الإسلامية . والقرآن لا يزال يلح

---

(١) سورة الجاثية (٢٢) . (٢) سورة التغابن (٣) .
(٣) سورة المؤمنون (١١٥)

فى توكيده ، والتوقيع على الحس البشرى ليتنبه إليه . . إنه أساس العقيدة الذى تنشأ عليه الحياة .

الحق فى السماوات وفى الأرض وفى الناس والحياة .

والقرآن ذاته هو الحق . ونزل بالحق .

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »[1] .

وفى هذا الجو المشبع « بالحق » يربى الإسلام النفس البشرية ، فيعمق فى شعورها الإحساس بالحق حتى يصبح هو العقيدة ويصبح هو الحياة .

إنه لا شىء يحدث باطلا ، ولا شىء يحدث اعتباطاً . كل شىء بالحق . . ولقد يعجز الذهن البشرى أحياناً عن أن يحيط ببعض الحقائق التى تصادفه فى حياته فيضل . يضل فيظن أن الحياة باطل وكل شىء فيها عبث لا حكمة فيه . . ومن ثم تتشتت روحه وتنفجر وتتناثر ، وتفقد « الحق » الذى يسيّر كيانها . . فتضيع .

وكأيٍ من روح ضالة أضلها هذا الوهم وشردها وشتت كيانها ، فعاشت بلا هدف . شقية معذبة . لا هى تصل إلى غاية ، ولا هى تقدر على إنتاج مفيد .

وكأيٍ من روح ضالة أضلها هذا الوهم فغرقت فى الشهوات ، تُغْرِق فى كأسها المدنس شقوة العذاب .

وكأيٍ من روح ضالة أضلها هذا الوهم فطغت وتجبرت وراحت تنشر الفساد فى الأرض ، والمظالم فى الناس .

وألوان من الضلالات شتى ، منبعها كلها هذا الوهم الباطل : أن الحياة بلا غاية والكون بلا ناموس !

---

(١) سورة الإسراء (١٠٥) .

من أجل ذلك يهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بلفت الحس البشرى إلى «الحق» فى السماوات والأرض والحياة والإنسان . ويجعل التدبر فى هذا الأمر جزءاً من العقيدة ، تقوم به القوة الواعية فى الإنسان . وتقوم به فى جو من إشراقة الروح ، حتى لا تذهب بددا وتتيه فى الظلمات :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ماخلقت هذاباطلا . سبحانك . فقنا عذاب النار»[1] .

فأولو الألباب « يتفكرون » . يستخدمون قواهم الواعية فى تدبر آيات الله فى الكون وتأملها . ولكنهم لا يتفكرون فكراً مجرداً ذاهلا عن الواقع المحسوس ، هنالك فى الأبراج العاجية ، حيث لايصلون إلى شىء . ولا يتفكرون كذلك بمعزل عن الله ، فيضلوا ؛ إنما يتفكرون وهم يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم . ومن ثم يتصل الفكر عندهم بالله ، ويتصل « العلم » كذلك بالله[2] . وهم لا يتفكرون فى الله وآياته هكذا بلا هدف . وإنما هم يصلون إلى هدفهم سريعاً : « ربنا ما خلقت هذا باطلا » . فيعرفون لتوّهم أنه الحق . ويلاحظ أن الآية لم تفصل بين التفكر وبين نتيجة التفكر ، ولا حتى بكلمة « يقولون » : « ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا » . فكأنما التفكر ونتيجته شىء واحد متصل متلاحق سريع . ثم هم لايقفون عند النتيجة « الذهنية » التى انتهوا إليها من التفكر « وعرفوها » . لايقفون عند المعرفة فى ذاتها بلا غاية . فالمعرفة ما لم تؤد إلى شىء . . ما لم تؤد

---

(١) سورة آل عمران (١٩٠ — ١٩١) .
(٢) انظر فصل « طلب العلم فريضة » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

إلى غاية فى حياة الإنسان . . فوجودها وعدمها سيان . وإلا فكم من حقيقة «موجودة» فى الكون . ولكنها ليست موجودة بالنسبة للإنسان ، حتى يتفاعل معها ، وينتج عن تفاعله معها شيء ما فى حياته الواقعية على الأرض . . لذلك لا يقفون عند المعرفة الذهنية ، وإنما تتحرك فى الحال قلوبهم وأرواحهم بالتسبيح : « ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك » .

ثم لا يقفون عند التسبيح المجرد . . لا يقفون عند مجرد الاعتقاد فى الله وتسبيحه . إنما هم يصلون من ذلك إلى الإيمان الكامل الذى يشمل الحياة كلها والأعمال والمشاعر والأفكار . يصلون إلى المنهج الإيمانى الذى يعيشون به على الأرض ، وينفذونه فى واقع الحياة ، ويجاهدون فى سبيله :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك . فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته . وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم ، فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم : أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . بعضكم من بعض . فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب »[1] .

إن هذه الآيات هى المنهج الكامل للتأمل الإسلامى فى ملكوت الله . وهى التوجيه الذى يوجه العقل فى أول مهمة من مهامه : مهمة تدبر آيات الله فى الكون .

---

(١) سورة آل عمران (١٩٠ ــ ١٩٥) .

إنها تبدأ بالتفكر وتنتهى بالعمل .. العمل بمقتضى الدستور « الحق » الذي نزل به القرآن .. والجهاد في سبيل إقرار هذا الدستور ، وتسيير دفة الحياة على نهجه وشريعته . ثم تصل إلى الغاية القصوى . تصل إلى الجزاء في الآخرة ، فتصل الأرض بالسماء ، والدنيا بالآخرة . وتصل البَشَر بالله .

منهج مذهل في دقته وتكامله وروعة توجيهه .. كله في ست آيات !

وحين يقيس الإنسان هذا اللون من التوجيه للطاقة العقلية في تدبر حكمة الله وتدبيره ، بالفلسفة قديمها وحديثها ، والمماظلات الذهنية المنبثة في تضاعيفها ، يدرك في الحال عظم الفرق ، وعظمة المنهج الإلهي في تربية العقل البشرى . ويعلم أنه سبحانه خلق كل شيء بالحق . وجعله منهجاً لإقامة الحق في الحياة .

* * *

وقد كان العقل الأوربى قد شطح وهو يبحث في آيات الكون حتى زعم أن الكون بلا خالق ، وأنه حدث مصادفة ، وأنه لا قاعدة له ولا ناموس !

ثم فاء أخيراً إلى الحقيقة . فاء إلى شيء من « الحق » الذي خلقت به السماوات والأرض والحياة والإنسان . وبدأ علماء الغرب يعرفون أنهم كانوا خاطئين في شطحتهم ، مبتعدين عن العلم الصحيح .

يقول ا . كريسى موريسون في كتاب « العلم يدعو للإيمان » :

« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون » .

« إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابى في كل وحدة للعلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون — التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون —

إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة ، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهريا . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى . وإن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة » .

أما الفكر الإسلامى فلم يكن فى حاجة إلى هذه الشطحة وهو يتأمل ملكوت الله ، أو يبحث فى العلوم المختلفة نظريها وتجريبيها ، يوم كانت أوربا ما تزال غارقة فى الظلمات ، لأنه يفكر مهتديا بالله ، ويفكر بعقله المستضىء بإشعاع الروح[1] .

* * *

ويوجه الإسلام الطاقة العقلية إلى النظر فى حكمة التشريع :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »[2] .

« وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون »[3] .

« يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما . ويسألونك ماذا ينفقون . قل : العفو . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »[4] .

« الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح

---

(١) طلب العلم فريضة ، قبسات من الرسول . (٢) سورة البقرة (١٧٩) .
(٣) سورة البقرة (١٨٤) . (٤) سورة البقرة (٢١٩) .

زوجا غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله. وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون »[1] .

« وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »[2]

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . وليكتب بينكم كاتب بالعدل . ولا يأب كاتب أن يكتب. كما علمه الله فليكتب. وليملل الذى عليه الحق . وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء : أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا . ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله. ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا . إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم . واتقوا الله . ويعلمكم الله . والله بكل شيء عليم »[3] .

« حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم،

---

(١) سورة البقرة (٢٣٠) . (٢) سورة البقرة (٢٤٠ – ٢٤١) .

(٣) سورة البقرة (٢٨٢) .

وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قدسلف ، إن الله كان غفوراً رحيماً، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . كتاب الله عليكم . وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فااستمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة . ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليماً حكيماً . ومن لم يستطع منكم طَولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات — والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض — فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم »[(1)].

« ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون »[(2)].

« وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين »[(3)]

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[(4)]

الخ . . الخ .

* * *

(١) سورة النساء (٢٣ ــ ٢٦) (٢) سور المائدة (٨٩)
(٣) سورة الأنعام (١١٩) . (٤) سورة الجمعة (٩) .

إن التشريع منزل من عند الله . ولكن القائمين به هم البشر . وينبغى أن يكون البشر واعين لحكمة التشريع ، وإلا فلن يطبقوه على تمامه ، ولن يطبقوه على وضعه الصحيح .

إن الحياة لاتسير آلية بحيث تنطبق عليها القاعدة التشريعية انطباقاً آلياً. وإنما هناك مئات من الحالات للقاعدة الواحدة . وما لم يكن الإنسان فاهما للحكمة الكامنة وراء التشريع ، وفاهما لترابط التشريعات فى مجموعها ، فلن يتمكن من تطبيقها فى تلك الحالات المختلفة التى تعرض للبشر فى حياتهم الواقعية . وقد عنى القرآن كما هو ظاهر من آيات التشريع التى أوردناها بأن يوقظ العقل البشرى لتدبر هذه الآيات ، وفهمها ، ووعيها ، حتى يستطيع تطبيقها على خير وجه . وهناك كثير من آيات التشريع الأخرى فى القرآن ، لايرد فيها التوجيه الصريح بالتدبر والتفكير ولكنها محمولة على هذا الأمر العام ، الذى يدعو العقل للفهم والتبيّن ، قبل التطبيق والتنفيذ .

وقدشهد الواقع الإسلامى جهداً ضخما فى ميدان الفقه ، يعتبر تراثاً إنسانياً خالداً . والكثير من هذا الفقه قد بقى حياً إلى هذه اللحظة ، رائعا بعمق مافيه من استدلال . وقد كان انطلاق الفكر الإسلامى فى هذا الميدان صدى للتوجيه القرآنى الحكيم ، بتدبر الآيات وتعلمها ، والنهى عن الخوض فيها بغير عدتها الواجبة لها من العلم والتبيّن والتفكير .

ومنذ العصر الأول ظهرت — حتى فى التشريعات التفصيلية الثابتة المحكمة — حالات تستدعى إعمال الفكر ، وفهم الحكمة ، وفهم الترابط العام بين جميع التشريعات . ومن ذلك عدم تطبيق عمر لحد السرقة على الفتيان الذين سرقوا ناقة ابن حاطب بن أبى بلتعة ، لأنه اعتبر الجوع الذى يقاسونه شبهة

تدرأ عنهم الحد وقال : « والله لولا أننى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه لحل له، لقطعت أيديهم » وكانت حكمته فى هذا التصرف مستمدة من وعيه بحكمة التشريع الإلهى فى مجموعه . التشريع الذى يجعل ولىّ الأمر مسئولا عن كفاية الفقراء وإتاحة الحياة الكريمة لهم ، قبل مطالبتهم بالتزام الفضيلة ، وقبل معاقبتهم حين ينحرفون .

ومن جانب آخر فإن التشريعات المتعلقة بأمور متغيرة فى الحياة البشرية، وهى سياسة الحكم وسياسة المال قد اقتضت حكمة الله فيها أن يشمل التشريع الأسس والمبادىء دون التفصيلات والأشكال ، لأن أية تفصيلات وأية أشكال ستكون موقوتة بفترة معينة ، بينما الأسس والمبادئ هى الإطار الذى ينبغى أن تسير الأمور فى حدوده ، متجددة بتجدد كل عصر ودرجته من العلم ، ودرجته من التفاعل مع الكون المادى ، وصورة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ملتزمة مع ذلك بهذا الإطار العام لا تخالفه ولا تخرج عنه . فى سياسة الحكم مثلا ورد أساسان شاملان هما العدل والشورى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[1] «وأمرهم شورى بينهم»[2]. ولكنه لم يبين أى طريقة تكون عليها الشورى. أهى مجمع من رؤساء القبائل والعشائر ؟ أم مجلس برلمانى . منتخب أو معين . أم مجلسان . أم .. أم .. لأن هذه صورة متغيرة بتغير صورة المجتمع وإمكانياته . وجاء فى سياسة المال : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » فقرر كراهية حصر المال فى يد فئة قليلة يتداولونه بينهم وبقية الأمة محرومة منه . أما طريقة اشتراك الأمة فى الخير المشترك فقد تركها لكل جيل يصوغها فى الصورة التى تلائم ظروفه وعلمه وإمكانياته ، بحيث لا يخرج على تلك القاعدة الكبيرة ، فلا يلجأ

---

(١) سورة النساء (٥٨) (٢) سورة الشورى (٣٨)

مثلا إلى الإقطاع أو الرأسمالية كما فعلت أوربا . ولا يلجأ لنزع الملكية جميعاً كما صنعت الشيوعية[1] .

ولهذا وذاك طلب يقظة الإنسان لحكمة التشريع الإلهى ، ووعيه وتدبّره ، ضماناً لسير الأمور فى الأرض على نهج من العدالة والحق المستمدين من العقيدة فى الله .

ولكن ينبغى لنا أن نلاحظ كيف امتزج التشريع دائماً بالتوجيه إلى الله. لا تكاد تخلو آية تشريعية فى القرآن كله من ذكر الله ، والتوجيه إلى خشيته، والترغيب فى مثوبته ورضاه .

لقد كان من مزايا هذه العقيدة الكبرى أنها أطلقت العقل البشرى يعمل فى أوسع نطاق متاح على الأرض ، ولم تغلق عليه الأبواب أو تجمده فى قوالب مصبوبة لا فكاك منها . وكان من آيات الإسلام الكبرى أنه فى دعوته إلى الإيمان بالله لم يقهر العقل بالخوارق القاهرة التى يعنو لها الفكر ، ولا بأسرار لا حيلة له فيها ولا اختيار . بل خاطبه ووعّاه وأيقظه وناقشه . وجعله يشترك فى عملية الإيمان الواعية ، الجديرة بالإنسان الذى كرمه الله بالأفئدة والأبصار.

ولكنه كما قلنا من قبل لم يدعه يحمل العبء الثقيل وحده فلاينهض به . وإنما أعطاه دائماً إشعاعة من قبس الروح المضيئة تضىء له الطريق ، وزوده دائماً بنور الإيمان . وكان فى ذلك ملبياً لطبيعة الفطرة . ملبياً لحقيقة الكيان البشرى الذى لا تنفصل فيه طاقة عن طاقة ، ولا جزء عن بقية الأجزاء .

وكما أطلقه من قبل يتدبر آيات الله فى الكون ، ليهتدى إلى « الحق » فى خلق السماوات والأرض والحياة والإنسان ، ويعمل بمقتضى هذا الحق ،

---

(١) انظر فصل « أنتم أعلم بأمور دنيا كم » فى كتاب « قبسات من الرسول »

ويجاهد فى سبيل إحقاقه ، فكذلك يطلقه هنا يفهم حكمة التشريع ليهتدى إلى ذلك « الحق » فيعمل بمقتضاه .

ومن هنا يمتزج التشريع بالتوجيه ، وتمتزج الأحكام بالتقوى التى تضىء الوجدان .

ولم يكن ذلك تلبية لفطرة النفس الداخلية فحسب ، بل كانت كذلك خير سياسة تضمن سير الأمور فى المجتمع بدافع من الرغبة لا بدافع الخوف من العقاب .

لقد شرعت العقوبات لضمان تنفيذ الحد الأدنى من التشريع الذى لا يقوم المجتمع بدونه . ولكن ذلك لم يكن كل هدف الإسلام . فهو يكفى لحفظ المجتمع من السقوط ، نعم . ولكنه لا يكفى لترقية المجتمع وحثه دائماً إلى الأمام . فهذا أمر تقوم به الرغبة المنبعثة من داخل الضمير . الرغبة النبيلة المتطوعة التى لا تبحث عن حدود القانون لتقف عندها ملقية أثقالها ، نافضة يديها . وإنما تبحث عن الآفاق العليا تحاول الصعود إليها ، وتجد لذتها فى ذلك الصعود . وهذا لا يجىء بالتشريع . وإنما يجىء بالتوجيه . توجيه القلب إلى الله ، ووصله به والتطلع إلى رضاه .

وهما أمران متلازمان .. الحد الأدنى المفروض ، والحد الأعلى المطلوب . . ومن ثم تلازم التشريع والتوجيه فى القرآن ، وامتزجا فهما شىء واحد عسير التفريق !

* * *

ويوجه الإسلام الطاقة العقلية كذلك لضمان سير الأمور فى المجتمع على منهج صحيح .

إنه لابد للمجتمع من سياسة . سياسة ينفذها الحاكم والشعب ، على التشاور

بينهما والتضامن و « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »[١] .

وما لم تكن هذه السياسة واعية ، فإن الفساد يتطرق المجتمع ، وتنهار الدولة ويستولى عليها الأعداء .

وكل فرد فى الأمة المسلمة مطالب بالرقابة على المجتمع ، مسئول عن كل ما يقع فيه ، وإلا أصابه جزاء غفلته ولو لم يكن هو ذاته من الظالمين : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »[٢] . وإنما تصيبكم جميعاً جزاء قعودكم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون »[٣] . « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه . وهو أضعف الإيمان »[٤] . « إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم »[٥] .

هذا التكافل فى المجتمع ، والرقابة على سير الأمور فيه ، يقتضيان وعياً كافياً ويستلزمان عقولا ناضجة . ولابد من توجيه الطاقة العقلية للعمل فى هذا الميدان ، فهذا هو الضمان لحسن سير الأمور .

والقرآن يوجه المسلمين فى ذلك توجيهات شتى . فهو مرة يبصّرهم بأعدائهم الذين يتربصون بهم لِيَحْذَرُوهُم ، ويكونوا على الدوام متيقظين لهم واعين لمؤامراتهم ودسائسهم . وتارة يوجههم لطريقة تلقى الأنباء والتصرف فى الأمر حين تشيع

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة الأنفال (٢٥)
(٣) سورة المائدة (٧٨ — ٧٩)
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه ابن ماجه وابن حبان .

الشائعات حول أمر من الأمور . وتارة يوجههم إلى حسن الحكم على الأشياء والأشخاص ، وعدم التسرع في إصدار حكم على أمر لم تتبين كل خطوطه . وتارة يوجههم لطاعة أولى الأمر في حدود طاعة هؤلاء لله والرسول .. وهكذا .. وهكذا :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر . قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط »(١) .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »(٢) .

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا »(٣) .

« فما لكم فى المنافقين فئتين ؟ »(٤) .

« قل : لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث . فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون »(٥) .

---

(١) سورة آل عمران (١١٨-١٢٠)
(٢) سورة النساء (٥٩)
(٣) سورة النساء (٨٣)
(٤) سورة النساء (٨٨)
(٥) سورة المائدة (١٠٠)

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[1] .

ويلاحظ فى هذه الآيات والكثير غيرها مما يجرى مجراها ، ما لاحظناه من قبل من أن كل توجيه تنظيمى يصحبه ويلزمه التوجيه إلى الله والدعوة إلى تقواه . وهذا عدا التوجيهات الإيمانية الأخرى فى هذا الموضوع بالذات . التوجيهات التى ترد القيم الاجتماعية كلها إلى الله ، والإيمان بالله ، وتجردها من كل قيمة زائفة من قيم الأرض ، سواء كانت هذه القيمة سلطاناً عاتياً فى الأرض ، أو جاهاً كاذباً ، أو مالاً يفتن عن الإيمان ، أو ترفاً يفسد النفس ويفسد العزيمة ، أو إشراكاً بالله قوة من قوى الأرض الهزيلة الفانية .. وذلك كثير جداً فى تضاعيف القرآن ، تستخدم له كل وسائل البيان من موعظة مباشرة ، إلى أمر ، إلى نهى ، إلى قصص تمثيلى ، إلى قصص واقعى . وكلها تهدف إلى هدف واحد : هو إيقاظ القلب البشرى للقيم الحقيقية الواجبة الاحترام الجديرة بالاتباع ، وإيقاظ العقل لتدبر هذه القيم ووزن الأمور وزنها الصائب ، لتسير الأمور فى المجتمع على هذا النور ، ولا ينخدع الناس بالقيم الزائفة فينحرفوا عن سبيل الله ، ولا تفتنهم قوة زائلة أو جاه زائف أو مال فاتن أو شهوة مندفعة ، عن المصلحة الاجتماعية الحقيقية المتمثلة فى توجيه الله ومنهج الله .

* * *

ويوجه القرآن الطاقة العقلية إلى النظر فى سنة الله فى الأرض وأحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ .

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

(١) سورة الحجرات (٦) .

المكذبين . هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين »(١) .

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين »(٢) .

« قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(٣) .

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها. وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »(٤) .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »(٥) .

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »(٦) .

« ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء . يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون »(٧) .

---

(١) سورة آل عمران (١٣٧ — ١٣٨) (٢) سورة الأنعام (٦) .
(٣) سورة الأنعام (١١) . (٤) سورة الأعراف (١٣٦ — ١٣٧).
(٥) سورة الأعراف (٩٦) . (٦) سورة يونس (١٣ — ١٤) .
(٧) سورة هود (١٨ — ٢٠) .

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا . أفلا تعقلون ؟ »[1] .

« ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور »[2] .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[3] .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين »[4] .

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »[5] .

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[6] .

---

(١) سورة يوسف (١٠٩) . (٢) سورة الحج (٤٠ — ٤١) .
(٣) سورة النور (٥٥) . (٤) سورة النمل (٦٩) .
(٥) سورة القصص (٤ — ٦) . (٦) سورة الروم (٩) .

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ؟ كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واقٍ »[1] .

* * *

هذه الدعوة المتكررة تلفت النظر ولاشك . إنها دعوة تلح على الناس أن ينظروا فى تاريخ من قبلهم ، ويدرسوا عوامل الفناء والبقاء فى المجتمعات ، دراسة واعية متفتحة بصيرة مُعْتَبِرَة .

إنها ليست دعوة « لحفظ » التاريخ من أجل الامتحان فيه آخر العام ! وليست دعوة للتفكه بدراسة التاريخ والتظاهر بالعلم ! إنها دعوة للنظر والاعتبار. دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة . دعوة ذات منهج مرسوم .

إن تاريخ الأمم وحياة المجتمعات فى نظر الإسلام — وهو كذلك فى واقع الأمر — ليس أطوارا متعاقبة بغير معنى ، ولا هدف ، ولا غاية ، ولانظام معروف . إنها تتبع سنة معينة . « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »[2] . سنة الله التى تعمل بما أودعه الله فى الإنسان من طاقات واستعدادات ، وما أعطاه من قدرة على الاختيار بين أحد طريقين : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[3] .

إنهما طريقان لا ثالث لهما : الهدى أو الضلال . الاهتداء بما أنزل الله على عباده من منهج ، وما وجههم من توجيه ، أو الانحراف عن طريق الله

---

(١) سورة غافر (٢١) .
(٢) سورة الأحزاب (٦٢) انظر « معركة التقاليد » فصل حقائق وأباطيل .
(٣) سورة الشمس (٧ — ١٠) .

الواضح المبين . . الهدى يتبعه الخير والبركة والتمكين فى الأرض . والضلال يتبعه الفساد والضعف والانحلال والفناء ، ولو ظل الباطل يقاوم ويعاند ، ولو ظل متماسكا فترة من الوقت يبهر الأنظار .

وليس للبشرية فى تاريخها كله سوى أحد هذين الطورين المتغايرين . . مهما بدا فى الظاهر من « تطور » ، وتغير ، وانتقال .

ليست العبرة بالقوة المادية : « كانوا هم أشد قوة وآثارا فى الأرض » . ليست بإثارة الأرض واستغلال مواردها . ليست بالتمكين المادى : « كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » . ليست بتغير وسائل الإنتاج . ليست بأى شىء يقع خارج النفس . . إنما العبرة بالنفس من داخلها . مهتدية أم غير مهتدية . مستغلة لقوى الأرض المادية فى سبيل الخير أم فى سبيل الشر .

إن التفسير المادى للتاريخ ليبدو فى نظر الإسلام — وكذلك فى الواقع — قزما ضئيلا يمسك فى يده مفتاحا كلعب الأطفال يحاول به أن يفتح الباب الضخم . . باب التاريخ ! إنه يغفل الحقائق الكبرى ويهتم — كالأطفال — بالبريق الظاهر ، ويقصر همه على ظواهر الأشياء .

إنه يغفل حقيقة بديهية هى أن وسائل الإنتاج المادى لم تكن قط هى المُقَرِّرَ لوقائع التاريخ . إنما طريقة استخدام وسائل الإنتاج ، والروح التى تستخدم بها ، هى التى تقرر وقائع التاريخ !

فى عهد « الزراعة » وجد الإقطاع فى أوربا ولم يوجد الإقطاع فى الإسلام . لأنه لم تكن فى أوربا عقيدة هادية فى توزيع المال على الناس . وكانت

فى الإسلام عقيدة هادية تأمر بتوزيع المـال على الجميع « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(١) فلم يوجد قط الفلاح المستعبد للأرض ، الذى يباع معها و يُمتلك معها ، ولا يستطيع مغادرتها وإلا أمسك به القانون ورده لصاحبه يفعل فيه ما يشاء !

فى عهد «الصناعة» وجدت الرأسمالية والشيوعية متجاورتين فى الأرض ، وكل منهما له طريقته فى التوزيع !

وفى كل عهد يمكن أن يستخدم الشىء الواحد ذات اليمين وذات الشمال ، بحسب ما « يعتقد » الناس أنه الحق . أو بحسب ما تجرفهم إليه الشهوات والأهـواء .

وليست «الأطوار» التى يرسمها التفسير المادى للتاريخ إلا أطوار الحضارة المادية فى الأرض . ولـكنها ليست أطوار التاريخ ، ولا أطوار الإنسان . فقد كان الإنسان مهتديا فى كل عصر من عصور التاريخ ، وكان ضالا فى كل عصر من عصور التاريخ ، فلم يقيده شىء من الأطوار المادية بهدى أو ضلال . ولم يرسم له التقدم المادى طريقا معينة يتحتم عليه المسير فيها ، ولا كانت لهذا التقدم فى ذاته دلالة معينة فى خط سير البشرية . وأوضح الأمثلة على ذلك هذا العصر الذى نعيش فيه . العصر الذى وصل فيه التقدم العلمى والمادى إلى ذروته ، ووصلت الإنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشى والتخاصم الذى يقطّع أواصر الإنسانية ويجعلها تعيش فى رعب دائم وخوف من الدمار ، كما وصلت إلى الحضيض فى تصورها لأهداف الحياة وغاية الوجود الإنسانى وحصرها فى اللذة والمتاع ، وانحطاطها — تبعا لهذا التصور — إلى أحط دركات الانحلال الخلقى والفوضى الجنسية التى يعف عنها الحيوان(٢) !

---

(١) سورة الحشر (٧)

(٢) انظر « معركة التقاليد » .

والإسلام يوجه القلب البشرى أن يفتح بصيرته على عوامل التطور الحقيقية فى المجتمعات ، ويستخدم طاقته الواعية فى تدبرها والبحث فى أسبابها ونتائجها ، بما يعرض عليه من الأمثلة التاريخية المتعددة التى تحققت فيها سنة الله الخالدة : سنة التمكين للمؤمنين — حين يؤمنون الإيمان الحق — والتدمير على الكافرين ولو استكبروا بباطلهم بعض الوقت وعتوا فى الأرض مفسدين . سنة دائمة لا تتغير . النصر للإيمان . والخذلان للكفر . وإن بدا فى لحظة من اللحظات أن الواقع هو النقيض !

إن القرآن يوجه القلوب والعقول ألا تستعجل النتائج . فهى لا بد آتية حسب السنة الماضية التى لا تتبدل . وأعمار الأفراد ليست هى المقياس . والجولة العارضة ليست هى الجولة الأخيرة . قد ينتصر الباطل فترة من الوقت ويزدهر ويتمكن ويعلو فى الأرض .. ولكن هذا ليس نهاية القول ولا نهاية المطاف . إنه جزء من سنة الله المتشعبة الجوانب . قد يكون لأن الناس ضعفوا واستكانوا ولم يطلبوا التغيير : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) . وقد يكون لأنهم استطابوا الظلم : « كيفما تكونوا يولّ عليكم »(٢) . وقد يكون فتنة للذين ظلموا « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة »(٣) وقد يكون الله يريد أن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمكن واستعداد : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »(٤)

---

(١) سورة الرعد (١١) (٢) رواه الحاكم .
(٣) سورة النحل (٢٥) . (٤) سورة آل عمران (١٣٩ — ١٤١) .

وقد يكون . . وقد يكون . . ولكن السنة دائماً واحدة لا تتبدل . ماضية لا تتخلف ولا تنحرف عن السبيل .

ومن ثم فالمسلمون مطالبون بدراسة التاريخ وتأمله ليحفظوا هذه العبرة وليفيدوا منها فى تصحيح منهجهم والاهتداء به إلى سواء السبيل .

ومنهج التاريخ الإسلامى وعلم الاجتماع الإسلامى من ثم يفترقان عن منهج التاريخ ومنهج الاجتماع الأوربيين فى الوقت الحاضر افتراقا أساسياً لا يمكن إغفاله . فهو ينبغى أن يكتب وأن يدرس على أساس هذين الخطين الرئيسيين فى حياة البشرية : الاهتداء بهدى الله والانحراف عن سبيل الله ، وأثر كل منهما فى واقع التاريخ . وهو ذات العنصر الذى تغفله أوربا عمدا ، وتروح تدرس ظواهر الأشياء المنقطعة عن الحقائق الأصيلة فى سنة الله وواقع التاريخ !

* * *

ثم يوجه العقل البشرى إلى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان.

« كلوا من طيبات ما رزقناكم »[1] .

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] .

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش »[3] .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم »[4] .

إلخ . . إلخ . .

يوجهه إلى استخلاص الطاقة المادية وقد وجهه من قبل إلى تدبر حكمة الله فى الخلق ، وأنه سبحانه خلق السماوات والأرض « بالحق » . ووجهه إلى حكمة

---

(١) سورة الأعراف (١٦٠)
(٢) سورة الملك (١٥)
(٣) سورة الأعراف (١٠)
(٤) سورة الأنبياء (٨٠)

التشريع وأنها إقامة العدل والحق بين الناس فى الأرض . ووجه إلى طريقة إقامة المجتمع الصالح وأنها إطاعة الله ورسوله ، وإطاعة أولى الأمر فيما يهتدون بهدى الله ورسوله . ووجهه إلى سنة الله الماضية فى الأمم على مدار التاريخ ، وأنها التمكين لمن يؤمنون بالله ويستخدمون مواهبه ونعمه فى سبيل الخير « ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »[1] والذل والهوان للذين يكفرون بالله ويستخدمون مواهبه ونعمه فى الفساد فى الأرض : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2] . فهؤلاء دمر الله عليهم حين لم يرعوا نعمته وكذبوا بآياته ، وما كانوا فى هذا التدمير مظلومين .

ويوجهه إلى استخلاص الطاقة المادية وقد وجه روحه من قبل إلى الارتباط بالله وخشيته وتقواه . . ومن ثم يعمل العقل البشرى فى استخلاص هذه الطاقة غير مفتون بها ، ولا شاعر بأنها خلاصة الحياة وجوهرها الأوحد . فينتفع بثمارها وهو مالك لأمره منها ، غير مستعبَد لها ولا منجرف فى طريقها .

وتلك نقطة حاسمة فيما بين الإسلام وغيره من النظم والعقائد والأفكار .

إن الإسلام لا يهمل واقع الأرض ولا يهمل عالم المادة . والتاريخ هو الدليل .

لقد نشأ الإسلام فى البادية العربية ، فى بلاد لا تعرف من الحضارة

---

(١) سورة الحج (٤٠ – ٤١)   (٢) سورة الروم (٩)

المادية إلا القليل الذى يهبط عليها من أصقاع الأرض مع القوافل الغادية والرائحة. ولا تهتم هى إلا بالشعر والحروب القبلية . . لا تفكر فى علم ولا اختراع ولا بحث تجريبي ولا تفكير نظرى.. ولكن الإسلام بعثها بعثاً عنيفاً متدفقاً كأنما هى سيل يتحدر من ارتفاع شاهق فيملأ السهول والوديان . . بعثها فإذا هى تنشط فى كل ميدان من ميادين النشاط البشرى: فى العلم والعمل . فى الحرب والسياسة . فى الفقه والتشريع .. وما أسرع ما وقع المسلمون على علوم الإغريق والمصريين والهنود، من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ورياضيات ، فنهلوا منها فى نهم ، وانطلقوا يضيفون فى كل فرع منها إضافات حية أصيلة ، تقدمت بالمعرفة الإنسانية أشواطا هائلة وعاها التاريخ ، ووعتها أوربا بصفة خاصة ، إذ قامت كل نهضتها الحديثة عليها ، وإن كانت الخسة قد أدركتها ، فتنكرت للمسلمين الذين تتلمذت على أيديهم فى الأندلس وغير الأندلس ، وراحت تحاربهم وتجليهم من الأرض ، ثم تستعمرهم أبشع استعمار .

والمذهب التجريبي الحديث ، الذى قام عليه كل « العلم » الأوربى ، هو — باعتراف الأوربيين أنفسهم — تراث إسلامى أصيل . يقول هـ . ر . جب فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » :

« أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوربا فى العصور الوسطى » . وفى ذلك الاعتراف ما يكفى لإثبات جهد المسلمين الملموس فى ترقية العلوم — نظريها وتجريبيها — وقت أن كانوا مسلمين .

ولكن هذا التقدم المادى — الذى قطعوا فيه أشواطاً عظيمة — لم يفتنهم

قط ولم يخرج بهم عن إنسانيتهم ! وتلك مزية الإسلام !

إن المسلمين لم يفتنهم التقدم المادى فينقطعوا عن الله ومنهجه وعبادته والسير على هداه .

لم يفتنهم فينقطعوا عن عالم الروح .

ولم يفتنهم فيستغلوا علمهم فى سبيل الشر .

لم يفتنهم فيحولهم إلى المادية الكريهة التى تسيطر اليوم على الغرب .

لم يفتنهم فينبذوا أخلاقهم جانباً بحجة أنهم « تقدميون » !

بل سار العلم فى ظلال العقيدة يكشف ويصل كل يوم إلى جديد ،وهو ماض فى طريق الخير ، لأنه سائر فى طريق الله[1] .

* * *

ليس فى حياة المسلمين تلك النفرة الكريهة بين الدين والعلم . ولا بين البشر والله .

ولقد أثرت فى لا شعور الأوربيين تلك الأسطورة اليونانية النكدة ، أسطورة بروميثيوس سارق النار، فشكلت مشاعرهم تجاه الله سبحانه،وانحرفت بهم عن نهجه وهداه .

« هذه الأسطورة تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد . علاقة لا ترف فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة . . ولا يهدأ أوارها حتى يشتعل من جديد .

« والمعركة قائمة على النار المقدسة: نار « المعرفة » . البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ليعرفوا أسرار الكون كلها ويصبحوا آلهة .والآلهة تنكل بهم

(١) انظر فصل « طلب العلم فريضة » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان !

« تلك إذن هى طبيعة العلاقة بين البشر والله ! العلاقة التى اندست فى أوهام الأوربيين وصارت تصرف أفكارهم بغير وعى . العجز وحده هو الذى يخضعهم لمشيئة الله ! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكنين عنه . فهم فى محاولة دائمة يطلبون « القوة » ويطلبون « المعرفة » . يحاولون دائماً أن يقهروا هذا العجز . أو يقهروا — بلغتهم — قوة الطبيعة . أو — بلغتهم اللاشعورية أيضاً — ينتزعوا الأسرار ! ينتزعوها من الإله الوثنى القديم الذى كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة !

« وبهذا الدافع الخفى المطبوع فى أعماق النفس الغربية — فى أعماق اللاشعور — يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها « العلم » ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر !

« وتظل « المعركة » هكذا دائرة : كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان ، حتى تأتى اللحظة المرقوبة التى يتحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها . اللحظة التى «يخلق» فيها الإنسان الحياة ، ويصبح هو الله ! »[1]

هذه واحدة . .

وفى أوربا التى يسيطر عليها العلم المنقطع عن الله ، والمادة المنقطعة عن الروح ، أحدث التقدم المادى الضخم انقلاباً خطراً فى كيان الإنسان . انقلاباً أدى به إلى أن يكون آلة حيوانية تعمل كالآلات .

« وقد كانت « الآلة » — فى فترة طويلة من تاريخ البشرية — مصدر قوة سيكلوجية للإنسان .

---

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » فصل « طلب العلم فريضة » .

« كان هناك عامل مهم فى الموضوع . كان الإنسان هو الذى يدير الآلة ! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة . وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه . ومن ثم فهو المسيطر ، وهو صاحب السلطان .

« ولـكن الآلة تطورت بعد ذلك .

« لم تعد آلة يدوية ، يديرها الإنسان بيده ، ويشعر بالسلطان عليها ، إن شاء وقفها ، وإن شاء أطلق لها العنان .

« لقد تضخمت حجماً حتى صار الإنسان بجوارها جرما صغيراً لا يكاد يبين .

« وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل . ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد .

« وتغير موقفه منها تغيراً كاملا داخل المصنع .

« فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده ، أو بالإشراف على آلته وتوجيهها ، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل . وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة . ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه ، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التى تبتلعها فى طرفة عين وتطلب المزيد .

« وهنا حدث انقلاب كبير فى سيكلوجية الإنسان .

« فقد أخذ رويداً رويدا يفقد سيطرته على نفسه ويفقد فى الوقت ذاته إنسانيته .

« لقد توغل شبح الآلة الضخمة فى أعماق حسه ، وصارت هى القوة القاهرة التى تملى عليه إرادتها ، وتصرف حياته كما تريد .

« أحس الإنسان بالضآلة فانكمش داخل نفسه . انكمشت مشاعره الحية ورفرفاته المضيئة . انكمشت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق .

« ورويداً .. رويداً تصلبت أنسجة نفسه وجفت ، فصارت كالآلة البليدة الصماء التي تسيطر على كيانه .

« وصارت حياته كلها روتيناً كروتين الآلة ! يبدأ في الصباح وينتهي في المساء .

« زرار واحد أو مجموعة أزرار تفتح في لحظة معينة مضبوطة كانضباط الآلة ، فتشتغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون . وتظل تعمل وتعمل وتعمل . . حتى يُدق لها الجرس . وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتدأ فجأة . يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار .

« ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يجيء عليها الدور .

« أو تقف خامدة بليدة بلا حراك .

« ولكن الدفعة الحيوية البشرية المكبوتة منذ الصباح لا بد أن تنطلق في صورة من الصور ، فهي لم تستهلك كلها في النشاط الآلي الجامد البليد .

« وإنها لتنطلق بالفعل . . انطلاق البهيمة حين تفك عنها القيود .

« فورة جسد هائم مجنون . . يهفو إلى جسد هائم مجنون .

« وتندفع الشحنة الحبيسة في متصرفها الحيواني ، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة ريثما تشحن في الغد بالطاقة المكبوتة التي تبحث عن التفريغ .

« وتصبح كذلك حياة الإنسان : آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة ، أو اللمسات الدقيقة العميقة . لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير . . وحيوانية هابطة تستغرق ما بقي من النشاط المذخور .

« وبهذا وذلك يتوارى « الإنسان » ويحل محله الحيوان الآلى الذى يملأ وجه الأرض فى العصر الحديث »[1] .

وهذه واحدة .

ثم ذلك الصراع المجنون الذى يمارسه الغرب اليوم . الصراع على الكسب المادى والغلبة عليه . الصراع الذى يهدد وجه الأرض بالدمار .

وهذه وهذه وتلك كلها نتائج لانقطاع الصلة بين الدين والعلم ، وبين الإنسان والله .

ولذلك يحرص الإسلام أشد الحرص على ربط القلب دائماً بالله ، وتوجيه العقل — وهو يعمل فى استنباط الطاقة المادية فى الأرض — إلى حكمة الله من الخلق ، وآياته فى رحاب الكون .

العلاقة الدائمة بين العبد والرب فى الإسلام هى علاقة المودة والحب والتطلع والرجاء .

والبشر لايحتاجون إلى أن يصارعوا الله سبحانه ليحصلوا على المعرفة ، فهو قد أعطاها لهم واهباً منعما فياضاً بالإحسان . هو الذى وهب للناس « السمع والأبصار والأفئدة » وهو الذى « جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وهو الذى « رزقكم من الطيبات » وهو الذى « سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » وهو الذى « علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فالرد على هذه المواهب الجليلة كلها هو الشكر والعرفان ، والمودة والحب ، وليس العصيان والكفران .

والعلاقة بين العقل والروح قائمة أبداً لا تنفصم فى منهج الإسلام . ومن ثم

(١) من كتاب « فى النفس والمجتمع » فصل « الإنسان والآلة » .

لا يضل العقل – وهو يتعلم – ولا ينحرف عن طريق الخير . . ولا يستخدم معلوماته فى سبيل الشر .

والعلاقة بين الروح والمادة قائمة . . فلا تستعبد الإنسانَ المادة ، ولا يقع فريسة للآلة تستعبده وتسيطر عليه . إنه حافظ لكيانه المتكامل ، مستمد قوته من الله . ومن ثم يظل هو المسيطر وهو العنصر الإيجابى الفعال .

وتلك طريقة الإسلام فى تربية العقل . . « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »[1] .

---

(١) سورة البقرة (١٣٨) .

تربية الجسم

حين نتحدث عن الجسم فى مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب . وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم ، والمتمثلة فى مشاعر النفس . طاقة الدوافع الفطرية والنزوعات والانفعالات .. طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق .

ودون أن ندخل فى جدل مع علم النفس التجريبي الذى يقول إن النفس كلها ، بما فيها من مشاعر وأفكار وتصرفات إن هى إلا انعكاس الجسم بكيمياوياته وكهربياته ، ولا مع النظريات الفلسفية التى تقول إن الجسم مجرد وعاء للنفس . . تقول إن هناك اتصالاً وثيقاً بين النفس والجسم ، وتفاعلا مشتركا ، النفس تؤثر فى الجسم ، والجسم يؤثر فى النفس ، ولا انفصال بين هذه وذاك .

ولقد قدمنا فى الفصول السابقة أن الكائن الإنسانى وحدة متصلة مترابطة لا يمكن أن تحل إلى أجزاء . وإنما هى ضرورة البحث التى تملى علينا أن نتحدث عن كل جزء على حدة وإن لم يكن كذلك فى الحقيقة .

وهنا بصفة خاصة لا نستطيع أن نفصل بين النفس والجسم . لا نستطيع أن نتحدث عن نشاط جثمانى واحد لا يدخل فى نطاق النفس . السمع والبصر والذوق والشم واللمس كلها حواس . حواس جسمية . ولكنها لا تؤدى وظيفتها منفصلة عن الكيان النفسى كله . ولا يمكن الحديث عنها منفصلة إلا إذا تحدثنا عن تركيبها الفسيولوجى أو ذهبنا بها إلى الطبيب ليعالج ما طرأ عليها من اختلال

فى الوظيفة . ولكننا حين نتحدث عنها فى مجالها الحيوى الشامل ، نتحدث عنها كحاسة موصلة إلى غاية . موصلة إلى أثر نفسى معين يتحقق عن طريق استخدام هذه الحواس . فالرؤية ذاتها بلا وعى . والسمع ذاته بلا تدبر . والذوق والشم واللمس بلا انعكاس لها فى محيط النفس .. ليست هى الشيء الذى له قيمة فى حياة الإنسان ، ولا هى شيء يربى لذاته .

« ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[1] أى أن حواسهم لا تؤدى وظيفتها النفسية وإن كانت صحيحة التركيب من حيث هى حواس .

وكذلك عضلات الجسم وأحشاؤه وعروقه وأعصابه . إنها تركيب جسمى . نعم . ولكنها فى النهاية « طاقة حيوية » مجتمعة متحركة لغاية نفسية مرتبطة بها أشد ارتباط .

والإسلام فى تربيته للجسم والطاقة الحيوية يراعى الأمرين معاً . يراعى الجسم من حيث هو جسم ، ليصل منه إلى الغاية النفسية المرتبطة به . فحين يقول الرسول الكريم : « إن لبدنك عليك حقاً » : من إطعام وإراحة وتنظيف وتقويم ، فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة بالجسم كله ، ليأخذ « الإنسان » بنصيب من المتاع الحسى الطيب الحلال الذى أمر الله به فى توجيهاته الكثيرة : « ولا تنس نصيبك من الدنيا »[2] « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »[3] أى لغاية نفسية مقامة على قاعدة جسمية ؛ ثم ليوفر الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة ، وهى أهداف تشمل كل كيان الإنسان .

---

(١) سورة الأعراف (١٧٩)   (٢) سورة القصص (٧٧)
(٣) سورة الأعراف (٣٢)

وكذلك توجيهات الإسلام المختلفة فى هذا الباب . فالرماية والفروسية — أو الرياضة البدنية عامة — هى جزء من منهج التربية الإسلامية تنص عليه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقصد بها تقوية الجسم ورياضته على احتمال المشاق وبذل الجهد . كما يقصد بها قوة الأخذ بنصيب الإنسان من الحياة ، والاستمتاع به . فالجسد الهزيل المريض لا يأخذ نصيبه الحق من المتاع ؛ فوق أنه لا يوصل شحنة الحياة إلى النفس توصيلا صحيحاً تقوم عن طريقه بمهمتها المفروضة عليها ؛ وفوق أن جهاد الحياة — والحياة كلها جهاد — فى حاجة إلى جسم وثيق متين البنيان .

وقد كان من ذلك سباقه صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها، وسبقها إياه مرة وسبقه إياها مرة . وسباقه بناقته القصواء . وكذلك السعى والهرولة فى شعائر الحج . . كلها تدريب لعضلات الجسم ووشائجه لتربية القوة فيه والسلامة والتمكن .

ولكننا فى مجال الحديث عن التربية الإسلامية ، لن نقف عند حدود الجسم بمعناه الفسيولوجى البحت — وإن كان لذلك المعنى أهميته فى نظر الإسلام ونصيبه من عنايته — وإنما نتحدث كذلك عن الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم والمتمثلة فى مشاعر النفس ، التى ذكرناها فى مقدمة هذا الفصل ، والتى يخصها الإسلام بجهد فائق من التربية والتدريب .

* * *

هذه الطاقة يعترف بها الإسلام اعترافاً كاملا صريحاً قوياً . . لا يعترف بها خلسة وفى الظلمة ، بل يعترف بها جهرة ، ويسلط عليها الأضواء .

ولكنه « يربيها » كما يربى طاقة العقل وطاقة الروح . يربيها لا بالقمع ولا بالكبت ، ولكن بالتنظيف والتهذيب .

إنه لا يستقذر الطاقة الحيوية فى ذاتها ، ولا يحتقرها ولا ينفر منها . لا يقول إنها — فى ذاتها — دنس ينبغى التطهر منه ، ورجس ينبغى اجتنابه . بل يعترف بها فى صراحة كاملة ، ويزيد على ذلك فيدعو إلى الاستمتاع بالطيبات منها والإقبال عليها : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل: هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[1]. « كلوا من رزق ربكم واشكروا له »[2] « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا »[3] « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[4] « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنّى شئتم »[5]

بل يزيد الرسول الكريم فيجعل عليها أجراً ! قال: «وفى بضع أحدكم صدقة! قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟! قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وضعها فى حلال فله عليها أجر»[6].

والإسلام صريح غاية الصراحة فى معالجة الأمور الجسدية ، فى الغسل والوضوء ، كما هو صريح فى معالجة الأمور الجنسية « ويسألونك عن المحيض قل : هو أذىً ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله»[7] «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم».[8] وليس بعد ذلك صراحة فى الاعتراف بالطاقة الحيوية نظيفة محببة معروضة فى موضع النور !

---

(1) سورة الأعراف (32)
(2) سورة سبأ (15) .
(3) سورة الكهف (7) .
(4) سورة الأعراف (31)
(5) سورة البقرة (223)
(6) رواه مسلم .
(7) سورة البقرة (222) .
(8) سورة البقرة (187) .

كما أن الإسلام يحرص على المظاهر الجسمية النفسية فى مجال الجنس . إنه يحب أن يكون الرجل واضح الرجولة والأنثى واضحة الأنوثة . يكره التخنث والميوعة ، ويكره المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال . لأنه يحترم الطاقة الجنسية على فطرتها السليمة . يحترمها احتراماً جاداً ، لا على أنها وسيلة للفحش ، ولا على أنها وسيلة للتميع والانحلال .

والإسلام لا يحتقر « الجسم » ولا يستنكره ولا يستقذره . وأبلغ دليل على ذلك أن العبادات الإسلامية تشرك الجسم فى العبادة ولا تسقطه من الحساب .

والصلاة بصفة خاصة ملحوظ فيها ذلك الارتباط . فالوضوء عملية جسمية — وإن كانت له معان روحية — قصد بها تطهير البدن قبل الدخول فى الصلاة . والصلاة ذاتها حركة جسم فى ذات الوقت التى هى فيه يقظة فكر وطلاقة روح. ويظل الجسم مشاركا للعقل والروح فى أثناء الصلاة ، يشارك بالحركة والخشوع . ويشارك بالمحافظة على الطهارة ، وإلا فسدت الصلاة .

والصيام عبادة نفسية جسمية فى آن . وكذلك العبادة بمعناها الواسع .. عبادة « العمل » .. إنها مشاركة جسمية فى التوجه إلى الله .

* * *

ولكن الإسلام وهو يحترم الطاقة الجسمية احتراما كاملا ، لا يتركها على حالها ، ولا يطلق لها العنان ! إنه ينظمها ويضبط منصرفاتها . لأنها — هكذا طبيعتها — إذا تركت وشأنها لا تقف عند حد ، وتدمر الكيان .

إن للحياة — كما خلقها الله — أهدافاً حيوية لا بد من تحقيقها لتستمر الحياة على وجه الأرض . أهدافا تتمثل فى المحافظة على الفرد ، والمحافظة على النوع

عن طريق المحافظة على الفرد . وقد وضع الخالق فى الفطرة ضمانة التنفيذ . وضعها فى الأعماق . وضعها فى صميم البنية . فى « مادة الجسم ». فى تلك القبضة من طين الأرض المشتملة على عناصر الأرض وكيماوياتها ودوافعها .

لكى يحافظ الفرد على نفسه لابد له من طعام وشراب وكساء ومأوى ينام فيه . ولكى يحافظ على النوع لابد له من طاقة جنسية للتوالد ، وطاقة للدفاع عن نفسه وعن غيره ضد أى اعتداء . ثم لابد له — من أجل هذا وذاك — أن يحب نفسه فرداً متميزاً مستقل الكيان ، ويحب نفسه عضواً فى جماعة تتكون من نفسه ومن الأفراد الآخرين ، كما يحب هذا الكيان المجتمع من نفسه ومن الآخرين .

تلك أهم « الدوافع الفطرية » التى أودعها الله فطرة الإنسان ليحافظ على نفسه ويحافظ على نوعه . وجعل فى بنيته الضمان لتحقيق أهدافها وتنفيذ مطالبها.

فالجوع والعطش ضمان لإعطاء الجسم حاجته الدائمة من الطعام والشراب . والألم اللاذع من البرد والحر وتقلبات الجو ضمان لإعطاء الجسم وقايته من كساء ومأوى وما إليه . والرغبة العنيفة فى الجنس ضمان لتحقيق التوالد المستمر الذى يحفظ النوع على ظهر الأرض . والرغبة الشديدة فى إمتاع النفس ضمان لاستمرار تزويد الإنسان بضروراته من كل نوع . وهكذا كل مطلب من مطالب الحياة يحمل ضماناته فى يده . . فطرة لا تحتاج فى الإحساس بها إلى تفكير .

وليس « الألم » وحده هو الدافع . فذلك رباط من جانب واحد ! وفى الجانب الآخر رباط اللذة . فكل دفعة فطرية ، أو كل مطلب من مطالب الحياة ، مزود بضمانين فى وقت واحد . ضمان يدفع من الخلف ، وضمان يجذب من الأمام . أحد الضمانين هو الألم الناشىء عن عدم تحقيق الرغبة ، والآخر هو اللذة الكامنة فى التحقيق .

والألم واللذة الكامنان فى بنية الجسم وبنية النفس هما الدافع الأكبر من بين دوافع الحياة .

و«الدوافع الفطرية» هى خلاصة ذلك المزيج الكامن فى بنية الجسم وبنية النفس .

إنها رغائب يحف بها الألم واللذة . أحدهما يدفع بها ، والأخرى تحدوها لتنطلق إلى الإمام .

وإذا عرفنا ذلك أدركنا مكمن الخطر فى هذه الرغائب . إنها ضرورية لبقاء الحياة واستمرارها ، ولكنها فى الوقت ذاته معرضة للانطلاق العنيف . وكيف لا تنطلق — إذا تركت وشأنها — وفى طبيعتها كل ذلك الدفع وكل ذلك الحداء ؟

وحين تنطلق — كالمطية الفارهة — فإنها تعرض راكبها للعطب والهلاك .

فهى أولا تعطب جسده بالعلل والأمراض ، والاستهلاك السريع قبل الأوان .

وهى ثانيا تشقيه ولا تتركه فى راحة . فمن شأنها — حين تترك لتنطلق — أن تظل منطلقة لا تشبع من الانطلاق . وحينئذ تنقلب اللذة إلى ألم ، والمتعة إلى عذاب .

الذى يسرف فى الطعام لا يشبع كما يبدو لأول وهلة . بل يصيبه النهم فلا يقنع ولا يستريح .

والذى يسرف فى إمتاع الجسم بالراحة لا يشعر بمزيد من الراحة كما يبدو لأول وهلة . بل يصيبه الكسل والترهل ، ويعجز بعد قليل عن الحركة النشيطة القادرة ، ويصبح الكسل المضجر الممل نوعا من العذاب .

والذى يسرف فى الجنس لا يأخذ مزيداً من المتاع كما يبدو لأول وهلة . بل يصيبه النهم الجنسى فلا يكتفى ولا يشبع ، ويظل دائماً جوعان يبحث عن صيد جديد .

والذى يسرف فى الملك لا يزداد متعة بما يملك . بل يصيبه الجشع فلا يشبع مهما امتلك ، ويظل يشعر دائماً بأن ما لديه قليل وأنه فى حاجة إلى مزيد .

وهكذا تفسد المتعة الأولى وتنقلب إلى هم مقعد مقيم .

وثمة أمر آخر . .

فليس هم الحياة — كما فطرها الله — مجرد أداء « المطالب البيولوجية » .

كلا ! ففى فطرة الحياة إلى جانب ذلك جمال . جمال زائد على الضرورة وليس خاضعا لمنطق الضرورة . جمال يتمثل فى إحسان الأداء لا فى مجرد الأداء .

نظرة واحدة فى الكون الواسع العريض تفتح بصيرة الإنسان إلى ذلك .

« أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان ؟

« أتظن ذلك « ضرورة » ؟

« قالوا لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس ! وتساعد كذلك فى تلقيح النبات !

« فهل تظن ذلك ؟ هل من « الضرورة » بالقياس إلى النحل أن يكون فى الزهرة كل هذا الجمال ؟

« كلا والله ! فالنحل خَلْقٌ متواضع ! وإنه ليحط على الزهرة الأريجة البديعة كما يحط على الزهرة العادية الجمال .

« فليس جمال الزهرة إذن ضرورة ! وكل الأهداف « البيولوجية » يمكن أن تتم فى أبسط زهرة كما تتم فى أجمل الأزهار .

« ورأيت هذه « الطبيعة » ؟

« رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد ؟

« رأيت روعة الجبال التى تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟

« والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه فى الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف . . أو الأشباح ؟

« والليلة القمراء . . هل «ذقتها» ؟ هل «ذقت» طعم السحر فى ضوئها ، وظلها ، وأطيافها السارية وحديثها المهموس ؟

« هل تظن ذلك ضرورة؟ وأين هى الضرورة فى ذلك كله . والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال ؟

« ورأيت هذا الوجه الرائع ؟

« هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار . . تلك التقاطيع المنسقة .. هذا المعنى المعبر .. تلك «الروح» التى تطل من وراء القسمات ..

« تظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟

« أليست كل العمليات « البيولوجية » من طعام وشراب وتنفس تتم فى أقبح وجه وأجمل وجه على السواء ؟

« بل . . نداء الجنس ذاته . أليس يتحقق فى كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال ؟

« كلا . إنه ليس «ضرورة» . . وإنما هو «جمال» .

« هو إحسان فى الأداء لا مجرد الأداء .

« تلك فطرة الحياة كما خلقها الله . . فطرة «الطبيعة»[1] .

وثمة شيء آخر . .

إن « حفظ» الحياة على وجه الأرض ليس هو كل هدف الحياة !

بل هدفها هو حفظها وترقيتها على الدوام .

---

(١) من كتاب «قبسات من الرسول» فصل «وليرح ذبيحته» .

وقد كان الإنسان قمة الحيـاة على الأرض . هو أرقى كائناتها وأفضلها . ولـكنه هو ذاته مَعْرِضٌ للرقىّ الدائم والتقدم إلى الأمام . يرتقى بكل طاقاته وفى جميع اتجاهاته.وذلك يستلزم توفير الطاقة للتقدم ، كما يقتضى عدم الهبوط إلى الحد الذى يُعجِزُ عن الصعود . والانطلاق مع الشهوات يستنفد الطاقة المذخورة أولا بأول فلا يترك رصيداً للقوة الصاعدة ، فضلا عن أنه يهبط بالإنسان إلى درجة من الشعور والتفـكير والسلوك لا يصلح معها للارتفاع ، إذ يشعر أن الارتفاع قيد للذة الهابطة وشاغل عن المتاع !

والإنسان خليفة الله فى الأرض . . القوة الإيجابية الفاعلة المريدة المنشئة بإذن ربها . . إن استهلك جهده فى تحقيق مطالب الحيوان ودوافع الحيوان ، فـكيف يتحقق له كيان الإنسان ؟ كيف تتحقق له الخلافة ؟ كيف ينشىء الحضارات وينشىء الأفـكار ؟ كيف يعمرّ الأرض ؟ كيف يقيم فيها الحق والعدل الأزليين المستمدين من ذات الله ، وسنته التى خلق بها السماوات والأرض والحياة ؟

والإنسان . . قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . . فـكيف يحقق كيـانه الـكامل إذا أخلد إلى الأرض واتبع هـواه ولصق بالطين واستعبد للشهوات ؟

* * *

من أجل ذلك كله لا يترك الإسلام الإنسان لشهواته تستعبده وتجرفه إلى حيث لا يملك لنفسه القياد .

بل يضبطها ويهذبها وينظفها .

ولـكنه لا يكبتها . .

إن الكبت مناف لفكرته ومنهجه فى الحياة .

فكرته ومنهجه هى أخذ الكائن البشرى بجميع خصائصه وجميع طاقاته.. واستغلالها كلها لتحقيق أهداف الحياة .

وفكرته ومنهجه هى احترام كل طاقة ما دامت تؤدى مهمتها التى فطرها عليها الله .

وفى ظل هذه الفكرة وذلك المنهج لا يوجد مجال للكبت ولا أصل لمحاربة الطاقات .

وكيف يكبتها ويحاربها وهو فى حاجة إليها ؟

كيف يكبت شهوة الطعام وهو فى حاجة إلى أجسام قوية متينة تحتمل الجهاد فى سبيل الله ؟

كيف يكبت شهوة الجنس وهو فى حاجة إلى ذرية صالحة كثيرة تنشر الفكرة فى أرجاء الأرض ؟

كيف يكبت حب الإنسان لنفسه وهو الطريق المضمون للعمل والإنتاج اللذين يحتاج إليهما لكى ينهض بواجب الخلافة فى الأرض وعمارتها ؟

كيف يكبت طاقة القتال وهو فى حرب دائمة مع قوى الشر فى الأرض، وفى حاجة دائمة لدفعة القتال ؟

وكيف يكبت أية طاقة وهو لا يستغنى عن واحدة منها ما دام يريد الحياة ؟

كلا ! لا يكبت الطاقات ولا يستأصلها من منبتها ، لأنه لا يعتزل الحياة ولا يترهبن . ولا يترك الواقع ويعيش فى الأحلام . بل يغذى كل طاقة من هذه ، ويحرص على بقائها حية فاعلة قوية على الدوام .

كل ما فى الأمر أنه لا يرسلها بلا ضوابط ، لأن هذا مفسد لفطرة الإنسان.

و « الضبط » ليس كبتاً وإن تشابها فى مظهر الامتناع .

يقول فرويد الذى أفنى حياته فى الحديث عن الكبت والعقد النفسية حتى خيّل للناس أن كل امتناع عن رغبة هو كبت وباعث للاضطراب . يقول فى كتاب « Three Contributions to the Sexual Theory » ص ٨٢ :

« وفرق بين هذا (الكبت اللاشعورى) وبين الامتناع عن إتيان العمل الغريزى ، فهذا مجرد تعليق للتنفيذ » .

ليس الكبت إذن هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزى . الامتناع الواعى المقصود . إنما الكبت هو استقذار الدافع الغريزى واستنكاره ، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه بأنه يحق له أن يشعر بوجود ذلك الدافع أو يخطر له على بال .

وهذا المعنى لا يوجد فى الإسلام أصلا ، وقد مر بنا نظرته إلى الدوافع الفطرية على أنها أمر واقع مزين للناس . بل الناس مدعوون إليه . بل هم عليه مأجورون !

أما الضبط فعملية أخرى واعية . إنها تتم على هذا النحو : إن هذا الشعور الذى أحس به ليس قذرا فى ذاته ولا تحريج عليه . وإنما التحريج على التنفيذ — الآن — أو التحريج على قدر معين من التنفيذ . وهذا التحريج له سبب . فهو ضرورى لحفظ الكيان الفردى أو الجماعى من التفتت والانهيار .

إننى جائع . من حقى أن آكل . ليس فى شهوة الطعام عيب . لا أهبط عن آدميتى حين أجوع وحين آكل . ولا يصيب احترامى لنفسى أى ضرر ، ولا احترام الناس لى .

ولكن ليس معنى هذا أن آكل حتى التخمة . إن ذلك يفسد معدتى ويعطب كيانى . ويجعلنى بعد ذلك عرضة لنهم دائم لا يشبع .

وليس معناه أن أغرس يدىّ فى الطعام وألتهمه كالمسعور . فهكذا يصنع الحيوان . وأنا إنسان . الحيوان لا يملك التصرف فى دفعة الغريزة، ولا يملك إلا نوعاً واحداً من السلوك . وأنا أملك التصرف . أملك الإرجاء بعض الوقت إن أردت أو اضطرتنى الحاجة . وأملك التنويع فى السلوك . أملك الالتهام على طريقة الحيوان . وأملك التأنق فى التناول والتهذيب فى الأداء .

وليس معناه أيضاً أن أسرق لآكل . فذلك حرام . إنما آكل من ملكى . مما أحل الله لى . ولا آكل سطواً على أموال الغير ، ولا غشاً ولا خداعاً ولا سحتاً . ولا آكل مما حرم الله .

وليس معناه أن أذل كرامتى لآكل — ما دامت فىّ طاقة بعدُ على الامتناع — لا أتذلل ولا أتزلف ولا أنافق ولا أخادع من أجل لقمة الخبز . وإنما أبحث عن الكرامة فى ذات الوقت الذى أبحث فيه عن الطعام .

وليس معناه أن أعيش لآكل . ففى الحياة أهداف أخرى جديرة بالتحقيق . والطعام ليس هدفاً فى ذاته . وإنما هو وسيلة لهدف . وسيلة لحفظ الحياة . فلأجعل فى بالى أنه وسيلة . ولا أقلب الوسيلة إلى غاية ، ولا أجعل همى كله هو الطعام ، والتفنن فيه والتلذذ به كأنه وحده شاغل الحياة .

وليس معناه أن آكل وحدى وأنسى المحرومين من الطعام . فهم إخوة لى فى الإنسانية ، وأنا وهم شركاء فى السراء والضراء . وشركاء فى الخير المشترك . وقد أتيت بهذا الطعام من حلال مالى . ولكنى لا أستحله كله وحولى جائع أو محروم . فلأقتطع قطعة منه فآكل ويأكل معى آخرون . .

هكذا يدور الحديث بين الإنسان ونفسه على وعىٍ مرة وعلى تعوُّد مرات . وتلك كلها « ضوابط » لشهوة الطعام ليس فيها « كابت » واحد يحرّم الطعام!

وحين يقوم هذا الحديث بين الإنسان ونفسه على وعي أو على تعود ، فلن يفسد عليه قط لذة الاستمتاع بالطعام . فأى شىء فى كل ذلك يفسدها ؟ ! وإنما هو يستجدّ لنفسه لذائذ جديدة لم تكن من قبل . إنه يستمتع باللذة الحسية البحتة .. اللذة « الكيماوية » والعصبية والمادية .. ولكنه يضيف إليها فى ذات الوقت لذائذ نفسية وروحية . يضيف إليها الإحساس بآدميته المترفعة عن التلمظ على الطعام و « لهطه » كالحيوان ! ويضيف إليها لذة الشعور بالاختيار الحر إزاء دفعة الغريزة ، فإن هذا الاختيار يشعر الإنسان بكيانه . يشعره بأنه موجود . موجود بقدر ما يختار . ويضيف إليها لذة الإحساس بالمشاركة الوجدانية مع الآخرين من بنى البشر . ويضيف إليها متعة الروح بشعور الإنسان أنه يتطهر — فى كسب طعامه وأداء زكاته — لله ، ويعيش فى رحابه ويتطلع إلى رضاه .

ذلك كله بالإضافة إلى اللذة الحسية غير المنقوصة . . فمن ذا الذى يترك هذا النعيم المتاح كله ويخلد إلى الطين ويقصر نفسه على متاع الحيوان ؟ !

* * *

وكذلك الأمر فى شئون الجنس .

فحين يقول إنسان لنفسه :

إننى أحس فى أعماقى بحنين إلى الجنس الآخر ، ورغبة قوية فى اللقاء بأحد أفراده ، والامتزاج معه ، والإفضاء إليه ، والاتحاد الكامل معه حتى كأننا شخص واحد لا شخصان منفصلان .

هذا الإحساس ليس عيباً فى ذاته ولا قذارة . إنه فطرة الله التى فطر الناس عليها . كل الرجال وكل النساء يشعرون بهذا الحنين وهذه الرغبة ، ولا بد أن يشعروا بها ليحققوا غاية الحياة ويحفظوا النوع على وجه الأرض . والتركيب

الجسمى يشير إلى هذه الوظيفة . ففسيولوجياته ، وبيولوجياته ، وكيماوياته كلها مهيأة للقيام بهذه الوظيفة على وجهها الأكمل ، لتنتج أجيالا جديدة من الحياة ، وهو أمر لا يتم بغير لقاء زوجين .

وحين أحس بهذا الإحساس وهذا الميل ، فأنا سائر مع الفطرة فى اتجاهها السليم .

ولكن ليس معنى هذا أن يكون التفكير فى مسائل الجنس هو شغلى الشاغل ، وهمّى المقعد المقيم . فالحياة ليست جنساً خالصاً ، ولا هى محصورة فى هدف واحد . . إن علىّ تبعات أخرى تجاه نفسى وتجاه الناس . علىّ أن أتعلم . وعلى أن أنتج . وعلىّ أن أنظر فى أمر المجتمع : أسائر هو على ما ينبغى له أم منحرف عن سبيله . وما أسباب انحرافه . وعلىّ أن أقوم بدورى فى تقويمه من انحرافه . علىّ أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . وقد يصيبنى من الناس أذىً وأنا أقوم بهذا الواجب فينبغى أن أجند نفسى على احتمال الأذى وأجند نفسى لمقاومة الشر . وعلىّ أن أقوم بدورى الإيجابى فى هداية الناس إلى الحق . وخير وسيلة لذلك هى القدوة . فينبغى أن أكون أنا بذاتى قدوة حسنة . وإلا فلاقيمة لكل ما أقول من أقوال . وأنا أقول للناس إن الذى يفسدهم هو انجرافهم فى طريق الشهوات ، فلأكن أنا المثل فى عدم الانجراف مع الشهوات .

وكذلك ليس معنى هذا أن أخطف فتاة ما لأقضى معها رغبة الجنس . فهذه الفتاة ليست لى . لا أملكها لنفسى حتى أتصرف فى شأنى وشأنها على هذا الوضع . إن لها عرضاً يكافىء عرضى لايجوز لى أن أدنسه . إنى أحب أن يكون عرضى نظيفاً طاهراً لم يدنسه شيء . فلأحافظ على عرض هذه الفتاة كذلك . وإنى أحب حين تكون لى زوجة أن تكون نظيفة . أن تكون خالصة لى . بروحها

وجسمها جميعاً . فلأترك هذه الفتاة إذن نظيفة لمن ستكون زوجاً له ، فلأتركها له خالصة كما أحب أن تكون زوجتى لى خالصة .

ولو أنها رضيت رضاء بأن أقضى معها رغبة الجنس أو دعتنى هى إلى ذلك فلا فارق ! إنه لا يجوز لى ! إنها كالحارس الذى يدعو الناس إلى سرقة المال الذى يحرسه ! فذلك لا يعطى الناس الحق فى السرقة ، لأن الحارس لا يملك المال فى الحقيقة ! وهذه الفتاة الحارسة على عرضها لا تملك التصرف فيه ولا دعوة الناس إلى اغتصابه ! إنه ليس عرضها وحدها ! إنه عرضها وعرض والديها وعرض أسرتها وعرض مجتمعها . وعرض الإنسانية ! إنه عرض الأمانة التى ائتمن الله عليها البشر ، وينبغى أن يردوا له الأمانة نظيفة كما تلقوها ، كاملة كما تسلموها . . إلا بحقها الذى نص عليه صاحب الحق .

وليس معنى هذا كذلك أن تكون صورة الجنس فى حسى وفى تفكيرى هى صورة الجسد الهائم الشهوان ، فأنا لست جسداً خالصاً ، ولا تمر علىّ لحظة واحدة فى حياتى أكون جسداً بلا عقل ، أو جسداً بلا روح ، وإنما أنا دائماً وفى كل لحظة جسد وعقل وروح ، وإحساسى بالجنس هو قطعة منى ، هو جزء من كيانى كله ، فلأكن إذن على الفطرة السليمة لبنى البشر . فليكن إحساسى بالجنس شاملا لكيانى كله ، شاملا لكل ما أنا مشتمل عليه من مشاعر . فليكن رغبة جسم ، وخفقة قلب ، ورفة روح . فليكن «عاطفة» . فليكن — إلى جانب الرغبة — مودةً ورحمةً وتعاطفاً وتفاهماً وامتزاجاً روحياً ولقاء يرتفع بالكيان إلى عليين . ولن يتأتى ذلك وأنا أتناوله خلسة فى الظلمة أو سرقة من الحارس الذى لا يملك التصريح ! وقد تأتى علىّ لحظة يخيل إلى فيها أن هذه الخلسة المختلسة تحقق كيانى كله ، وترتفع بى — فى وهمى — إلى حيث

أريد أن أكون ، ولكنها مشاعر الرغبة هي التي تخيل ذلك ، فلأنظر إلى الأمر في غير ساعة الرغبة لأدرك الحقيقة ، أو .. فلأنظر لخلسة يختلسها شخص غيري .. ما رأيي فيها ؟ هل أصدقه لو قال إنها نظيفة وسامية ؟ هل أقبلها في أهلي ؟

كلا ! ليس معنى إحساسي بالجنس شيئاً من هذا كله . وإنما أنا أحس بتلك الرغبة الفطرية وأستجيب لها على طريقة الإنسان . الإنسان الذي يملك تصرفه ويختار طريقه . لا على طريقة الحيوان الذي لا يملك التصرف ولا يختار الوسيلة ولا يعرف غير ما تمليه عليه فسيولوجياته وبيولوجياته وكيماوياته . لأنه جسد بغير عقل ، وشهوة بغير روح ..

وأنا أحس بميل شديد لإنسانة معينة . أعجبني شكلها . أعجبني سلوكها وطريقة تصرفها . أعجبتني أخلاقها . أحسست بالارتياح إليها . أحسست بهاتف خفي يقول لي هذه هي التي تكملك . هذه هي « الشِّق » الذي يكمل كيانك . وإن هذا الميل ليحرك نفسي حركة جادة . إنه ليس تزجية فراغ ولا حلماً في اليقظة . إنني أريدها . لاشك عندي في ذلك . لقد رتبت — في خيالي — أن تكون حياتي مع هذه الفتاة . فلأشرع إذن في التنفيذ . فلآخذ الإذن من صاحب الإذن الأول الذي يملك الأمانة . فلآخذ الإذن — في قلبي — من الله . فلأتوجه إليه أن يوفقني إليها وأن يتم شأني على ما يحبه ويرضاه . ثم فلأتوجه إلى أهلها أطلب يدها وأتفاهم معهم على الأمر . ولأكن في تصرفاتي كما ينبغي حتى أقع في نفسها كما وقعت في نفسي ، وأعجبها كما أعجبتني ، وتميل إليّ . فلأكن رجلا . فلأكن بحيث تحس أنها تستطيع أن تثق بي وتطمئن إلى .

أو .. أني لا أملك في الوقت الحاضر الوسيلة .. فلأصبر إذن حتى يأذن الله

بالتيسير، ولأنصرف إلى العمل الجادّ الذى يوصّل ، ولأنصرف إلى أهداف الحياة الأخرى التى تتطلب منى الجهود[1] .

فإذا تزوجت — الآن أوفى المستقبل — هذه الفتاة التى ملت إليها ومالت إلىّ ، فنحن الآن فى حلّ من المتعة الكاملة التى أباحها الله . أباحها بلا قيود : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين »[2] . « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم »[3] نحن فى حلّ أن نصبح جسداً واحداً وروحاً واحدة . وإنى لأحس معها بامتزاج كامل لا يعرف أحدنا أين ينتهى وأين يبدأ الآخر . نحن كيان واحد مختلط الأجزاء . وأنا أحس براحة ضميرى لأنى ألتقى بها على طهارة قلب ونظافة روح . وأنا أستمتع منها بكل ما يستمتع به جسم من جسم . ولكن لا تمر علينا لحظة جسد خالصة . هنالك دائماً ذلك التعاطف القلبى والامتزاج الروحى . وعلاقتى بها تشمل من نفسى دائماً مساحة أكبر من مساحة الحس . حتى فى لحظة اللقاء الحسى . وأنا بهذا كله أوفر نصيباً من المتعة وأوفر فى الأعصاب .

هذا أمر الجنس فى حساب الإسلام .. لا كبت ولا استنكار ولا قذارة . بل متاع كامل بكل ما فى الفطرة من جوانب المتاع . متاع الحس القريب ، مضافا إليه ألوان من المتعة لا يعرفها الحيوان ويقدرها الإنسان !

* * *

---

(1) فى المجتمع المسلم — كما سيأتى — يتوافق التنظيم الاقتصادى والتنظيم الاجتماعى والسياسى والتعليمى ... الخ مع القواعد الروحية والخلقية وتؤدى كلها إلى هدف واحد : هو السير على منهج الله . كما أن المجتمع المسلم لا يعج بالمثيرات الدنسة التى تهيج المشاعر وتفقد الإنسان القدرة على الاصطبار .

(2) سورة المؤمنون (١ — ٦) (3) سورة البقرة (٢٢٣) .

وكذلك فى الإسلام كل نزعة فطرية .

إنه لا يكبت طاقة من الطاقات لأنه لا يريدها أن تموت . إنه فى حاجة إلى كل طاقة حية فى كيان الإنسان . وهو فى حاجة إلى كيان سليم قوى فياض متحرك متمكن من الحياة . إن رسالته هى رسالة القوة . القوة فى الحق . القوة فى البناء والتعمير . القوة فى حمل الأمانة . القوة فى القيام بمقتضياتها . القوة فى الجهاد فى سبيلها . وقوة الرغبة فى الحياة .

إن الثابت — عملياً — أنه لا يجاهد فى سبيل الحق شخص لا يرغب فى الحياة !

وقد يقع الإنسان فى تناقض — ظاهرى — إذا حكم بأن المجاهدين حقاً هم الزاهدون فى رغائب الحياة ! إن هذه حقيقة ولا شك ! فحين يتغلب حب الحياة والحرص على متاعها فإنه يصرف النفس عن الجهاد فى سبيل المُثُل ، لأن الجهاد ينذود عن المتاع !

ولكنها حقيقة كذلك أن المنصرف عن متاع الأرض ، لأنه يحس بضعف الدوافع فى كيانه لهذا المتاع ، لا يحرص على إصلاح باطل ولا إحقاق حق ولا جهاد فى سبيله . لأن الأمور عنده يستوى بعضها مع بعض ، ورغبته فى كل شىء ضعيفة ، فهو ينظر لكل شىء بغير مبالاة !

إنما الزهادة التى يتصف بها المجاهدون حقاً عملية نفسية مختلفة تمام الاختلاف! إنها ليست الرهبنة الصارفة عن الحياة ! إنهم كلهم — بلا استثناء تقريباً — من ذوى الرغبة الجياشة والحيوية الفائضة . ولكنهم — مع هذا — يرتفعون على أنفسهم ويزهدون فى المتاع ! والقوة النفسية الهائلة التى يضبطون بها رغائبهم الجياشة وحيويتهم الفائضة ، هى ذاتها التى يجاهدون بها الباطل ويصمدون فى الجهاد !

إنها زهادة القوة لا زهادة اللامبالاة !

الأصل هو القوة . هو التمكن . هو الرغبة الدافقة فى كل شىء . ومن بين صنوف هذه القوة ، قوة « الضبط » التى يحكم بها الزاهدون رغائبهم ، ويرتفعون عليها ، ويمسكون فى أيديهم القياد .

وعلى هذا النحو نفهم جانباً من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجانباً من فكرة الإسلام .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم راغباً فى الحياة قوى التمكن جاداً فى كل رغبة من رغائبه . كان يمشى وكأنما يتقلع من الأرض . وكان يأكل بشهية ورغبة . وكان يمارس نشاطه الجنسى فى قوة وتمكن ومواظبة .. نفس فياضة الحيوية ، وكيان دافق الدفعات . طاقة قوية فى منبعها ، ومنبعثة بكل قوتها فى جميع المجالات .. وكان مع ذلك المحارب القوى ، والمجاهد القوى ، والمتعفف عن أى متاع يصرفه عن الجهاد !

وتلك هى النفس المتكاملة .. تأخذ انطلاقها الكامل فى كل اتجاه بقوة وإصرار وتمكن ، وفى الوقت ذاته تخلع نفسها بقوة من كل متاع حين تريد . إنه التحرر القوى . وهو كذلك التحرر الحقيقى . التحرر الذى تتمثل فيه حرية الرغبة وحرية الامتناع . فلا تصبح الرغبة مالكة لقياد الإنسان توجهه كما تشاء وهو إليها منقاد . ولا يصبح الامتناع موتا وتهاويا وانخذالا ولامبالاة .

وذلك هو منهج الإسلام فى تربية النفس . إنه لا يكبت رغائبها فيقتل حيويتها ويبدد طاقتها ويشتت كيانها . فلا تعمل ، ولا تنتج ولا تصلح لعمارة الأرض وترقية الحياة . وفى الوقت ذاته لا يطلق رغائبها بلا ضوابط . لأن ذلك يبدد طاقتها من جانب آخر ، يبددها فى نشاط الحيوان وعلى مستوى الحيوان .

ووسيلته إلى ذلك — كما قلنا — هي « الضبط » .

إنه يعمل على تربية القوة الضابطة وتنميتها منذ نعومة الأظفار .

يربى الأطفال منذ طفولتهم على بعض العادات التى « تضبط » سلوكهم فلا ينفلت عيارهم ، ويعوّدهم على الامتناع عن بعض رغباتهم التى تزيد عن الحد. وهو لا يصل إلى ذلك باستخدام القسوة . فليس هدفه هو الانتقام من الطفل ، ولا إنضاجه على شؤبوب من النار ! إنما وسيلته هى الحب ! الحب المتمثل فى الأسرة ، والذى يربط الأم والأب والأطفال . ويجعل التوجيه نصيحة لينة رفيقة حازمة فى ذات الوقت ، تنفذ إلى القلب وتستقر فى الأعماق . والعقوبة ليست هى أول الطريق ! إنما هى وسيلة احتياطية حين لا تنفع القدوة ولا تنفع النصيحة ولا ينفع الغرس عن طريق الحب والمودة القائمة بين الآباء والأبناء . يقول الرسول الكريم « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر »(١) .. هكذا .. لا يبدأ التعليم بالعصا ، ولا تبدأ التربية بالعقوبة . وإنما هناك فسحة طويلة مديدة لغرس هذه العادة الحميدة ، عادة الصلاة. فسحة يعمل فيها الحب ، وتعمل فيها القدوة ، وتعمل فيها النصيحة ، وتعمل فيها الكلمة الرفيقة الحازمة فى آن .. فإذا لم يفلح هذا كله فلا بأس حينئذ فى شيء من الشدة يقوّم الكيان ، ولكنها ليست الشدة التى تفسد الكيان . وقد ربى الرسول الكريم بناته وأبناء بناته لم يضرب أحداً منهم قط ! ولا احتاج فى تربيتهم لغير الحب الحازم والقدوة والتوجيه . والرسول هو قدوة المسلمين يأخذون عنه فى كل أمور الحياة .

والصلاة من « الضوابط » التى تعود النفس على أداء عمل معين فى وقت معين . وتلك إحدى وسائل الضبط . كما أنها تعود النفس على التزام الجد فترة

(١) أخرجه أبو داود .

من الوقت . وتلك أيضاً إحدى وسائل الضبط . فوق ما ينبغى لها من خشوع وتطهر وتنظف ورعاية . . وكلها ضوابط تعود النفس من الداخل على ضبط الشهوات .

والصيام — بصفة خاصة من بين العبادات — عملية ضبط قوية فعالة ، تتمثل فيها بشكل بارز إحدى وسائل الإسلام فى التربية عن طريق الضبط . ففى الصيام يمتنع الإنسان — مختارا — عن كثير من لذائذه المباحة ، ويتعود — فى إصرار وقوة — أن يرتفع على الرغبة ، ويحقق كيانه بذلك الارتفاع .

وكل عبادة هى فى الحقيقة ضبط لشهوة من الشهوات ، وتعويد للنفس أن تضبط مشاعرها وتضبط سلوكها ، « وتختار » طريقها بين مختلف الطرق . تختار طريق الحق والإحسان والإخلاص .

ولا يفرض الإسلام الضبط على النفس فرضاً وهى ليست مهيأة له ، وليس لديها إليه استعداد !

كلا ! فالقدرة على الضبط قدرة بشرية أصيلة ، موجودة فى داخل الكيان .

يقول جوليان هكسلى فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث» — وهو كاتب ملحد لا يصدر فى قوله عن إيمان بالله ولا توقير للمفاهيم الدينية — يقول فى فصل بعنوان : « تفرد الإنسان » :

« يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان فى العقل أعظم بكثير مما يظن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة فى الحشرات .. ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . . . وليست الثدييات بأفضل من ذلك . . بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى ، حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفياً ، أى أنه ثابت فى حدود

ضيقة . أما الإنسان فقد أصبح فى سلوكه حراً نسبياً — حراً فى الأخذ والعطاء على حد سواء . . . ولهذه الزيادة فى المرونة نتائج أخرى سيكلوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية ، والإنسان فريد فى بعضها . فلقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى لا بد أن يتعرض للصراع النفسى ... ومع ذلك فطبقاً للآراء الحديثة توجد (لدى الإنسان) أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهى التى يعرّفها علماء النفس بالكبت والقمع .. »[1] .

هناك إذن أجهزة — بيولوجية كما يقول هكسلى فى كتابه — تميز بها الإنسان عن الحيوان ، تساعده على ضبط انفعالاته وتوجيهها توجيها حراً — نسبياً — بطريقة لا يقدر عليها الحيوان .

والإسلام يستغل هذه الطاقة الضابطة ، كما يستغل الطاقات كلها ، فى تربية النفس والارتفاع بها لكى تحقق الكيان الأعلى للإنسان .

ويتخذ إلى ذلك وسائل شتى .

فهو — كما قلنا من قبل — يربط القلب البشرى بالله ، وخشيته وتقواه ، ومراقبته فى كل عمل وكل شعور وكل فكر ، والتطلع إلى عطفه ورضاه . وذلك فى ذاته ضابط من أكبر الضوابط يكبح جماح النفس ، وإن كان لا يكبتها ، لأن الله الذى يرتبط به القلب قد أباح المتاع وحرّض عليه : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[2] . كل ما هنالك أنه يريدها نظيفة طاهرة : « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين »[3] .

---

(١) الكبت كما عرفه هكسلى فى كتابه هذا هو المنع اللاشعورى للنزعة الفطرية (وهو تعريف فرويد له) أما ما سماه بالقمع فهو العملية الإرادية . وهى التى نفضل — كما صنعنا فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » — أن نسميها « الضبط » .

(٢) سورة الأعراف (٣٢)   (٣) سورة البقرة (٢٢٢) .

وهو كذلك يربط القلب باليوم الآخر . .

والإيمان باليوم الآخر إيماناً حقيقياً حياً راسخاً فى القلب ، يصنع كثيراً من العجائب فى النفس الإنسانية !

إنه يمنع اللهفة المجنونة على شهوات الأرض وإن لم يكن يحرم الإنسان من المتاع . فاللهفة تستبد بالنفس حين تحس أن فرصة الحياة الدنيا هى الفرصة الوحيدة المتاحة . ومن ثم تتكالب على انتهاب هذا المتاع فى فرصة العمر القصيرة المحدودة .. قبل الفوات . وتوغل فى ذلك إلى درجة السعار المجنون . أما حين تنفسح الفرصة وينفسح الأمل .. حين يؤمن الإنسان إيماناً حقيقياً بأن فرصة العمر القصير المحدود ليست نهاية الحياة ولا نهاية المتاع ، وإنما هى فترة قصيرة ومتاعها كذلك قصير : « قل متاع الدنيا قليل »[1] فإنه يأخذ منه على هينة ، بلا تلهف زائد ولا قلق ولا تفزز . وهو بهذا يجمع الحسنيين : فهو يحس إحساساً حقيقياً بطعم المتاع الأرضى ، لا كالمعجل الذى لا يكاد يتذوق ، لأنه يزدرد ازدراداً قبل وقت الفوات ! وفى الوقت ذاته يحس باطمئنان القلب واطمئنان الأعصاب وراحة الضمير . . وهو كسب آخر يضاف إلى المتاع المتزن المتذوق الرائق المعقول .

ثم هو دائم التذكير بأن هذه الشهوات ليست غاية فى ذاتها ، يستغرق الإنسان فى طلبها والانكباب عليها . وإنما هى وسائل إلى غايات أخرى أرفع منها وأولى بالالتفات :

الطعام وسيلة لحفظ الأود : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[2] .

---

(١) سورة النساء (٧٧)   (٢) حديث رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم .

والجنس وسيلة لانتشار النوع : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »[1] .

وهو كذلك وسيلة لنشر نوع ممتاز من البشر ، هو المسلمون المؤمنون بالله : « تناكحوا تكثروا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة »[2] . ووسيلة كذلك للسكن والراحة لا للسعار والفتنة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[3] .

والمال وسيلة لإقامة الجماعة : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً »[4] .

وطاقة القتال لجهاد الشر فى الأرض : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »[5] ولضمان الحياة ضد الاعتداء : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »[6] . ولكنها ليست للفتك والاعتداء : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »[7] .

وهو يبعث النشاط الحيوى فى اتجاهات شتى ، تشمل كل كيان الإنسان ، فلا تتدفق الطاقة الحيوية كلها فى جانب واحد ، جانب الجنس أو المال أو الطعام .. إلخ ، فتخرج به عن الحد المأمون .

يبعث النشاط فى العلم والعمل والتجارة والصناعة والزراعة ، والفتح والغزو ، وعمارة الأرض ، وإقامة الدولة ، وتنظيمها ، وسياستها ، ومراقبة الأمور فى المجتمع ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... وهى كلها أمور تستغرق النشاط الإنسانى

---

(١) سورة النساء (١)

(٢) عن سعيد بن أبي هلال مرسلا .

(٣) سورة الروم (٢١) .

(٤) سورة النساء (٥) .

(٥) سورة التوبة (٧٣) .

(٦) سورة البقرة (١٧٩) .

(٧) سورة البقرة (١٩٠) .

وتوزعه وتوسع مساحته ، فلا يتكتل فى بقعة واحدة ويترك بقية الجوانب خواء.

وهو يستنفد الطاقة النفسية فى اتجاهات عليا ، فلا تركن إلى الأرض ، ولا تخلد إلى المتاع الحسى وحده تنفق فيه كل الطاقة . يوجّه النفس إلى الجهاد فى سبيل الله ، ويملؤها بالعقيدة حتى تملأ كل شعابها وتتشرب بها . وهى عقيدة تتصور صورة معينة للحياة البشرية ، كريمة نظيفة عالية واسعة الآفاق ، وتحرص على تحقيق مثلها فى واقع الأرض ، وتحث على الجهاد فى سبيل هذا التحقيق . وهذا هدف مشترك بين الرجل والمرأة على السواء ، فكلاهما بشر، وكلاهما مطالب باعتناق هذه العقيدة وتحقيقها — بنصاعتها وطهارتها واتساع آفاقها — فى داخل النفس وفى واقع الحياة[1]: « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله . والله عنده حسن الثواب »[2].

ثم هو يستنفد الطاقة الجسمية كذلك فى اتجاهات عليا . لا بقصد إنهاكها ولا بقصد كبتها ، ولكن بقصد تحويل الفائض منها عن أن يستغرق فى متاع الحس القتّال . فيوجه الفتيان إلى الفروسية ، وهى رياضة عالية تقوى البدن — على طريقة الإسلام فى إعداد القوة — وفى الوقت ذاته ترفع النفس عن محيط الحس ، وتوجه طاقة القتال إلى منصرف خيّر نبيل . ويوجه الفتيات إلى تدبير المنزل ، وهو رياضة كذلك عالية ، تمكن المرأة من فنونها الأنثوية ، وتحقق لها كيانها الأنثوى بطريقة فاضلة نظيفة ، فلا تعود فى حاجة إلى التعبير عن رغبة

---

(١) انظر كتاب « معركة التقاليد » فصل « حين نكون مسلمين » .

(٢) سورة آل عمران (١٩٥) .

الجنس بلهفة الحس . كما أنها تستنفد طاقة الجسد الفائضة فى عمل نافع نبيل .

وهو كذلك يقيم نظام المجتمع كله بصورة لا تحفز الدوافع الفطرية إلى أبعد من المدى المأمون . فيمنع الإسراف فى كل شىء على الإطلاق : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[1].

يمنع الإسراف فى الطعام والشراب : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »[2].

ويمنع الإسراف فى المتاع والترف والراحة : « الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا »[3] « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا »[4] « وما أرسلنا فى قرية من رسول إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون »[5].

ويمنع الإسراف فى التملك، فيضع للاستحواذ حدوداً لا يكون حلالا إلا بها، فيمنع الغصب والسرقة وأكل مال الأجير والافتيات على حقوق الناس ، كما يمنع الربا والاحتكار وهى وسائل التضخم المالى فى جميع العصور . ويضع كذلك مصارف معينة لابد منها لتزكية المال وجعله حلالا طيباً . فالزكاة والصدقات والإنفاق فى سبيل الله والإنفاق على الوالدين والأقربين . . كلها وسائل لمنع الإسراف فى التملك والتخفف من شح النفس .

ويمنع الإسراف فى القتل « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً »[6].

---

(١) سورة الأنعام (١٤١) .
(٢) سورة الأعراف (٣١) .
(٣) سورة المؤمنون (٣٣) .
(٤) سورة الفرقان (١٧ — ١٨) .
(٥) سورة سبأ (٣٤) .
(٦) سورة الإسراء (٣٣) .

ويمنع الإسراف فى الجنس . فلا يبيح المثيرات العنيفة فى المجتمع، فلا اختلاط ولا تبرج ولا عرى ولا غناء فاحشا ، ولا قصص مكشوفة ، ولا دعوة مباحة لشتى صنوف البغاء[1] .

وهكذا وهكذا فى كل نزعة فطرية وكل لون من ألوان السلوك . . وبذلك ينشأ مجتمع متوازن وإنسان متوازن ، توازنت طاقاته ، وعملت روحه وعقله وجسمه جميعها فى آن . والجسم فى كل ذلك محترم معترف بكيانه، غير منبوذ ولا محتقر ولا مهان .

---

(١) انظر « معركة التقاليد » فصل « حين نكون مسلمين » .

خطوط متقابلة فى النفس البشرية

فى الفصول السابقة تحدثنا عن طريقة الإسلام فى تربية الروح وتربية العقل وتربية الجسم ، ورأينا الترابط الكامل بين جوانب الكيان البشرى فى حقيقة الواقع وفى منهج الإسلام ، كما رأينا كيف يقيم الإسلام التوازن فى هذا الكيان البشرى ، بالدخول إليه من منافذه الثلاثة جميعاً ، وربطها كلها بعضها ببعض.. وتوجيهها إلى الله .

والآن نأخذ فى تفصيلات أدق من السابقة .

لقد كانت الروح والعقل والجسم خطوطاً عريضة واسعة المدلول ، ولكن فى النفس البشرية إلى جانب ذلك خطوطاً دقيقة . أو قل أوتاراً دقيقة . والإسلام يوقع عليها جميعاً أنغامها المناسبة ، جميعها فى آن واحد ، ليستخلص منها كما أشرنا من قبل « السيمفونية» البشرية الكاملة المتناسقة الألحان .

وإن من عجائب التكوين البشرى تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية، كل اثنين منها متجاوران فى النفس وهما فى الوقت ذاته مختلفان فى الاتجاه : الخوف والرجاء .. الحب والكره .. الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال .. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية .. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس .. حب «الالتزام» والميل للتطوع .. الفردية والجماعية .. السلبية والإيجابية .. إلخ . كلها خطوط متوازية ومتقابلة . وهى — باختلافها ذلك وتقابلها — تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة ، كأنما

هى أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله ، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط ! وفى الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه وتفسح لمجال حياته ، فلا ينحصر فى نطاق واحد ولا مستوى واحد . وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد فى كل ما نعرف من مخلوقات الله . كيان يرجع فى النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة المعجزة : قبضة الطين ونفخة الروح ..

ومزية الإسلام — فى مسايرته للفطرة — أنه لايترك وتراً من أوتار النفس لا يوقع عليه . ثم هو لايوقع على وتر أكثر من طاقته ، أو يبخسه قدره فلا يوقع عليه مايستحق من نغمات! وبذلك يشمل الكيان الإنسانى كله ،وفوق ذلك يحدث التوازن فى داخل النفس بشدها إلى أوتادها جميعاً فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك ، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تنطق من جانب وتظل فى الجانب الآخر صماء !

وسنعرض فى هذا الفصل طريقة الإسلام العجيبة فى التوقيع على هذه الأوتار المختلفة المزدوجة ، واستخدامها جميعاً وسائل لتحقيق مايهدف إليه من أهداف .

الخوف والرجاء

خطان متقابلان من خطوط النفس ، يوجدان فيها متجاورين مزدوجى الاتجاه .

إن النفس — بطبيعتها — لتخاف وترجو . هكذا ركب فى فطرتها . . يولد الطفل وفيه هذان الاستعدادان متجاورين . يخاف الظلمة ويخاف الوحدة ويخاف السقوط ويخاف الاصطدام ويخاف المناظر التى لم يألفها والأشخاص الذين

لم يألفهم .. ويرجو .. يرجو الأمان والراحة والدفء والاستقرار فى حضن أمه وهو يرضع ، وبعد ذلك فى حضن أمه وفى حجر أبيه وفى يدى من يستريح إليهم من الناس . وينمو الطفل وينمو معه هذان الخطان المتقابلان . وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء ، ولكن الخطين هما هما فى تقابلهما وازدواجهما .. يحددان له مشاعر الحياة واتجاهاتها . يخاف الموت ، ويخاف الفقر ، ويخاف العجز ، ويخاف الخيبة ، ويخاف الخزى ، ويخاف الألم الحسى والمعنوى ، ويخاف المعلوم، ويخاف المجهول .. كلها مخاوف . كلها أنغام مختلفة تصدر عن هذا الوتر الواحد الذى يعتبر — كزميله المقابل له — أقوى الأوتار و « أوسعها » من القمة إلى القرار .. وهو كذلك يرجو .. يرجو الاستقرار والأمن والراحة كما كان يرجوها وهو طفل ، ولكن على مستويات أعلى وأوسع ، ويرجو التوفيق ، ويرجو القوة ، ويرجو المكانة ، ويرجو الجاه ، ويرجو النعيم ، ويرجو آمالا شتى لا تنقضى .. ولا تحصى . كلما تحقق أمل جَدَّ أمل جديد .

والخوف والرجاء بقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله فى أعماقه ، يوجهان فى الواقع اتجاه الحياة ، ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ، ومشاعره وأفكاره . فعلى قدر مايخاف ، ونوع مايخاف .. وعلى قدر ما يرجو ، ونوع مايرجو .. يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف .

الذى يخاف الموت .. لايقدم . والذى يخاف الفقر يجعل همه المال . والذى يخاف السلطان يتحاشى كل عمل يعرضه للصدام . والذى يخاف الألم أو الهزيمة يفر من المعركة .. معركة الحياة الكبرى . وينحسر بنفسه عن المغالبة والاقتحام.

والذى لا يخاف شيئاً من هذا كله فهو متحرر منه ، طليق من ضغطه عليه ، مقتحم متمكن غلاب .

والذى يتطلع إلى الجاه والسلطان والمكانة والغنى والنعيم .. يرسم أهدافه على أساس ذلك ، ويتخذ الوسائل التى توصل لما يريد .

أما إن كان لا يتطلع إلى شىء من ذلك فلن يتخذ له الوسائل، وهو متحرر من ضغطها عليه ، مالك لنفسه إزاءها ، لا يُستعبد ، ولا يهون .

وهكذا يتحكم هذان الخطان فى حياة البشرية . .

والتربية الناجحة توقع على هذين الوترين ما يربى النفس ، ويشفيها من انحرافها ، ويقويها ويقومها ، ويضعها فى وضعها الصحيح .

والإسلام يحكم رباط الوتر أولا قبل التوقيع عليه حتى لا تصدر عنه نغمة نشاز . .

إن الوتر غير المحكم الرباط ، والوتر المشدود أكثر مما ينبغى ، يصدران أنغاماً شاذة تنفر منها الأذن السليمة ، ولا يستريح إليها الوجدان .

ومن أجل ذلك يعمد العازف إلى إحكام الوتر قبل أن يبدأ العزف الحقيقى . . ضربة هنا وربطة هناك .. ثم يستوى الوتر بين أصابعه متقن النغمة سليم الإيقاع .

والإسلام يعمد إلى خَطَّى الخوف والرجاء ، فينفض عنهما أولا كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف ، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح الذى يصدر عن نفس بشرية سوية ينبغى لها أن ترجو وينبغى لها أن تخاف .

ينفض مَن وتر الخوف أولا كل ما يرهق كاهل البشر من مخاوف زائفة .. زائفة لأنه لا طائل وراءها : لا تقدم ولا تؤخر .. ولا تغير شيئاً من واقع الأمر !

ينفض عنه الخوف من الموت ! إذ أنه .. ما قيمته ؟ هل يؤخر الأجل ،

أو يغير المكتوب ؟ كلا ! وما دام لا يغير شيئاً من الواقع فهو إذن أمر لا يليق. إنه تبديد للطاقة وتدمير للكيان .. بلا نتيجة .

لذلك يكرر القرآن هذه الحقيقة فى صور شتى وإيقاعات متنوعة :

« إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير »[1] .

« ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها »[2] .

« كل نفس ذائقة الموت »[3] .

والحذر لا يجدى ولا يغير شيئاً من واقع الأمر :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »[4] .

«قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم»[5] .

وإذن فالخوف من الموت لا يجوز أن يكون . إنها نغمة نشاز تصدر عن وتر الخوف حين يتوتر أكثر مما ينبغى ، ويوشك أن ينقطع من شدة الإيقاع !

والخوف على الرزق كذلك !

« قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله »[6] .

« قل : من يرزقكم من السماوات والأرض ؟ قل : الله »[7] .

---

(١) سورة ق (٤٣) .
(٢) سورة المنافقون (١١) .
(٣) سورة آل عمران (١٨٥) .
(٤) سورة النساء (٧٨) .
(٥) سورة آل عمران (١٥٤) .
(٦) سورة يونس (٣١) .
(٧) سورة سبأ (٢٤) .

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ »[1] .

« أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ »[2] .

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »[3] .

« أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ »[4] .

« إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً »[5] .

« فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه ، واشكروا له »[6] .

« وفى السماء رزقكم وما توعدون »[7] .

« وكأين من دابة لا تحمل رزقها . الله يرزقها وإياكم »[8] .

« وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين »[9] .

« إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[10] .

وكذلك الخوف من أذى الناس ومن أى ضرر توقعه بالإنسان قوى الأرض:

« قل : لا ملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله »[11] .

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[12] .

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله »[13] .

« قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ؟ »[14] .

---

(١) سورة فاطر (٣) .
(٢) سورة الملك (٢١) .
(٣) سورة الرعد (٢٦) .
(٤) سورة الروم (٣٧) .
(٥) سورة العنكبوت (١٧) .
(٦) سورة العنكبوت (١٧) .
(٧) سورة الذاريات (٢٢) .
(٨) سورة العنكبوت (٦٠) .
(٩) سورة الحجر (٢٠) .
(١٠) سورة الذاريات (٥٨) .
(١١) سورة الأعراف (١٨٨) .
(١٢) سورة التوبة (٥١) .
(١٣) سورة النساء (٧٨) .
(١٤) سورة المائدة (٧٦) .

« قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ »[1] .

« قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »[2] .

« أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ »[3] .

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم »[4] .

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ »[5] .

وكذلك الخوف من النتائج المجهولة المبنية على حاضر معلوم :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »[6] .

« فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »[7] .

« وما تدري نفس ماذا تكسب غدا »[8] .

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً »[9] .

وهكذا يتناول القرآن كل المخاوف البشرية الزائفة واحداً واحداً فينفضها

---

(١) سورة الأنعام (٤٦) .

(٢) سورة الأنعام (٦٣ — ٦٤) .

(٣) سورة يس (٢٣) .

(٤) سورة فاطر (٢) .

(٥) سورة آل عمران (١٦٠) .

(٦) سورة البقرة (٢١٦) .

(٧) سورة النساء (١٩) .

(٨) سورة لقمان (٣٤) .

(٩) سورة الطلاق (١) .

عن النفس ، ويرفع عنها إصرها ، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة متمكنة متطلعة ، مطمئنة إلى قدر الله .

ثم يمسك وتر الخوف — الفطرى فى النفس البشرية — فيوقع عليه نغمة الخوف الأصيلة التى ينبغى أن تصدر عن هذا الكيان .

إن قوى الأرض كلها لا تخيف — أو لا ينبغى أن تخيف — لأنها قوى مسخرة . لا تستمد من نفسها ، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، والقوة التى ينبغى أن تُخاف حقا هى القوة التى بيدها كل شىء . هى المانحة حقاً والمانعة حقاً . وإذن فخوفها هو الخوف الواجب . وخشيتها هى السبيل .

الخوف ينبغى أن يكون من الله . ومما يُخَوِّفُ به اللهُ .

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين »[1] .

« أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد »[2] .

« قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[3] .

« ليعلم الله من يخافه بالغيب »[4] .

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » .

« يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »[6] .

---

(١) سورة آل عمران (١٧٥) .
(٢) سورة الزمر (٣٦) .
(٣) سورة الأنعام (١٥) .
(٤) سورة المائدة (٩٤) .
(٥) سورة الأنعام (٥١) .
(٦) سورة النور (٣٧) .

« يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا »[1] .

« إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا »[2] .. إلخ .. إلخ .. إلخ .

أما هذا اليوم الذى كان شره مستطيرا — وهو أخوف ما يخافه القلب المؤمن المستوى على النهج — فهو من أوسع أبواب التخويف فى القرآن . والآيات التى تذكر عذاب الآخرة كثيرة كثيرة منبثة فى تضاعيف القرآن لا تحتاج إلى بيان . ولكن نشير فقط إلى حقيقة بارزة فيها ، هى أنها تشمل جميع أنواع الخوف وكذلك جميع المستويات !

ولقد يغلب على الظن أن العذاب الحسى هو أداة التخويف الوحيدة فى القرآن :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب »[3] .

« فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة »[4] .

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم .. إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم »[5] .

« خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

(١) سورة الإنسان (٧).
(٢) سورة الإنسان (١٠) .
(٣) سورة النساء (٥٦) .
(٤) سورة البقرة (٢١) .
(٥) سورة الصافات (٦٢ — ٦٨) :

فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون»[1]

.. إلخ .. إلخ .

ولـكن الحق أن أدوات التخويف شتى ، وأنغامه متعددة .

فهو تارة يمزج العذاب الحسى بالعذاب المعنوى مع تغليب الحسى :

« فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »[2] .

فهنا وصف مفزع لشدة العذاب ، حتى كأنه إلا فى كلمة « غمٍّ » فهى هنا تلقى ظلال العذاب النفسى بجانب العذاب الجسدى الفظيع .

وتارة يمزج الحسى بالمعنوى على سواء .

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »[3] .

فهنا يجعل الخزى فى الدنيا ، وهو مما يخافه القلب البشرى ، لوناً معجلا من العذاب يضاف إلى عذاب يوم القيامة . والخزى هنا من الله . ومن ثم فهو مخوف حقاً ومرعب حقاً . لأنه خزى من السلطة الحقيقية التى تملك أن تخذل وتخزى . ثم هو خزى لا رادَّ له لأنه من عند الله .

وتارة يغلب العذاب المعنوى :

« نار الله الموقدة، التى تطلّع على الأفئدة »[4] .

---

(1) سورة الحاقة (٣٠ — ٣٧).

(2) سورة الحج (١٩ — ٢٢).

(3) سورة البقرة (٨٥) .

(4) سورة الهمزة (٦ — ٧).

فليس الوجه البارز للنار هنا هو عذابها الحسى ، وإنما هو اطلاعها على الأفئدة ، وما يحدثه ذلك من رهبة فى القلب ، حين تفتح النار عيونها ، وترسلها من خلال النفس لتطلع على الأسرار !

وتارة هو عذاب معنوى خالص :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . والأمر يومئذ لله »(١).

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »(٢).

« إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت. وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد »(٣).

فالهول هنا كله نفسى بحت ، تتذاوب تحته النفس وتنسحق سحقاً دون ذكر لعذاب الأجسام .

وكذلك :

« يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »(٤).

« هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين »(٥)

فالخزى المعنوى هنا هو العذاب . .

وكذلك يرتفع العذاب فى بعض المواضع إلى قمة المعنويات حيث يقول تعالى فى سورة البقرة [١٧٤] :

---

(١) سورة الانفطار (١٩)
(٢) سورة عبس (٣٤ — ٣٧)
(٣) سورة الحج (١ — ٢)
(٤) سورة المعارج (٤٣ — ٤٤)
(٥) سورة المرسلات (٣٥ — ٣٧)

« ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم » .

أو يقول فى سورة آل عمران [٧٧] : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » ..

وهكذا يشمل جميع الدرجات وجميع المستويات !

إن الناس ليسوا كلهم سواسية فى تركيبهم النفسى . منهم الحسيون الذين يأخذون الحياة عن طريق الحس والحواس . وهؤلاء هم أغلبية البشرية ! ومنهم قلة ترتفع عن ذلك المستوى ، فتهمها المواقف النفسية والحالات المعنوية وتؤثر فيها . بل الشخص الواحد يكون حسياً تارة ومعنويا تارة أخرى حسب تقلبات مزاجه وتقلبات ظروفه . ومن ثم يوقع الإسلام على وتر الخوف جميع الأنغام وجميع المستويات ، ليشمل الناس كلهم من جهة ، ويشمل كل واحد فى جميع حالاته من جهة أخرى ، ولا يدع فرصة واحدة تفلت ولا شخصاً واحداً لا يوقع على أوتار نفسه بالنغم الذى يناسبه وبالقدر الذى يطيق !

* * *

والرجاء كذلك . . . يستخدم الإسلام معه المنهج ذاته ليصل إلى التقويم المرغوب .

يبدأ أولا بتحويل الرجاء عن الآمال الكاذبة والقيم الزائفة ، ليوجهه بعد ذلك إلى القيم الحقيقية وإلى الطريق الصحيح .

يرجو البشر كثيراً من ألوان النعيم فى الأرض . المال والبنين . والشهوات . والجاه والعزة والسلطان والقوة . . إلى آخر أنواع المتاع الجسدى والنفسى . والإسلام — كما قلنا فى الفصل السابق — لا يحرم المتاع النظيف ولا يدعو إلى الرهبنة والانصراف عن شئون الأرض ، بل يدعو إلى ذلك المتاع

دعوة صريحة ويستنكر تحريمه : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ! قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[1] . ولكنه مع ذلك لا يحب للناس أن يوغلوا في طريق الشهوات فتفتنهم عن القيم الحقيقية الباقية الخالدة حين يزول متاع الأرض القريب . ومن هنا يكرر في مواضع كثيرة أنه لا يحرم طيبات الأرض ولا يستنكرها ، ولكن « الباقيات الصالحات خير وأبقى » .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد »[2] .

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا »[3] .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا »[4] .

« قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى »[5] .

« وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »[6] .

« وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين »[7] .

إلخ .. إلخ ...

---

(١) سورة الأعراف (٣٢) .
(٢) سورة آل عمران (١٤ — ١٥)
(٣) سورة الكهف (٤٦) .
(٤) سورة الكهف (٢٨) .
(٥) سورة النساء (٧٧) .
(٦) سورة العنكبوت (٦٤) .
(٧) سورة الزخرف (٣٥) .

إنه يوجه القلب البشرى — مع الاستمتاع بطيبات الأرض وتعميرها والمشى فى مناكبها ابتغاء الرزق — ألا تفتنه هذه المتع الأرضية ولا تستغرق كيانه. ويوجهه أن يرجو — فى الدنيا والآخرة — وجه الله، ويتطلع إلى مثوبته ورضاه.

وكان عذاب الآخرة أوسع أبواب التخويف، فكذلك نعيم الآخرة أوسع أبواب الرجاء.

وما قيل عن العذاب هناك يقال هنا عن النعيم.

إن المتبادر إلى الذهن أن النعيم الحسى هو صورة الجنة الأخروية التى وعد الله بها المتقين:

« على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون »[1].

ولكن على الرغم من تكرار الوصف الحسى فى مشاهد النعيم، فإنه يندر أن يجىء وحده، ويغلب أن يمتزج النعيم الحسى بالنعيم المعنوى فى كل مشهد. فحتى الآيات السابقة، وهى أشد مشاهد النعيم حسية فى القرآن كله تقريباً، يجىء بعدها: « جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما ». فينتهى النعيم الحسى بذلك الجو المطهر الذى لا لغو فيه ولا تأثيم، والذى يشمل النفوس فيه سلام يتردد صداه فى جنبات الجنان.

---

(١) سورة الواقعة (١٥ — ٢٤).

وثمت كثير من ألوان النعيم المعنوى تجىء متناثرة فى سور القرآن ، إما وحدها وإما ممتزجة بالنعيم الحسى كما رأينا فى المثال السابق .

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلّون فيهامن أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد »[1] .

« إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم »[2] .

« وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنةعالية ، لاتسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة »[3] .

« وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة »[4] .

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى »[5] .

وفى هذا المثال الأخير يتبدى النعيم الروحى الخالص الذى لا تشوبه شائبة من متاع حسى . إنه الطمأنينة والرضا فى رحاب الله . والله ينادى هذه «النفس» فيقول لها ارجعى إلى « ربك » راضية مرضية ، ثم يحيطهابرعايته العلوية الشفيفة فيقول لها ادخلى « فى عبادى » « وادخلى جنتى » بما فى الإضافة إليه سبحانه من تقريب وتكريم .

---

(١) سورة الحج (٢٤)
(٢) سورة المطففين (٢٢ — ٢٤).
(٣) سورة الغاشية (٨ — ١٦) .
(٤)سورة عبس (٣٨ — ٣٩) .
(٥) سورة الفجر (٢٧ — ٣٠) .

وشبيه بذلك فى سورة مريم [٩٦] « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .

فهنا يرتفع النعيم ويلطف ويشف حتى يصبح « ودا » من الله لعباده . وذلك أروع المتاع .

إن الناس كما قلنا صنوف شتى ، ومستويات شتى . فيهم من يأخذ الحياة حسا ، ومن يأخذها معنى . وكل بشر إلى جانب ذلك تعتوره هذه الحالة وتلك ، أو يمزج بينهما فى اللحظة الواحدة . ومن ثم جاء التوقيع القرآنى أنغاماً شتى على ذلك الوتر الواحد ، تشمل الحسيات والمعنويات جميعاً . كما أن وصف القرآن للنعيم الحسى يعطيه طعماً خاصاً حبيباً حتى للذين لا يحفلون كثيرا بعالم الحس !

* * *

من هذين الوترين المتقابلين المتجاورين يمسك الإسلام بزمام النفس البشرية ! فيعدها ويمنيها ، ويخوفها ويرهبها . . وفيما بين ذلك يغرس فيها كل البذور الصالحة التى يقصد إلى غرسها فى قرارة النفوس .

إنه يربط بهذين الخطين — المعروفين فى اصطلاح المؤلفين المسلمين باسم الترغيب والترهيب — يربط بهما كل نشاط البشرية .

فالقرآن يربط توجيهاته كلها ، وأوامره ونواهيه بهذا الخط أو ذاك ، أو بهما مجتمعين ، ويكرر ذلك تكراراً حتى تتلازم فى أعماق النفس ، ويصبح هذا التلازم قوة شعورية ولا شعورية توجِّه إلى الخير وتُبعد عن الشر :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا »(١) .

---

(١) سورة الكهف (١٠٧ — ١٠٨)

« الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »[1] .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم » .

ثم تجيء الآيات الأخرى تفصل هذا الإيمان والعمل الصالح ، فتبين « مفرداته » المتعددة .

« يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن . ذلك الفوز العظيم »[2] .

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى — بعضكم من بعض — فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله . والله عنده حسن الثواب »[3] .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »[4] .

---

(١) سورة يونس (٦٣–٦٤) .
(٢) سورة الصف (١٠–١٢) .
(٣) سورة آل عمران (١٩٥) .
(٤) سورة آل عمران (١٦٩–١٧١) .

« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين »(١) .

« وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم »(٢) .

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما »(٣) .

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٤) .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٥) .

« ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة »(٦) .

(١) سورة التوبة (٢٤) . (٢) سورة التوبة (٦٨) .
(٣) سورة الفرقان (٦٨ — ٧٠) . (٤) سورة البقرة (٢٦٢) .
(٥) سورة البقرة (٢٧٥) . (٦) سورة الهمزة (١ — ٩) .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »[1] .

وهكذا يوقع الإسلام على هذين الوترين المتقابلين جميع أنغام الخوف والرجاء التى يمكن أن تعرض لحياة البشر على الأرض . ويصل من ذلك التوقيع المنوع النغمات المتجدد الألحان إلى تحرير النفس من الخوف الأرضى والتعلق بمتاع الأرض الزائل ، وإطلاق البشرية عاملة فى سبيل الخير ، فى كل ميدان من ميادين العمل : فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وعمارة الأرض ، على أسس من نظافة الخلق ونظافة الضمير ، ابتغاء مرضاة الله ، وفراراً من عذاب الله ، كما يصل إلى تهذيب الضمير البشرى وإرهافه إلى الدرجة التى ينتفض فيها صاحياً لأقل لمسة وأبسط توجيه ، حتى يكفى أن يظن أن ذلك يرضى الله فيعمله ، ويكفى أن يظن أن ذلك يغضب الله فيبتعد عنه . وكذلك كان المسلمون الأوائل الذين رباهم القرآن . وصلت حساسيتهم المرهفة — واطمئنانهم مع ذلك إلى الله — إلى حد كانوا يعيشون فيه مع الله نهارهم وليلهم ، لا ينصرفون عنه فى عمل أو راحة . وكانوا بذلك كما حدث عنهم خالقهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . صدق الله العظيم .

الحب والكره

والحب والكره خطان آخران من خطوط النفس المزدوجة المتقابلة ، يشملان مساحة واسعة من النفس ، ومساحة واسعة من الحياة . . إنها مساحة قريبة من تلك التى يشملها الخوف والرجاء .

---

(١) سورة آل عمران (١٣٣ — ١٣٤) .

وكما صنع الإسلام فى الخطين الأولين ، كذلك يصنع فى هذين الخطين ، فيحكم أولا رباط الوترين المتجاورين ، ثم يوقع على كل منهما النغمة التى ينبغى أن تصدر عنه بلا تراخ ولا توتر شديد .

إن الإنسان يحب نفسه . كذلك ركِّب فى فطرته : « وإنه لحب الخير لشديد »[1] . يحب أن يستمتع بكل لون من ألوان الملذات الحسية والمعنوية . يحب أن يكون بارزاً ظاهراً قوياً متمكناً ذا سلطان . يحب أن يقهر ويتغلب . يحب أن يستحوذ على كثير . يحب أن يُعَمَّر وأن يخلد . يحب أن يكون نقطة ارتكاز الكون !

وإنه ليكره . . يكره كل ما يقف فى سبيل هذه الشهوات . يكره العوائق المادية أو المعنوية التى تقفه دون تحقيق رغباته . يكره الناس حين يحس أنهم يشاركونه فيما يحب أن يستحوذ عليه وحده . يكره كل أذى يقع عليه وكل اعتداء . . .

تلك نغمات تصدر عن وترى الحب والكره فى النفس البشرية . بعضها صالح وكثير منها نشاز !

والإسلام لا يحارب الفطرة ولكنه يهذبها . إنه يريد للناس أن يحبوا وأن يكرهوا . . لأن هذه فطرتهم . ولكن الحب على إطلاقه والكره على إطلاقه يدمران النفس ويبددان طاقتها ، ويوزعانها ، ويستعبدانها فلا تملك الخلاص ! وحين ينقلب الحب والكره إلى شهوة لا ضابط لها فإنها لا تصطدم بالآخرين فحسب ، بل يتصادم بعضها ببعض داخل النفس وتؤدى إلى البوار .

من أجل ذلك يضع الإسلام « ضوابط » لشهوة الحب والكره . ضوابط

---

(١) سورة العاديات (٨) .

تتصل بالروح ، وضوابط تتصل بالعقل . وجميعها يتصل بالله .

ولا يكره الإسلام للناس أن يحبوا أنفسهم ! فحب النفس كما قلنا من قبل دافع فطرى قوى ، وهو من أكبر الحوافز على العمل والتعمير والإنتاج ، وكلها أهداف يحفل بها الإسلام ويعمل على تنشيطها بكل سبيل .

ولكنه لايفهم حب النفس على أنه الانحراف وراء الشهوات ! بل على العكس يعتبر ذلك ظلماً للنفس . وإنه لكذلك فى الحقيقة . فالذى يطلق لنفسه العنان فى كل ما توسوس به يظلمها ويوردها موارد الهلاك(١) . إنه يفهم حب النفس على أنه النصيحة لها والتوجيه الصالح . التوجيه الذى تتحقق به سعادتها فى الدنيا والآخرة . وفى الآخرة على وجه التخصيص . فهى الدار الباقية . نعيمها خالد وعذابها مقيم . بينما الحياة الدنيا « لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما »(٢) . فأية حماقة فى أن يبيع الإنسان الدار الباقية ونعيمها الخالد ، بنعيم زائل لا يمتع المتعة الكاملة حتى فى هذه الدنيا ، فهو دائماً مشوب ، وأقل الشوب أنه صائر إلى الفناء ؟ !

كلا ! ما هكذا ينبغى أن يكون حب النفس ! إنما الحب الحقيقى أن يصون الإنسان نفسه من مذلة العبودية فى الأرض للشهوة ، ومذلة الخزى والعذاب يوم الجزاء .

ولكى يصل الإسلام إلى ذلك فإنه يوقع على وتر الحب أنغاما جميلة شفيفة رائقة تنتهى فى النهاية إلى أن يحب الإنسان نفسه فى وضعها الصحيح !

يوقع أولا نغمة الحب لله .. وإنها لتوقيعات شتى .

---

(١) انظر الفصل السابق « تربية الجسم » . (٢) سورة الحديد (٢٠) .

فالله هو الواهب المنعم الذى وهب الحياة للإنسان . ووهب له كل ما يملك من طاقات ومزايا وصفات .

« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم »[1].

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان »[2].

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى »[3].

« وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً »[4].

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك »[5].

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة »[6].

« والله خلقكم وما تعملون »[7].

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[8].

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[9].

« الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين »[10].

« ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين »[11].

والله هو الذى يسر للإنسان الحياة على سطح هذا الكوكب ، ووهب له كل « الإمكانيات » اللازمة له ، والمساعدات التى تجعل الحياة ممكنة وميسرة وجميلة :

---

(١) سورة التغابن (٣) .
(٢) سورة الرحمن (١ — ٤)
(٣) سورة الأعلى (١ — ٢)
(٤) سورة مريم (٩) .
(٥) سورة الانفطار (٦ — ٧) .
(٦) سورة الروم (٥٤) .
(٧) سورة الصافات (٩٦) .
(٨) سورة الإسراء (٧٠) .
(٩) سورة التين (٤) .
(١٠) سورة السجدة (٧) .
(١١) سورة البلد (٨ — ١٠)

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً »[1].

« ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالناس لرءوف رحيم »[2].

« وسخر لكم ما فى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه »[3].

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور »[4].

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا »[5].

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[6].

« والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون »[7].

« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ »[8].

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »[9].

والله بعد ذلك بعباده رءوف رحيم . ولا يكلفهم فوق طاقتهم ، ويريد لهم الخير :

---

(١) سورة البقرة (٢٩).
(٢) سورة الحج (٦٥) .
(٣) سورة الجاثية (١٣) .
(٤) سورة الأنعام (١).
(٥) سورة النحل (٨١) .
(٦) سورة الروم (٢١) .
(٧) سورة الزخرف (١٢) .
(٨) سورة يس (٧١ — ٧٣).
(٩) سورة النحل (٦٦ — ٦٩).

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[1] .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »[2] .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[3] .

ثم هو — رغم ذلك — يغفر للمسيئين والمخطئين ما داموا لا يصرون على الإثم :

« والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين »[4] .

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً »[5] .

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »[6] .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[7] .

« إن الله يغفر الذنوب جميعا »[8] .

فمن أولى من الله بالحب . الله المنعم الوهاب . الغفور التواب ؟

* * *

ويوقع نغمة الحب للكون الذى خلقه الله .. فالإسلام — كما قلنا

---

(١) سورة الحج (٧٨) .
(٢) سورة البقرة (١٨٥) .
(٣) سورة البقرة (٢٨٦)
(٤) سورة آل عمران (١٣٤ـ١٣٦)
(٥) سورة الفرقان (٧٠)
(٦) سورة الزمر (٥٣)
(٧) سورة النساء (٤٨)
(٨) سورة الزمر (٥٣)

من قبل — يعقد صداقة قوية بين الكون والإنسان . صداقة الأخوة فى الصدور عن الله (وقد كشف العلم الحديث عن وحدة البناء فى الكون والحياة والإنسان) وصداقة العبادة المشتركة والتسبيح المشترك لله . وصداقة الإحساس بتسخير الكون لمنفعة الإنسان .

ويوقع نغمة الحب للكائنات الحية التى تشارك الإنسان سكنى الأرض .

ثم يوقع نغمة الحب لبنى الإنسان ..

إن الناس الذين خلقهم الله من نفس واحدة ، لابد أن يكونوا أحبة .. فهم إخوة . إخوة فى الخلقة وإخوة فى الرحم . وإخوة فى الحياة على سطح هذا الكوكب . وإخوة فى المصالح المشتركة . وإخوة فى المنشأ والمصير .

والقرآن يذكر بهذه الأخوة ، ويحقها على الناس ، فى صور جميلة أخاذة تهز الوجدان :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيراً و نساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام »[1] .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً »[2] .

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[3] .

« ولا تلمزوا أنفسكم »[4] .

---

(١) سورة النساء (١)

(٢) سورة آل عمران (١٠٣)

(٣) سورة الحشر (٩)

(٤) سورة الحجرات (١١)

« ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه »[1] .

« ولا تنسوا الفضل بينكم »[2] .

وأحاديث الرسول الكريم فى ذلك الباب كثيرة ، جميلة شفيفة :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[3] .

« وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ! »[4] .

« وتلقى السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[5] .

« إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يارسول الله ؟ قال : هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب،وجوههم نور ، على منابر من نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[6] .

وهى كلها توجيهات إلى الحب الصافى الرائق الذى يليق بالإخوة البررة الكرام ..

وحين يوقع الإسلام أنغام الحب هذه كلها ، فإنها — بطبيعتها — توازن حب الإنسان لنفسه ، وتضعه فى وضعه الصحيح ، الذى لا يظلم ولا يجور ، ولا يغتصب لنفسه حقوق الآخرين .

* * *

أما الكره فيوجه إلى قوى الشر فى الأرض .

---

(١) سورة الحجرات (١٢)
(٢) سورة البقرة (٢٣٧)
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه ابن حبان والبيهقى .
(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة .
(٦) رواه النسائى وابن حبان .

إنه لا يجوز للإنسان أن يكره الله سبحانه ، أو يكره رسوله ، أو أياً من ملائكته ورسله ؛ ولا يجوز له أن يكره الكون ، ولا الحياة ، ولا بنى الإنسان .. ولكن عليه أن يستخدم طاقة الكره الفطرية فى كراهية الشر بجميع صوره وجميع ألوانه ، وحيثما كان .

الظلم بجميع ألوانه شر ينبغى أن يُكْرَه وأن يقاوم :

« ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »(١) .

والعدوان شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »(٢) .

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »(٣) .

والاعتداء على الضعفاء فى الجماعة شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً »(٤) .

وقبول الاعتداء على النفس يسميه القرآن ظلماً للنفس ويتوعد من يقبله ، ويدعو إلى مقاومته :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان

(١) حديث قدسى أخرجه مسلم .
(٢) سورة البقرة (١٩٤)
(٣) سورة البقرة (١٧٩)
(٤) سورة النساء (٧٥)

لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً »[1] .

وفتنة الناس عن دينهم شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« والفتنة أشد من القتل »[2] . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »[3] .

والإفساد فى الأرض ومحاربة الله ورسوله ، والصد عن سبيله شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »[4] .

والفواحش ما ظهر منها وما بطن شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »[5] . « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة »[6] .

وكل انحراف عن سبيل الله شر ينبغى أن يكره وأن يقاوم :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان »[7] .

وجماع الشر كله هو الشيطان .. هو الذى يتمثل فيه الشر كله ، وهو الذى يدعو إلى كل شر ، ومن ثم ينبغي أن توجه له طاقة الكره كاملة ، وتعلن عليه حرب لا هوادة فيها ولا تسليم :

---

(١) سورة النساء (٩٧ — ٩٩)
(٢) سورة البقرة (١٩١)
(٣) سورة البقرة (١٩٣)
(٤) سورة المائدة (٣٣)
(٥) سورة النور (٢)
(٦) سورة النور (١٩)
(٧) حديث متفق عليه .

« ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيراً . أفلم تكونوا تعقلون ؟ »[1] .

والمؤمن بكل طاقاته مجند حياته كلها لدفع هذا الشر ومحاولة التغلب عليه ..

وبذلك يتوازن الحب والكره .. ويصدر عن كل وتر منهما نغمه الصحيح .

الواقع والخيال

فى فطرة الإنسان طاقتان متقابلتان . طاقة الواقع وطاقة الخيال .

وينبغى — لكى يحقق الإنسان كيانه كله — أن تعمل فيه هذه الطاقة وتلك ، وأن يمارس نشاطه هنا وهناك .

وقد تقلبت النظم الأرضية فى ذلك كثيراً بين الخيال والواقع ، تجنح هنا مرة وهناك مرة ، ولا تتوازن فى كثير من الحالات .

والعالم اليوم يعانى موجة من « الواقعية » البغيضة ! وقد جاءت بعد موجة مغالية فى « الرومانتيكية » المغرقة فى الخيال !

كلاهما انحراف !

كانت الرومانتيكية تهمل واقع الأرض وتهيم فى الأحلام . والواقعية اليوم تتنكب الأحلام عمداً وتجنح إلى الواقع الصغير المحدود الذى تدركه الحواس ، ويمارسه الناس وهم واقعون تحت ضغط الضرورة ، لا منفلتين منها ولا مترفعين عليها . واقع المادة وواقع الحيوان ![2] .

---

(١) سورة يس (٦٠-٦٢)

(٢) انظر كتاب « معركة التقاليد » وفصل « فوق الواقع » من كتاب « فى النفس والمجتمع » .

إن هذا الواقع الصغير الذى رسمت حدوده الداروينية القديمة[1] لينتهى بالحياة عند المطالب القريبة التى تحتمها الضرورة، ولا يرتفع عن ذلك، ولا يحلم بما هو أجمل أو أكمل أو أفضل. ومن ثم يظل مستواه يهبط، ويظل محيطه يضيق، حتى يصل فى النهاية إلى جعل الإنسان آلة حيوانية، يتصرف كما تتصرف الآلة، وينطلق كما ينطلق الحيوان.

لأنه يعيش بجناح واحد.. جناح الواقع، ويقص جناحه الآخر.. جناح الخيال.

أو الأوفق أن نقول: إنه يعيش بقدميه المربوطتين إلى الأرض، ويقص جناحيه المحلقين فى السماء.

والإسلام — كعهده دائماً — يحب أن يستغل الطاقات البشرية جميعاً، ويوقع على كل أوتار النفس، ليصل من ذلك إلى التوازن فى الكيان البشرى، وإلى تنمية هذا الكيان وتوسيع آفاقه، ليليق ببنى الإنسان.

من أجل ذلك يوقع على الوترين المتقابلين، كل فى نطاقه، وكل بما يصلح له.

فأما طاقة الواقع فيعطيها عملها الكامل فى نطاق الحياة الدنيا ونطاق الأرض.

إقامة الدولة، وتنظيمها، وحمايتها. وتنظيم المجتمع بحاجاته المادية والاقتصادية والسياسية والتعليمية .. إلخ. واستخلاص معادن الأرض وطاقاتها واستغلالها لمنفعة البشر. وتنظيم العلاقات مع الدول الأخرى فى الحرب والسلم.. إلخ.. إلخ..

كل ما «يحتاج» إليه الإنسان فى الأرض. كل «الضرورات» التى لا يستغنى عنها. كل العلوم. كل المخترعات. كل التنظيمات..

(١) تمييزاً لها من الداروينية الحديثة Neo Darwinism التى تؤمن بتفرد الإنسان واتساع آفاقه عن محيط الحيوان (انظر معركة التقاليد).

ولـكنه لا يقنع بالضرورة . لا يحجّر مشاعر الناس ويوقفها فى حدودهذا الواقع الصغير . لـكى لا تفسد . لـكى لا تهبط . لـكى لا يأ كلها الصراع على عالم المادة . لـكى لا يأ كل مشاعرها الحقد والحسد والأطماع .

إنه يلبي الفطرة الإنسانية . بل الفطرة الحية على إطلاقها . . بل فطرة الخليقة حتى فى الجماد !

إن الجبال لا تـكتفى بأن تـكون جبالاً . . ولـكنها تـكون جميلة ورائعة مكسوة بالثلوج أو مكسوة بالغابات !

إن السحاب لا يـكتفى بأن يكون سحاباً يحمل الماء . . ولـكنه كذلك يكون جميلاً بأشـكاله وألوانه . ثم ينتشر عليه فى بعض الأحيان طيف الشمس (قوس قزح) فى منظر رائع جميل !

إن النبات لا يكتفى بأن يكون نباتاً ، ولـكنه يورق ويزهر ، ويستمتع منه الإنسان بزهره الأريج وشكله البهيج !

إن الطير لا يكتفى بأن يكون طيراً ، ولـكنه يسقسق ويغرد ويلعب ويقفز ، وتزهو منه الألوان !

إن الحيوان لا يكتفى بأن يكون حيواناً ، ولـكنه يقفز ويمرح ، و « يتخابث » فى لطف ويُستألف للإنسان !

آلإنسان وحده هو الذى يراد له أن يعيش فى عالم « الضرورة » وعالم «الواقع» ؟ آلإنسان وحده هو الذى يراد له أن يخالف الـكون وفطرة الحياة ؟

من يقول ذلك ؟ إلا من انحرفت فطرته وفسدت سجاياه !

كلا ! لا يقبل الإسلام أن يحصر الإنسان فى حدود هذا الواقع الصغير . إنما يريد له أن يعيش فى « الواقع الـكبير » الذى يشمل الضرورة والانفلات

من عالم الضرورة . يشمل ما هو كائن وما ينبغى أن يكون . . فكلاهما عنصر أصيل فى الإنسان .

لذلك يشغل طاقة الخيال لتساند طاقة الواقع ، وترفعها عن قيود الواقع المحدود.

يشغلها فى تخيل الكمال المطلق بقدر ما تطيق . . لأن تخيل الكمال المطلق يجعلها تهفو لإصلاح «الواقع» ومحاولة الوصول به إلى الكمال . ومن ثم يصبح الخيال واقعاً بعد حين ! ويرتفع مستوى البشرية كلها بقدر ما تطيق !

ويشغلها فى تصور الكمال والجمال فى العالم الآخر .. فيغذى خيالها بمثات من المناظر والمشاهد والصور والحالات . يكفى قولة الرسول عن الجنة : « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! » إن هذه الجملة وحدها لتفتح للخيال طاقة يطل منها على الجمال المطلق والكمال المطلق .. طاقة لا تكفى فرداً بمفرده ، ولا جيلا بمفرده .. وإنما هى للبشرية كلها فى جميع الأجيال ! وهى بعد ليست خيالاً لمجرد المتعة والتلذذ السلبي الذى لا هدف له ولا غاية وراءه . « ربنا ما خلقت هذا باطلا ! سبحانك ! » وإنما الهدف هو إصلاح القلب البشرى على الأرض ، ليعمل الإنسان فى الأرض وقلبه متجه إلى السماء . وليرعى الله فى كل عمل لينال ثوابه ومغفرته ورضاه . ومن ثم يرتبط الواقع والخيال كلاهما بالله . ويعمل الواقع والخيال كلاهما لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة !

الحسية والمعنوية

وقريب من الخطين السابقين هذان الخطان المتقابلان : الطاقة الحسية والطاقة المعنوية ، كل منهما مكملة للأخرى ، وكل منهما تعمل فى اتجاه .

الطاقة الحسية هى طاقة الجسد المتصلة بالحواس والأعصاب والكيماويات والبيولوجيات والفسيولوجيات . والطاقة المعنوية لايدرى أحد على وجه التحديد « مكانها» و «ماهيتها» ولكنها هى التفكير التصورى التجريدى الذى يدرك « الكليات » و « المعنويات » . يدرك « القيم العليا » . يدرك « الفضيلة » . يدرك « العدل » . يدرك « الحق » . يدرك « الجمال » .. وما إلى ذلك من كليات ومعنويات وتجريدات .

يقول جوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » فى فصل « تفرد الإنسان » : « أول خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصورى . . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ،وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة . . » ويقول فى موضع آخر من نفس الفصل : « وهذه الخواص الذى امتاز بها الإنسان ،والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية ، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان ، وهى بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية ، ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية والتذوق والإبداع الفنيين، والدين، والحب المثالى » .

هاتان الطاقتان إذن موجودتان فى الإنسان . ولكن الطاقة التى تعتبر

« إنسانية » بصفة خاصة ، الطاقة التي يتفرد بها الإنسان ولا وجود لها في الحيوان ، هي الطاقة المعنوية التي تدرك الكليات والمعنويات والتجريدات . ومع ذلك فالجاهلية الحديثة التي يعيش بها الناس في القرن العشرين ، تجنح رويداً رويدا إلى إهمال هذه الطاقة التي هي إنسانية بصفة خاصة ، وتكبير الطاقة الأخرى المشتركة بين الإنسان والحيوان .

إن الجاهلية الحديثة لا تستغل الطاقة المعنوية إلا في مجال واحد . مجال « العلم » بنظرياته وتطبيقاته . وإنه ولا شك مجال ضخم . وإنه ليفتح آفاقاً جبارة كل يوم ، ويدفع بالبشرية — في هذا المجال — إلى الأمام . ولكن مجال هذه الطاقة أوسع بكثير من ميدان العلم . إنه يشمل كذلك الفن . والعقيدة . والفضائل . والأخلاق . والقيم العليا . . يشمل أرفع جوانب الإنسان .

والفن في العالم الحديث رغم إمكانياته الضخمة يتدهور كل يوم وينحدر بدعوى « الواقعية » التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة . واقعية المادة وواقعية الحيوان . ومن ثم يفقد رفرفته وطلاقته ، ونشدانه الدائم للجمال والكمال . أما العقيدة وما ينشع عنها من فضائل وأخلاق وقيم عليا . . فقد ظلت تتضاءل في العالم الحديث بتأثير الجاهلية المسيطرة عليه ، حتى صارت أسطورة يتندر بها الناس . . ويضحكون . . ويهزأون ! تماما كما كانوا في جاهليتهم الأولى . وكما يكونون في كل لحظة يتخلون فيها عن كيانهم الإنساني الأصيل ، ويخلدون إلى الأرض وينحصرون في دنيا الحيوان : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث »[1] .

(١) سورة الأعراف (١٧٥ ـ ١٧٦)

أما الإسلام فعلى عهده دائماً ، مساير للفطرة مرتفع معها إلى آخر ما تطيق الارتفاع ، لا يتخلى عن مهمته مهما كانت الظروف .. لا تيئسه الجاهلية التى يجد عليها الناس . فإنما جاء ليبدد الجاهلية وينشر المعرفة الصحيحة . وتلك مهمته الدائمة فى حياة البشرية .

الإسلام يساير الفطرة بشقيها ، فيعطى الطاقة الحسية غذاءها ، ويمنح الطاقة المعنوية مجال العمل والإبداع .

كل لذائذ الحس مباحة ما دامت فى الدائرة المأمونة النظيفة التى لا تضر بالفرد ولا تضر بالمجموع . لذائذ الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس .. وما يبتدعه الإنسان من أدوات تُيَسّر حياته وتوفر جهده وتمتع حسه المتعة الحلال .. وفى ذلك غذاء كامل لطاقة الحس .

أما الطاقة المعنوية .. الطاقة التى هى إنسانية أصيلة .. الطاقة التى تميز بها الإنسان عن الحيوان .. فالإسلام يحتفل بها احتفالا ضخما ، ويجعلها هى أساس الحياة الإنسانية ، بما أنها هى أساس إنسانية الإنسان .

أول ما يحتفل بها يمنحها العقيدة . العقيدة على شمولها واتساعها وطلاقتها . العقيدة بمعنى الإيمان بوجود الله ووحدانيته . وبمعنى العبادة لله وإخلاص الدين له . وبمعنى تصور الكون والحياة على أساس هذا الإيمان بالله . وبمعنى الإيمان بالحق الذى خلق به الله السماوات والأرض . وبمعنى إحقاق هذا الحق على ظهر الأرض . وبمعنى إقامة المجتمع الإنسانى على أساس الحق الإلهى الذى نزل به القرآن . وبمعنى الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق وفى سبيل الإسلام .. الجهاد فى سبيل إقامة مجتمع نظيف متوازن يؤمن بما أنزل الله ، ويحكم بما أنزل الله .. تلك هى العقيدة التى يبذرها الإسلام فى النفوس ، ويغذى بها الطاقة المعنوية فى الإنسان .

والحياة فى ظلال هذه العقيدة متعة للنفس ما بعدها متعة .. متعة الاتصال الدائم بالله ، وتوسيع آفاق الإنسان حتى تتصل بالكون كله على اتساعه وتصبح طاقة كونية ممتزجة بطاقة الكون ، داخلة فى ناموسه الأكبر غير منفصلة عنه ، وغير منحصرة بذاتها الصغيرة الفانية عن طاقة الحياة .

وهذا الكلام ليس شعراً ! إنما هو واقع ! واقع يكشف عنه العلم الحديث خطوة بعد خطوة كلما فتح الله عليه سراً من الأسرار ! ولقد كان اكتشاف الطاقة الذرية والجاذبية الكونية حدثاً فى تاريخ العلم . وهو كذلك حدث فى تاريخ « المعرفة » بمعناها الواسع . فقد كشف للإنسان أن تقسيم الكون إلى مادى ولا مادى يوشك أن يصبح خرافة ! وأن الكون كله فى حقيقته مجموعة من «الطاقات» متحركة على الدوام ، مترابطة على الدوام ، فإذا اختلت فسد ترابطها وانفجرت وتبددت فى الآفاق . والإنسان أحد هذه الطاقات الكونية ، يحكمه الناموس ذاته وتوجهه إرادة الله الواحد الذى خلق الكون والحياة والإنسان . ومن ثم فهو حين يتجه لله وحده بالعبادة ، فهو يصنع مايوحى به ناموس الكون الأكبر الذى هو بضعة منه . وحين يتجه للكون بالحب فهو يتجه إلى « أخ » له فى الخلقة والطبيعة . وحين يتجه إلى « الإنسانية » بالحب ويتحرك ويعمل فى نطاق ذلك الحب ، فهو يحقق ناموس الكون الذى يقول إن الكون « طاقات » متجاذبة مترابطة متحركة فى ترابطها وتجاذبها على الدوام .

ومن ثم كذلك تصبح «الفضائل» كلها من صدق ونظافة واستقامة وتطهر ، و « القيم العليا » كلها من حق وعدل وجمال وكمال . . جزءاً من بنية الكون وبنية الإنسان . جزءاً من فطرة الخليقة التى خلقها الله . ويصبح الإنسان طاقة كونية ، ويصبح متجاوباً مع الفطرة ، ومتمشياً مع الناموس . . كلما تمسك بهذه الفضائل

وهذه القيم . . كما يصبح ناشزاً عن الفطرة ، منحرفاً عن الناموس ، منفصلا عن طاقة الكون ، منحصراً بذاته الصغيرة فى حدودها الضيقة ، كلما بعد عن هذه الفضائل وهذه القيم وأخلد إلى الأهواء والشهوات .

ذلك هو التصور الإيمانى للحياة . وتلك هى حقيقة الواقع التى يكشف عنها العلم يوما بعد يوم . والإسلام يجعل هذا التصور قاعدته الأساسية ، ويجعله كذلك غذاء كاملا للطاقة المعنوية ، التى هى الأساس الإنسانى للإنسان .. وهو لا يجعله متعة أحلام وتأمل منقطعة عن الواقع ! كلا ! فكل شىء فى الإسلام له غاية ! غاية عليا هى صلاح القلب الإنسانى واستقامته على الفطرة التى فطره عليها الله . ومن ثم فإن الإسلام لا يميل كثيراً إلى «الفلسفة» التجريدية البحتة التى تدور وتدور وتدور .. ثم ترجع من حيث بدأت ، ولا تمنح البشرية غذاء حقيقياً صالحاً للحياة . والإسلام لا يكره التأمل فى ملكوت الله . بل يدعو إليه دعوة حارة قوية ملحة ، ولكنه يخرجها من توها أن تصبح تأملات فى البرج العاجى ، فيربطها بواقع العمل وواقع الشعور وواقع السلوك . ويجعل لها صدى مباشراً فى حياة الناس على الأرض . كما رأينا فى ذلك المنهج الذى يبناه فى تربية العقل ونحن نستعرض الآيات : « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ! سبحانك فقنا عذاب النار . . . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . . » فهو تأمل يؤدى مباشرة إلى الإيمان . والإيمان يؤدى مباشرة إلى العمل وإلى الجهاد فى سبيل تحقيق التصور الإيمانى الذى أنشأه التأمل فى الملكوت . وبذلك يرتبط الحسى والمعنوى فى واقع الحياة كما هما مرتبطان

فى واقع النفس . ويكون هذا الدين العجيب المعجز هو « دين الفطرة » كما حدّث عنه القرآن الكريم : « فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » .

ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس

وقريب من الخطين السابقين هذان الخطان الآخران : الإيمان بما تدركه الحواس ، والإيمان بما لا تدركه الحواس[1] .

إنهما طاقتان فطريتان فى كيان الإنسان . كلتاهما إنسانية أصيلة، فالحيوان لا « يؤمن » بشيء من الأشياء . ومع ذلك فالإيمان بما تدركه الحواس ليس هو مزية الإنسان العظمى ، إذ هو أقرب فى طبيعته للطاقة الحسية المشتركة بين الإنسان والحيوان . أما القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس فهو المزية الأساسية للكائن البشرى ، والموهبة العظمى التى وهبها الله للإنسان .

وعلى الرغم من هذه البديهية التى يؤيدها العلم التجريبي نفسه — كما ذكرنا من قول جوليان هكسلى — فالجاهلية الحديثة تطمس بصيرة الإنسان فى هذا الجانب ، وتحدد كيانه ، وتحصره فى محيط ما تدركه الحواس وحده .. وتقول إن هذه هى « الواقعية » !

« إن حقيقة العالم تنحصر فى ماديته » ! . . كذلك يقول المذهب المادى على لسان ماركس . وكذلك يؤمن الغرب كله بصرف النظر عن مذاهبه

---

(١) هذه الخطوط الثلاثة: الواقع والخيال، والحسية والمعنوية ، والإيمان بما تدركه الحواس ومالا تدركه الحواس، قد تبدو لأول وهلة كأنها شيء واحد. وحقاً إن فيها شيئاً من التداخل، ولكنها مع ذلك متميزة كما يرى القارىء من تفصيل الكلام .

الاقتصادية ، فالخلاف فيها خلاف على القشرة ، أما الأساس المشترك فهو الإيمان بمادية الحياة ومادية الإنسان ![1].

والإسلام يؤمن بالطاقات الإنسانية جميعاً ، ويعطى كل طاقة ما يصلح لها من الغذاء .

يؤمن بميل الإنسان للإيمان بما تدركه الحواس .. ويعطى غذاء لهذه الطاقة ، الكونَ المادىَّ كله بما فيه من محسوسات .

الكون المادى مبسوط أمام الإنسان تدركه حواسه مباشرة بالعين والأذن والشم والذوق واللمس ، أو تدركه بواسطة الآلات المقربة والمكبرة والمجسمة . وهذا الكون المادى مبسوط أمام تجارب الإنسان ومحاولاته لاستغلال طاقته.

وليست المذاهب المادية الغربية هى التى « اخترعت » هذا الاختراع أو اكتشفته فى القرن العشرين ! فقد مر بنا من قول ه . ا . ر . جب ، أن المذهب التجريبي الحديث قد انتقل إلى أوربا على يد الباحثين من المسلمين. وأن ملاحظاتهم العلميـة والتفصيلية الدقيقة هى التى مهدت للعلم الحديث سبيل الظهور .

لقد كان المسلمون — بتوجيه دينهم المتمشى مع الفطرة — يؤمنون بالكون المادى والطاقة المادية فى الإنسان ، فيلاحظون دقائق هذا الكون ، ويستنبطون قوانينه ، ويستغلون طاقاته . وكانت علومهم فى هذا الباب علوما حقيقية نافعة. ويكفى أن نذكر أن الطب العربى كان يدرس فى جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر وأن نظريات الحسن بن الهيثم فى البصريات كانت تدرس هناك حتى القرن التاسع عشر ، وأن لفظة الكيمياء فى اللغات الأوربية كلها

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » وكتاب « معركة التقاليد » .

هى اللفظة العربية ، وأن كثيراً من ألفاظ الفلك عربية الأصل .

وليس هذا وحده .. فالإسلام – على طريقته – قد استغل « ما تدركه الحواس » استغلالا ضخما فى تربية القلب البشرى وربطه بالله . استغله حين وجه الأنظار إلى « الكون المادى » لتبصر فيه يد الله القادرة المبدعة الصناع . استغل الحواس كلها فى هذا الأمر . العين والأذن والشم والذوق واللمس.

يوجه العين للإبصار : « الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها »(١) . « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ »(٢) « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله .. يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »(٣) « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه »(٤) .

ويوجه الأذن للسمع : « ويسبح الرعد بحمده »(٥) . « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق »(٦) « بريح صرصر عاتية »(٧) .

والذوق : « صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »(٨) . « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين »(٩) .

وهكذا ينبه كل حاسة من حواس الجسم ويعطيها عملها سواء فى تدبير المعاش ، واستخراج الطاقة المادية واستغلالها لصالح الإنسان ، أو فى الاطلاع

---

(١) سورة الرعد (٢)
(٢) سورة الغاشية (١٧ — ٢٠)
(٣) سورة النور (٤٣)
(٤) سورة الأنعام (٩٩)
(٥) سورة الرعد (١٣)
(٦) سورة البقرة (١٩)
(٧) سورة الحاقة (٦)
(٨) سورة الرعد (٤)
(٩) سورة النحل (٦٦)

على آيات الله فى الكون وتدبر قدرته المعجزة فى الخليقة . ولا يزعم أى مذهب « مادى » أنه يستطيع أن يستغل الحواس ، وما تدركه الحواس ، أكثر مما يفعل الإسلام !

ولكن الغرب المادى وقف عند هذه الحقيقة القريبة ، وأنكر مالا تدركه الحواس ! أنكر « الروح » لأنه لا يراها ولا يسمعها ولا يذوقها ولا يلمسها ! وأنكر الله ! فالله « لا تدركه الأبصار »[1] ولا تدركه بقية الحواس . ومن ثم فهو فى حساب الغرب المادى غير موجود . أو هو — من باب الذكرى ! — موجود ولكن على هامش الحياة وهامش الوجدان ! سبحانه وتعالى عما يصفون . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

إنها النكسة الزرية التى تعانيها الجاهلية اليوم بأبشع مما كانت تعانيها بالأمس . فربما كانت للجاهلية القديمة أعذار من الجهل والتأخر واستغلاق العقول . أما الجاهلية الجديدة فهى تزعم أنها « تعلم » : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »[2] .

وقد وصل الغرب فى نكسته من عدم الإيمان بالروح ، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر .. وصل إلى الدرك الذى لا هبوط بعده ، ولا ارتكاس دونه . وصل إلى الحيوانية الكاملة فى كل شىء . فى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مناحى الحياة . هذه الإباحية الخلقية التى تدنس وجه الأرض . هذه المذابح البشرية القائمة فى كل مكان : حربان فى ربع قرن والثالثة تنذر بالدمار الشامل الرهيب . هذا الصراع المجنون على متاع الأرض الحسى . هذه اللهفة الدائمة والقلق الدائم والاضطراب . هذا الشد والجذب الذى يفسد الأعصاب

---

(١) سورة الأنعام (١٠٣)   (٢) سورة الروم (٧)

ويبدد الكيان .. إنها النتيجة الحتمية لإنكار الله واليوم الآخر وإنكار الروح .. النتيجة الحتمية لمعاكسة الفطرة، وعدم الإيمان بما لا تدركه الحواس.

والإسلام — كلمة الله للناس — حاشا أن يقع في هذه الخطيئة. خطيئة معاكسة الفطرة، وسد منافذ النفس البشرية كلها إلا منفذ الحواس.

« ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون »[1].

أول صفة للمؤمنين هي أنهم يؤمنون بالغيب! وذلك حق من جميع نواحيه! فالله سبحانه بالنسبة للحواس البشرية « غيب ». والمؤمنون يؤمنون بالله بالغيب، وإن كانت الروح — لا الحواس — تتصل به مباشرة بالطريقة التي فطرها الله عليها، وتحس إحساساً بيّناً بذلك الاتصال.

ومن جهة أخرى فالمؤمن هو الإنسان الكامل. الإنسان الذي يساوق فطرته كلها. والذي يلبي من هذه الفطرة إيمانها بما لا تدركه الحواس، وهو الجانب الذي تدركه الأرواح

وقد جعل القرآن الإيمان بالغيب قاعدة الإيمان كله، وقاعدة الحياة البشرية كلها، لأنه لا يستقيم في الواقع وجود للإنسانية بغير هذا الإيمان، كما رأينا في الجاهلية الأوربية في هذا الزمان!

ولكنه لم يقصر الإيمان بالغيب على الله سبحانه واليوم الآخر والملائكة، وهي قواعد العقيدة التي لا بد منها لصلاح الأمور على الأرض، بل أعطى تلك الطاقة الإيمانية غذاء آخر خصيباً في ذكر الجن والشيطان.

إن الشيطان في العقيدة الإسلامية شخصية تكاد من بروز ملامحها أن تكون

---

(١) سورة البقرة (١ — ٣).

ملموسة ! والقرآن يوجه القلب فى مواضع كثيرة إلى الحذر من هذا الشيطان الذى « يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم »[1] . وإلى مخاصمته وإعلان الحرب عليه لقاء تسببه فى إخراج آدم من الجنة ، وتوعده بإغواء بنيه وإدخالهم إلى الجحيم . والأوصاف الحية « لشيطنة » الشيطان تجعله كما قلنا شخصية بارزة الملامح واضحة السمات : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال : لاغالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال إنى برىء منكم ! إنى أرى مالا ترون ! إنى أخاف الله ! والله شديد العقاب »[2] . « وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ! فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ! ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ ! إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ! إن الظالمين لهم عذاب أليم !! »[3] .

وواضح أن الشيطان يؤدى « دوراً » فى العقيدة الإيمانية ، لتوجيه الطاقة البشرية لمكافحة الشر فى نفوسهم وفى نفوس الآخرين ، لتصلح القلوب وتصلح الحياة .

ولكن دور الجن فى العقيدة ليس كذلك :

« قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جدّ ربنا مااتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً . وأنا لمسنا السماء

---

(١) سورة الأعراف (٢٧) . (٢) سورة الأنفال (٤٨)
(٣) سورة إبراهيم (٢٢).

فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لاندرى ، أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ، ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأماالقاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا »[1] .

هذه الإشارة المفصلة فى سورة الجن ، والإشارةالعابرة فى سورة الأحقاف: « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن . فلماحضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ... » .

ليس دورها فى العقيدة كدور الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا كدور الشيطان . وقدكان يمكن أن تستقيم العقيدة وتكتفى بدون ذكر الجن وهذه التفصيلات . ولكن الإسلام — كما قلنا — يساير الفطرة البشرية جميعا ، ويصل إليها من كل منافذها ، ولا يترك منفذاً واحداً صغيراً أو كبيراً يمكن أن ينفذ إليه دون أن يفعل ذلك . والميل الفطرى إلى الإيمان بكائنات لاتدركها الحواس هو نافذة إلى النفس يمكن أن يلجها الإسلام ليصل منها إلى مكمن العقيدة فى النفس فيوقظها ويحييها ويزيد « مساحتها » . ومن أجل ذلك ذكر هذه الحقيقة . حقيقة الجن . لا لأنها من قواعد العقيدة ، ولكن لأنها تغذى تلك الطاقة الفطرية البشرية التى يريد الإسلام أن ينفذ إليها من كل باب .. ولكن فلننظر بأى قدر ذكرها ولأية نتيجة !

---

(١) سورة الجن (١ — ١٦) .

لقد قلنا إن الإسلام يوقع على كل وتر بقدر ما يصلح له وما يحتاج إليه . وقد ذكر القرآن الجن فى هذين الموضعين ، وفى قصة سيدنا سليمان وفى مواضع أخرى عابرة ، لاليشغل البشرية بأبحاث تفصيلية عن الجن ، وأعدادهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وطريقة اتصالهم بالإنس ، وكيفية تسخيرهم ، وحدود طاقاتهم .. إلى آخر هذه المباحث التى شغلت المسلمين فترة من الوقت ، كانت ولا شك من فترات الفراغ !

إنها إشارة عابرة .. جاءت لتوسع مساحة النفس .. ليخرج الإنسان من دائرة حواسه الضيقة ، فيقر فى خلده أن الكون أوسع مما تراه حواسه وأشمل . وأن لله آيات فى الكون لايدركها الإنسان بحواسه أصلا ولكنها مع ذلك موجودة . لعل ذلك أن يفتح بصيرته ويوحى إليه بالإيمان .

ثم إن الجن فى سورة الجن وسورة الأحقاف يقومون بالدعوة إلى الإسلام والإيمان بالله . فهم لم يجىء ذكرهم لمجرد « الترفيه العقلى » وإنما لهدف جادّ ، هو بيان أن كل خلق الله يؤمنون به ويسبحون بحمده ويدعون بدعوته . . إلا الضالين فمأواهم جهنم وعليهم لعنة الله . ومن ثم يؤدى ذكرهم دوراً فى العقيدة، وإن كان بطريقة أخرى غير الدور الذى يؤديه الشيطان .

أما الإيمان بالملائكة فداخل فى أصل الإيمان كما أسلفنا . والقرآن يصل النفس بهم فى صور شتى :

فهم آية من آيات القدرة الخالقة : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ؛ يزيد فى الخلق مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير »(١) .

وهم الذين ينزلون على قلوب البشر بوحى الله : « نزل به الروح الأمين على

---

(١) سورة فاطر (١) .

قلبك لتكون من المنذرين »[1] « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »[2] .

وهم جند مجندون فى طاعة الله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[3] .

وهم يستغفرون للمؤمنين : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم »[4] .

وهم بالجملة صورة وضيئة من الإيمان الخالص تغرى بالحب وتوحى بالتطهر والارتفاع .

وبهذا وذلك ينفذ الإسلام إلى النفس عن طريق إيمانها بما تدركه الحواس ، وإيمانها بما لا تدركه الحواس . فيكون قد حقق لها كيانها الأكمل ، ويكون قد نفذ إليها من منافذها كلها .. وهداها إلى الله .

الفردية والجماعية

من الخطوط المزدوجة فى كيان الإنسان هذان الخطان المرتبطان المتناقضان : إحساس الإنسان بفرديته ، وإحساسه بالميل إلى الاجتماع بالآخرين والحياة معهم كواحد منهم .

وهذه الظاهرة ذات أثر بالغ فى الحياة البشرية .. فكيان المجتمع كله قائم على محاولة التوفيق بين هذين المتناقضين فى الظاهر ، ومدى النجاح فى عملية التوفيق..

(١) سورة الشعراء (١٩٣-١٩٤)
(٢) سورة غافر (١٥)
(٣) سورة التحريم (٦)
(٤) سورة غافر (٧)

ولقد اضطربت كثير من النظم وكثير من الفلسفات بين هذه النزعة وتلك. بعضها يوسع دائرة الفردية حتى تصل إلى الأنانية المرذولة، وتفكيك روابط المجتمع، وتشتيت طاقاته. وبعضها يوسع الدائرة الجماعية حتى تقضى على كيان الفرد وتكاد تلغى وجوده، إذ تعتبره ذرة ضئيلة تافهة لا يستمد كيانه إلا بوصفه فرداً فى القطيع.

ونحن نرى فى هذه اللحظة على وجه الأرض مذهبين متنافرين، كل منهما يقوم على اتجاه.

الرأسمالية فى الغرب قائمة على أساس فردية الإنسان. فتوسع له فى حدود فرديته، وتترك له حرية التصرف فى كثير من الأمر، حتى يصل إلى حد إيذاء نفسه وإيذاء الآخرين، فلا تحرج على نشاطه الزائد عن الحد، ولا تقفه عند حد معقول. يطلق لنفسه عنان الشهوات والأهواء.. ويحطم الأخلاق والتقاليد.. ولا يعترف بحق أحد فى توجيهه وضبط تصرفاته.. ويحول أمواله إلى أداة لاستغلال الآخرين، وامتصاص جهدهم ودمائهم وتحويلها إلى ترف فاجر ومتاع حسّى غليظ.. ويفسد سياسة الحكم وسياسة المجتمع، ويفسد تصور الناس للحياة.. ومع ذلك فهو يمارس «حريته الشخصية» وليس لأحد عليه سلطان!

والشيوعية فى الشرق قائمة على أساس جماعية الإنسان. فتوسع فى دائرة الجماعة — أو فى الحقيقة الدولة — وتحجر على كل نشاط للأفراد — اللهم إلا نشاطهم الحسى الغليظ فتتركه لهم مباحاً للتنفيس عن الطاقة المكبوتة! — فتمنع اشتراك الناس الفعلى فى سياسة الحكم وسياسة المجتمع، وتفرض عليهم النظم والترتيبات بحجة أنها أعرف منهم بمصالحهم. فتعيّن لهم أعمالهم، وأماكن إقامتهم، كما تعيّن لهم أفكارهم ومشاعرهم وطريقة إحساسهم.. بالأمر. ولا تترك لهم

سبيلاً للاختيار . وتحكمهم بالحديد والنار والتجسس ، وتعتبر كل نصيحة للدولة أو القائم عليها خيانة تعاقب « بالتطهير » لأنها نزعة فردية آثمة ، موجهة ضد كيان الجماعة المقدس ، من فرد لاقداسة له فى ذاته ولا كيان !

والفلسفات كذلك تخبطت كثيراً فى هذه الأمور . ولم يستطع كثير منها أن يَخْلُصَ إلى حقيقة بديهية بسيطة ، يؤيدها الواقع المشهود .

إن هذه الفلسفات تفترض أنه إذا كان الإنسان فردى النزعة فالمجتمع إذن مفروض عليه من خارج نفسه متحكم فيه بغير إرادته ، ضاغط على كيانه ، محطم لشخصيته ، ومن ثم فهو مكروه .. وتفتيته وتفكيكه حلال !

أو .. أن النزعة الجماعية هى الأصل . فالطفل يولد ضعيفاً لا حول له ولا قوة .. ولا كيان .. ولولا وجوده فى الجماعة ما استطاع أن ينمو وأن يعيش .. وهو فى حاجة دائمة للجماعة لكى يستمر فى وجوده . وإذن فالنزعة الفردية رجس ينبغى أن يقاوم .. ينبغى أن تُسحق هذه الرغبة وأن تُزال !

لماذا ؟!

إن هذه الفلسفات لاتنتبه إلى الطبيعة المزدوجة فى هذا الكائن البشرى . التى تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح . ولكنها مع ذلك مترابطة . وهى تؤدى مهمتها فى حياة الكائن البشرى بتناقضها ذلك وترابطها . كما يؤدى مهمتَه الحبُ والكره ، والرجاء والخوف ، والسلبية والإيجابية ، والحسية والمعنوية ، والإيمان بالواقع والإيمان بما وراء الواقع .. ويخرج لنا فى النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان !

إن فى صميم الفطرة هذين الخطين .. كل منهما حقيقة . وكل منهما أصيل . والتناقض يحدث فى باطن النفس ، كما يحدث الاضطراب فى واقع الحياة ،

حين تزيد النسبة المقررة لكل واحد فينحرف عن مساره ، ويعتدى على مسار الآخر ويشده إليه . أما حين يأخذ كل منهما مداره الصحيح ، فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق .

وحقيقة إنها مهمة عسيرة .. ولكنها ليست مع ذلك مستحيلة .

وأى شىء فى حياة الإنسان غير عسير ؟ ! « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[١] « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »[٢] . الكدح فى كل شىء وفى كل خطوة وفى كل حركة . والكدح فى المشاعر والتفكير . إنما يفترق كدح عن كدح ، فى أن أحدهما مهتد ومبصر وواصل ، فيعوض كدحه فى الحياة الدنيا بذلك الشعور الواصل ، وفى الآخرة بحسن الثواب . والآخر ضال منحرف مقطوع .. يغرق فى لذائذ الحس .. ثم يفيق على الضَّيَاع !

والإسلام يوفق بقدر ما فى طاقة البشر بين النزعتين الأصيلتين المتناقضتين فى الظاهر .

إنه بادئ ذى بدء لا يعتبر إحداهما أصيلة وغيرها دخيل . ولا يعتبر أن تغذية إحداهما تعنى بالضرورة الإساءة إلى الأخرى أو إسقاطها من الحساب .

والإسلام دين الفطرة ، وهذه فطرة الإنسان : فرد داخل فى المجموع . أصيل الفردية ، أصيل فى الميل للمجموع . وهو دائم التقلب بين نزعتيه المتناقضتين ، كما يتقلب فى نومه من جنب إلى جنب ليستريح ! ولكنه فى كل لحظة شامل لجانبيه معا على اختلاف فى النسبة والمقدار .

والإسلام يعالج كلتا النزعتين فيغذيهما معا ، ويجعلهما متساندتين بدلا من أن تكونا متنازعتين !

إنه يحتاج إليهما معا لأن الفطرة لا تستقيم بإحداهما دون الأخرى . ولذلك

---

(١) سورة البلد (٤) (٢) سورة الانشقاق (٦)

لايكبت أيا منهما ولا يزيلها من الوجود .. إن كان فى استطاعة أحد أن يزيلها من الوجود !

الإنسان الذى لاشخصية له فى ذاته ولا وجود ، لا ينشىء إلا مجتمعا مستضعفا خانعا يصلح لأن يحكمه « فرد » متسلط دكتاتور ! ثم يتهاوى حين يذهب ذلك الدكتاتور !

والإنسان الذى تبرز شخصيته — بانحراف — إلى حد الأنانية المرذولة أو الطغيان ، لايستطيع أن يعيش فى وفاق مع الجماعة . . ولا بد أن يتشتت المجتمع ويئول إلى البوار .

لا بد من إنسان متوازن فى فرديته ومتوازن فى ميله إلى الجماعة وتعاونه معها . وحينئذ يصبح المجتمع أشخاصاً حقيقيين لا أصفاراً ولا نكرات . أشخاصا لهم وجود واقعى ، متساندين فى الوقت ذاته «صفًّا كأنهم بنيان مرصوص»[1] .. وذلك هو مايسعى إليه الإسلام .

وهو يصل إلى ذلك بوسائل شتى ..

فأما الفردية .. الشخصية الاستقلالية .. الكيان الإيجابى القوى .. فينشئه الإسلام بربط القلب البشرى بالله !

إن الإنسان ليتصل بربه .. فرداً !

هذه الصلة العميقة الوثيقة السارية فى أعماق النفس هى عند كل إنسان صلته الشخصية الفردية بالله !

وإن الإنسان ليستغرق أحياناً فى العبادة لله ويستغرق فى الحب ، إلى حد أن ينسى كل شيء فى الوجود غيره هو وغير الله ! ويخيل إليه فى لحظة الاستغراق

---

(١) سورة الصف (٤)

العميقة أن الوجود كله قد شف وراق .. ثم خلا من كل شيء ومن كل أحد .. إلا قلبه الخافق .. والشعاع النوراني الذي يصل قلبه بالله !

في لحظة الاستغراق هذه يمتلىء الإنسان بالشحنة التي توجهه في الحياة . . توجهه فردا إيجابياً له كيان . وإنها لتمنحه قوة عجيبة إزاء كل أحد وكل شيء وكل حدث[1] . إنه يحس أنه يحمل تلك القبسة النورانية المقدسة .. القبسة التي احتملها كيان الإنسان الأول الذي خلقه الله من طين الأرض ونفخ فيه من روحه . ومن ثم فهو قوي فعال مريد متصرف . . فهو لا يخضع لغير الحق الذي أنزله الله . ولا يرضى بأن يخنع ويستنيم ويصبح سلبياً إزاء ما حوله من قيم أو أشخاص أو قوة مادية . . لأنه يحس وجوده الفردي ذلك المشحون بتلك القبسة من الله ، مكافئا لهذه القوى جميعها ، بل مستعليا عليها في داخل نفسه ولو هزمت قوته المادية المحدودة فترة من الزمان !

ولهذا السبب ذاته تكره الدكتاتوريات الأديان ! إنها من ناحية لا تطيق أن يكون الولاء لأحد غير الدكتاتور ! ومن ناحية أخرى لا تطيق أن يكون الولاء لله بالذات ، لأن هذا الولاء لله هو الذي يؤلب البشر على الطغاة ويحفزهم أن يقفوا لطغيانهم بالمرصاد ، و« من رأى منكم منكراً فليغيره .. » !

هذه الصلة الفردية الشخصية بالله هي التي تمنح الإنسان وجوده المستقل ، فلا ينبهم ولا يضيع في القطيع .

وثمت عنصر آخر يربى هذه الفردية المستقلة ، ويميز كل شخص بمفرده في داخل حسه : إنها المسئولية الفردية عن الأعمال . « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[2] . « كل نفس بما كسبت رهينة »[3] . « لا تجزى نفس عن نفس

---

(1) انظر بعد ذلك في « السلبية والإيجابية » في نهاية هذا الفصل .

(2) سورة فاطر (18) . (3) سورة المدثر (38) .

شيئاً »[1] . « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره »[2] .

فهى إذن تبعة فردية : كل إنسان مسئول عن عمله ، لا يستطيع أن يلقى حمله على غيره ، ولا هو يتلقى على كتفه أحمال الآخرين . والشعور الدائم بهذه المسئولية الفردية يحدد للإنسان فى داخل نفسه كياناً متميزاً واضح الحدود ، أعصابه صاحية لكل ما يمسه ولو من بعيد !

ذلك غذاء الفردية فى الإسلام !

ولكنه غذاء عجيب جداً ، يؤدى هو ذاته لبث الروح الجماعية فى قلب الإنسان!

إن الله الذى يتصل به القلب ويقبس منه النورانية والشفافية ، هو الذى يلين قلب الإنسان لأخيه ، فيحبه ويمنحه من نفسه ، ويفنى فيه !

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[3]

منتهى الحب . ومنتهى البذل . ومنتهى الإيثار .

والحب هو الرباط الحى الذى يربط الجماعة .. يشدها كالبنيان المرصوص .. فإذا كل لبنة قائمة بذاتها قوية الوجود .. ثم إذا البناء كله جماعة .. ليست فيه لبنة ناشزة خارجة عن الحدود !

وبهذا الحب الذى يبثه الإسلام ويغذيه قام المجتمع الإسلامى الأول الفريد فى كل التاريخ . مجتمع لا من الأصفار المتداوبى الكيان .. مجتمع كل فرد فيه أمة ! وهو على ضخامة شخصياته وإيجابيتها العجيبة الفذة ، متحاب مترابط ، لا تكاد تحس أين يبتدئ كيان كل واحد منهم وأين ينتهى الآخر .. لأن الحب قد أزال الحدود !

---

(١) سورة البقرة (٤٨)

(٢) سورة القيامة (١٤ — ١٥)

(٣) سورة الحشر (٩)

والقرآن يغذى هذه الجماعية بتوجيهاته الدائمة إلى التعاون والتشاور والوفاق :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[1]

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »[2]

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »[3]

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »[4]

« وأمرهم شورى بينهم »[5]

كما يغذيها بالخطاب الجماعى والتوجيهات الجماعية .. التى تلقى المسئولية على الجماعة كلها متساندة ، لأنها — فى الواقع — مسئولية كل فرد ، ومسئولية الجميع :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[6]

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون »[7]

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »[8]

---

(١) سورة المائدة (٢) .
(٢) سورة آل عمران (١٠٣) .
(٣) سورة التوبة (٧١) .
(٤) سورة الفتح (٢٩) .
(٥) سورة الشورى (٣٨) .
(٦) سورة آل عمران (١١٠) .
(٧) سورة المجادلة (٢٢) .
(٨) سورة الأنفال (٢٥) .

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار »[1] .

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم »[2] .

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »[3] .

« يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم »[4] .

هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام ذاتها تقتضى وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية . كما أن التصور الإسلامى والفضائل الإسلامية تحتاج إلى جماعة . إلى وسط تحيا فيه وتنمو . إلى محضن يتلقف الأجيال الناشئة فينشئها على تلك الفضائل ويطبعها على ذلك التصور . وتلك كلها مهام لا يقوم بها الأفراد متفرقين ، وإلا ضاع جهدهم بددا ولم يثمر ثماره المرجوة . وإنما تقوم بها الجماعة مجتمعة فتصبح المهمة أيسر والثمرة أقرب إلى المنال[5] .

وهكذا تتحد الجماعة فى الهدف وتتحد فى العمل ، فتلتقى قلوبهم وتتعاون ، وترتبط كلها بالله فى النهاية ، فلا يقوم بينها الشقاق والخصام ، وتلتقى النزعة الفردية والنزعة الجماعية كلتاهما فى نظام !

الالتزام والتطوع

فى الكائن البشرى خطان متناقضان متقابلان ، يعجب الإنسان لأول وهلة كيف يوجدان بتناقضهما ذلك متجاورين فى النفس الواحدة . والواقع أن

---

(١) سورة التوبة (١٢٣) .
(٢) سورة محمد (٧) .
(٣) سورة الحجرات (٦) .
(٤) سورة الصف (١٠ — ١١) .
(٥) انظر فصل « المجتمع المسلم » فيما يلى من الكتاب .

الازدواج هو السمة العامة للكيان البشرى كله ، الناشئة فى الأصل من ازدواج منشئه من قبضة الطين ونفخة الروح . ومن ثم فلا موجب للعجب مما يحويه الإنسان فى كيانه من متناقضات ظاهرية . إنما الذى يَعْجَبُ له الإنسان حقاً ، ولا يملك نفسه أمامه من الإعجاب ، هو الطريقة الفريدة التى يسلكها المنهج الإسلامى للجمع بين هذه المتناقضات كلها ، وربطها فى نظام !

فى الإنسان ميل للالتزام . ميل لأن يلتزم بأشياء معينةوينفذها . ولووجد نفسه طليقاً من كل التزام خارجى لفرض على نفسه أموراً معينة والتزم بها . . إرضاء لما فى طبيعته من ميل للالتزام ! ومن ثم فالفوضى المطلقة لاوجود لها ، ولا يمكن أن توجد . لأنها ليست جزءاً من طبيعة الإنسان !

ومع عمق هذا الميل للالتزام فى الطبع البشرى ، فإن فيه إلى جانب ذلك ميلا للإحساس بأنه غير ملتزم ! وأنه يؤدى الأشياء لأنه هو يريد أن يؤديها ، لا لأنها مفروضة عليه !

كلا الخطين أصيل وعميق . وكلاهما يؤدى دوره فى فطرة النفس وواقع الحياة .

وقد كان الميل للالتزام هو الأساس الذى قامت عليه « الحكومة » فى النظم البشرية ، كما قامت عليه كل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..إلخ . الناس يحبون أن يلتزموا بنظام معين ، ويختارون شخصاً أو هيئة من الأشخاص يولونهم أمر الإشراف على ذلك الالتزام . فتقوم « الجماعة » وتقوم « الدولة » وتقوم غيرها من النظم والمؤسسات .

وقد كان الميل للشعور بعدم الالتزام هو أساس الإبداع البشرى والتقدم الدائم إلى الأمام يحب الناس أن ينطلقوا من التزاماتهم ، أو أن يشعروا بأنها ليست التزاما بل إرادة ذاتية . وفى كلتا الحالتين تحدث « حركة » فى النفس والمجتمع .

وهذان الخطان — على أنهما فطريان — ينحرفان كما ينحرف كل شيء في الفطرة حين تفقد اتصالها بالسنن العامة ، وتفقد « وعيها » الصحيح بالأمور .

يفسد الخط الأول فيصبح الالتزام عبودية للنظام ، أو لبشر من البشر ، أو لعادة من عادات النفس ، أو لتقليد من تقاليد المجتمع ، لا يملك الإنسان أن يتحرر منه أو يشعر إزاءه بوجوده المتميز .

ويفسد الخط الثاني فيصبح الخروج من الالتزام فوضى بلا حدود ولا ضابط إلا أهواء النفوس وشهوات الأجساد . وعندئذ يصبح « التحرر » الظاهري من الالتزام هبوطاً في الواقع وعبودية للشهوات .

وكثيراً ما يحدث الانتكاسان في النفس الواحدة ، « فتلتزم » للنظام أو الدولة أو لفرد من الأفراد ، و « تتحرر » من قيود الأخلاق وهواتف الضمير . . وبذلك يرتكس الإنسان بجانبيه جميعاً في عبودية كاملة وحيوانية مطلقة .

والإسلام — كما عهدناه — يوقع على جميع أوتار النفس ؛ ويوقع عليها بالنغم المناسب والقدر المضبوط .

يوقع على خط الالتزام .. فيفرض قدراً معيناً من الأوامر والنواهي والتعليمات والتنظيمات . . القدر الذي تحتمه الضرورة ، والذي يَفسُدُ المجتمع بدونه . ثم يحتاط ، فلا يجعله التزاماً للدولة في ذاتها ، ولا لولي الأمر بذاته ، ولا للمجتمع ، ولا للتقاليد . . وإنما هو التزام . . لله . لله فقط . لا لأحد من البشر . ومن ثم يتحرر الضمير البشري من كل عبودية لغير الله .

ويوقع على خط التطوع — أو عدم الميل للشعور بالالتزام — فيحبب للنفس أولا أن تؤدي كل ما عليها من الالتزام خالصاً لوجه الله . . فيرتفع من صورة الالتزام القاهر إلى الرغبة الذاتية في الأداء . وتلك هي الثمرة الحقيقية للإيمان .

ثم هو يدع الباب مفتوحاً — بعد أداء ذلك الحد الأدنى من الالتزامات الضرورية لحفظ المجتمع من الفساد — يدع الباب مفتوحاً للتطوع الحقيقي الصاعد السامق النبيل، دون فرض أو إلزام أو إكراه .. إنما هو حقيقة تطوع، يصنعه الإنسان ليرتفع في درجات الإيمان ودرجات القرب من الله. « ولكل درجات مما عملوا »[1]

* * *

يفرض الإسلام التزامات معينة، هي « الفرائض » والحدود. وهي كثيرة ومتشعبة تشمل العبادات والمعاملات، وسياسة الحكم وسياسة المال، والقوانين الجنائية والمدنية والتجارية والدولية .. إلخ. وهذه — فيما عدا العبادات — التزامات متفق عليها في كل النظم. ينبغي أن تفرض فرضاً، وأن تقوم عليها سلطة تضمن تنفيذها. وهي من جانب آخر تستجيب لنزعة الالتزام الفطرية في كيان الإنسان.

ولكن الإسلام أولا يضيف إليها التزامات العبادة. وذلك فارق رئيسي بينه وبين كل النظم الأرضية. التي لا يهمها تنظيف القلب البشري من الباطن، وتكتفي بتنظيفه من الظاهر، ولو كان ينطوي من الداخل على قذارات! والنتيجة الحتمية الدائمة لمثل هذه النظم هي انهيار المثل والمبادئ، وانحسار « الإنسانية » والصراع الوحشي على مغانم الأرض، وتفتيت الكيان البشري وتشتيته، والقلق واضطراب الأعصاب، على نحو ما هو موجود في عالم اليوم.

ثم هو ثانياً يجعل إطاعة الالتزام عبادة تؤدي إلى الله.

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلا »[2].

---

(١) سورة الأنعام (١٣٢). (٢) سورة النساء (٥٩).

فالأمر أولا مردود فى النهاية إلى الله . وطاعة أولى الأمر ثانياً ليست هدفا فى ذاتها . ولا أولو الأمر سلطة مستقلة تطاع لذاتها . إنما مرد الطاعة لهم هو طاعتهم هم لله : المصدر الأول والأخير .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا ، نكالا من الله»[1]

فليس هو نكالا من البشر ، ولا دخل للبشر فى هذا التشريع . إنما هو يؤدى لله.

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . وليكتب بينكم كاتب بالعدل . ولا يأب كاتب أن يكتب . كما علمه الله فليكتب . وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ... واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم »[2] .

وهكذا كل تشريع وكل توجيه ، مرتبط بالله ، مصدره هو الله ، ويؤدى من أجل الله .

ومن هذه المرحلة الوسيطة .. مرحلة أداء الفرائض والالتزامات إطاعة لله ، لا لنظام ولا لبشر ولا لدولة ولا لتقليد . . يرتفع إلى أُولى مراتب التطوع ، وهى أداء الالتزام حباً لله لا خوفا من العقاب الذى فرضه الله !

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما »[3] .

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه »[4] .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة »[5] .

---

(١) سورة المائدة (٣٨)

(٢) سورة البقرة (٢٨٢) .

(٣) سورة طه (١١٢) .

(٤) سورة الأنبياء (٩٤)

(٥) سورة البقرة (٢٦٥)

« لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما »[1] .

« ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة.. إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى .. »[2] .

ثم يرتقى درجة أخرى فى التطوع ، فيبيح الحد الأدنى ، ويخيّر النفس فى التطوع بما هو أعلى من ذلك الحد ، مع تحبيب التطوع إليها واستحثاثها إليه:

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين . فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون »[3] .

« إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير »[4] .

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون »[5] .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم .. وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم »[6] .

والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم »[7] .

ثم يرتقى درجة أخرى !

إنه لا يطلب شيئاً .. ولا حتى التطوع !

---

(١) سورة النساء (١١٤) .

(٢) سورة الممتحنة (١) .

(٣) سورة البقرة (١٨٤) .

(٤) سورة البقرة (٢٧١)

(٥) سورة البقرة (٢٨٠) .

(٦) سورة النساء (٢٥) .

(٧) سورة النور (٦٠) .

إنه يرسم صوراً جميلة أخاذة ساحرة .. ثم يسلط عليها النور .. ويتركها هكذا .. معروضة للأنظار . فمن شاء فليتطوع على قدر مايستطيع ، وهو شاعر شعوراً كاملا بأنه مدفوع إلى هذا التطوع بدافع ذاتى ، لاقهر فيه ولا فرض ولا مجرد دعوة !

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون — إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون — والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . هم فيها خالدون »[1] .

هل من كلمة واحدة تفيد القهر ؟ هل من كلمة واحدة تفيد الفرض ؟ هل من دعوة واحدة مباشرة إلى العمل كأولئك المؤمنين المفلحين الذين تُرسم لهم هذه الصورة المعجِبة ؟ كلا ! إنها الصورة وحدها هى التى تدعو . هى وحدها ذات الجاذبية التى تجذب الناس إلى أعلى ، باختيارهم الكامل ، وحريتهم الكاملة . الحرية التى يتحقق بها وجودهم الأرفع والأكمل والأجمل والأشف !

وكذلك :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ماتدّعون نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال إننى من المسلمين ؟ »[2] .

---

(١) سورة المؤمنون (١ — ١١)   (٢) سورة فصلت (٣٠ — ٣٢) .

وكذلك :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها ، حسنت مستقراً ومقاما[1] » .

إنها وسيلة مثلى للتربية .. تطلب من النفس الطلب وأنت تشعرها بأنك لاتطلب ! إنما أنت فقط تعرض نموذجا جميلا للإنسان ! وأنت ضامن بعد ذلك أن الإيحاء سيعمل عمله ، وسيحاول من يحاول أن يكون مثل ذلك النموذج الجميل المعروض أبداً للأنظار !

السلبية والإيجابية

وقريب من هذين الخطين ، وإن كانا غير متطابقين ، هذان الخطان الآخران ، السلبية والإيجابية :

---

(١) سورة الفرقان (٦٣ — ٧٦) .

فى كل نفس هذان الاستعدادان المتناقضان : استعداد لأن تكون سلبية ، واستعداد لأن تكون إيجابية ، على اختلاف فى النسبة ، واختلاف فى مواضع السلب ومواضع الإيجاب .

ولولا أننا مشغولون هنا ببحث تربوى لاسيكلوجى ولا بيولوجى ، لوقفنا طويلا عند تلك الحقيقة العجيبة فى الخلقة ، وهى أن الجنين يتكون من التقاء خليتين : البويضة الأنثوية والحيوان المنوى . وأن لكل من هذين طريقة فى السلوك مخالفة للأخرى . فالبويضة فى مسارها من المبيض إلى الرحم تسير « مع التيار » ، بينما الحيوان المنوى فى مساره من الرحم إلى الأغشية الداخلية ليلتقى بالبويضة ويلقحها ، يسير « ضد التيار » ، وفى فطرته القدرة على المغالبة والاقتحام والمسير ضد التيار ليؤدى مهمته . والجنين هو خلاصة هاتين الطاقتين ! خلاصة السلبية والإيجابية معاً وفى ذات الوقت !

إنها حقيقة عجيبة فى الخلقة .. توحى بالظن أنها هى منشأ هذين الاستعدادين النفسيين المتناقضين ! والله أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير .

وأياً ما كان المنشأ فهكذا هى الفطرة بمتناقضاتها العجيبة المتجاورة المتقابلة .

وحين يترك الناس بلا توجيه معين ، فقد تنحرف فطراتهم ذات الشمال وذات اليمين . وقد تصدر عن أوتار نفوسهم أنغام ناشزة تنفر منها الأسماع .

قد تنقلب السلبية كما أشرنا فى الفقرة السابقة إلى عبودية ذليلة لفرد أو قيمة أو عادة أو تقليد ، مهما يكن قيما فى ذاته وواجب الاحترام ، فإن العبودية له مسخ للكيان البشرى وتشويه . وهى فى الوقت ذاته إضاعة للضمان الوحيد لتقويم الفساد فى الأرض .. وهو الرقابة الواعية على الناس والقيم والعادات والتقاليد .

فلا إصلاح بغير رقابة واعية .. ولا رقابة يمكن أن تصدر عن العبيد !

يستذل الإنسان للدولة أو النظام . . فيفقد شخصيته وذاتيته . يفقد قدرته على الحكم على الأشياء . ويفقد بالتالى قدرته على التوجيه . ويصبح كماً سالباً ، ينقاد ولا يقود ، يوجَّه ولا يوجِّه . ترسم له التعليمات فينفذها ، ولا يفكر يوماً فى اختبار هذه التعليمات ليرى إن كانت صالحة حقاً أم داعية إلى الفساد .

ويستذل الإنسان لعادة أو شهوة ، فينطلق معها إلى آخر المدى .. وتستعبده . تستعبده الكأس أو لفافة التبغ أو قطعة المخدرات . . أو يستعبده قدح الشاى أو القهوة أو الأكلة الطيبة . . أو يستعبده الفراش الوثير والترف والنعيم . . أو تستعبده شهوة الجنس أو شهوة المال أو شهوة الخصام أو .. شهوة العبودية ! فيصبح منقاداً لما يُستعبد له . لا يملك نفسه ولا يحررها . ولا يصلح للانطلاق لإصلاح ما يفسد من الأمور فى الأرض . فالانطلاق يحتاج إلى إيجابية ووعى ، وقدرة على التحكم فى الشهوات . قدرة على الاستغناء فترة من الوقت أو جميع الوقت عن لذائذ الأرض . فقد يؤدى الجهاد فى سبيل الإصلاح إلى الحرمان من هذه اللذائذ .. بل إلى الحرمان من الحياة .

ويستذل الإنسان لتقليد اجتماعى له أصل أو لا أصل له ، فينساق وراءه ، ويظل يزاوله حتى وهو لا يؤمن به فى دخيلة نفسه . ومن ثم يصبح منافقاً ، وينقلب المجتمع إلى بؤرة من النفاق .

تلك عيوب السلبية .. حين توقع على الوتر نغمة نشاز .

أما الإيجابية فقد تنحرف إلى تبجح وعناد وإصرار وتشدد . . فى فعل السيء من الأمور .

يريد الإنسان أن « يثبت وجوده » . أن « يحقق ذاتيته » فيحطِّم . . فالتحطيم أسهل من البناء ! ويعتدى . . فالعدوان أقرب إلى النفوس الهابطة !

ويرتكب كثيراً من ألوان الشر ليبرز ويشار إليه بالبنان . . أو « ينحل » من كل رابط كما تصنع « الوجودية » فلا مقياس لشيء أو فكرة أو سلوك أو عمل إلا ما يراه هو أنه صواب ، وليتفكك المجتمع وليتناثر فليس له فى حسه وجود ! وفوق كل شيء يتبجح بمعصية الله . . أو بإنكار الله ، ليقال عنه إنه جرىء ! حر الفكر ! مقدام !

ألوان من الانحراف لا تصدر عن فطرة سليمة ! فالفطرة السليمة تثبت وجودها وتحقق ذاتيتها فى عمل الخير . وإنه لقمم عالية من فوقها قمم ، لا يرقاها إلا « الإيجابيون » حقاً ، المالكون لنفوسهم ، الموجِّهون لها ، الداعون الناس إلى ما فيه الخير ، القائدون لهم فى سبيل الفلاح « واجعلنا للمتقين إماماً »[1] .

والإسلام يتناول هاتين الطاقتين فيضع كلا منهما فى مكانه الصحيح . وفى التو تنطلق النفس صحيحة البنيان قوية الكيان . . كما تدور الساعة فى اللحظة التى يتم فيها وضع المسامير و « التروس » ، فى مكانها الصحيح .

يجعل الإسلام سلبية كاملة إزاء الله ..

وإيجابية كاملة إزاء كل قوى الكون ..

وبذلك تصلح النفس و تستقيم الحياة ..

سلبية كاملة إزاء الله . . فالله هو الخالق ، والله هو المدبر ، والله هو مالك الملك ومصرف كل أمر . هو الذى يحيي ويميت ويبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . وهو القاهر فوق عباده . وهو الفعال لما يريد . وهو الذى يملك حقاً أن ينفذ ما يريد ، حيث لا يملك أحد غيره من البشر لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . فضلا عن أن يملكوا للآخرين .

---

(١) سورة الفرقان (٧٤) .

إنها حقيقة . . حقيقة « علمية » ! الله وحده هو المالك لما يريد .

ومن ثم فموقف الإنسان من الله هو التسليم الكامل المطلق بلا مراجعة ولا سؤال ولا تردد ولا اقتراح ولا اعتراض . . إذ . . ما القيمة « العملية » لكل ذلك ؟ وما النتيجة من العناد ؟ !

كلا ! التسليم هو الأولى والأوفر والأجمل والأفضل !

وهو تسليم كريم . . إنه ليس تسليما لقوة مساوية للإنسان فيكون فى ذلك التسليم غضاضة على النفس . وليس تسليما لعدو قاهر . . وإنما لرب رحيم يصف نفسه بالرحمة المطلقة الشاملة فى كل سورة : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وليس تسليما لسلطة تسئ استخدام السلطة ! سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . إنما هو تسليم للمانح الوهاب المتفضل المنعم ، الذى تفضل دون قهر أحد ودون طلب من أحد فوهب للإنسان وجوده ، ووهب للإنسان مواهبه ، وأنعم عليه نعمه ، وحباه بالتسهيلات من كل جانب سواء فى تصويره فى أحسن صورة ، أو فى تسخير الكون لصالحه ، ليستطيع الحياة ، وليستطيع ترقية الحياة .

إنه إذن يُسلِم نفسه تسليما كريماً « لائقاً » لا وجه للغضاضة فيه !

وهو تسليم الحب ! وليس تسليم القهر !

إن الله هو القاهر فوق عباده حقاً . وهو يملك كل وسائل القهر ، وبيده ملكوت كل شيء . ولكن الله ذاته هو الذى يحب عباده ويرضى عنهم ، ويدعوهم إلى حبه « والرضى عنه » .

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[1] .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه . ذلك الفوز العظيم »[2] .

---

(١) سورة آل عمران (٣١)   (٢) سورة المائدة (١١٩)

وهو تسليم الاطمئنان :

« ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب »[1] .

* * *

ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان إيجابيته الكاملة تجاه الأشياء والأشخاص والأحداث !

إنها العجيبة التي تحدث في النفس المؤمنة ! عجيبة الإيمان التي تملؤها فتطلقها بانية منشئة هادية ، مكافحة معتزة مجاهدة مستعلية !

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[2] .

تلك هي العزة إزاء الأشخاص .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس »[3]

وتلك هي العزة إزاء الأحداث .

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه »[4] .

وتلك هي العزة إزاء الأشياء .

عزة كاملة في كل اتجاه . .

وهذه معجزة الإيمان . . التسليم الكامل لله يعطي النفس هذه القوة العجيبة التي تكافح بها كل شيء وتستعلي بها على كل شيء، وتنشيء بها ما تريد .

إنه لا عبودية لقوة المادة ولا قوة الاقتصاد ولا قوة الدولة ولا قوة المجتمع ولا قوة العادة ولا قوة التقاليد . لا «حتمية» لشيء على وجه الأرض إلا سنة

---

(١) سورة الشورى (١٠) (٢) سورة المنافقون (٨)

(٣) سورة آل عمران (١٣٩ — ١٤٠) (٤) سورة الجاثية (١٢)

الله : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . ومن سنة الله أن تكون النفس المؤمنة قوة كونية قادرة ، تسير مع الناموس الأكبر ، وتفهم عنه أسراره ، وتستغل قواه وطاقاته .. لأن هذه القوى والطاقات كلها مسخرة للإنسان بإذن من الله .

ومن ثم كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقاً ينشئون نظاماً غير مسبوق فى كل الأرض . نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وروحياً لا توحى به ضرورة من ضرورات الأرض ، وليس نتيجة « حتمية » لشىء من ظروف الأرض . إنما يُنشأ إنشاء ؛ إرادةً واقتداراً ، بدافع الإيمان .

ومن ثم كذلك كان المسلمون الأوائل الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان حقاً يستعلون على القوى المادية والقوى الاجتماعية والقوى البشرية . فيثبتون — وهم القلة القليلة — لكل كيد قريش ، وكل قوة قريش ، وكل اقتصاديات قريش ؛ وكل عادات العرب وتقاليدهم ومفاهيمهم . . ثم يثبتون لكيد القوى البشرية وطغيانها ، ويستعلون عليها ثم يهزمونها ويغلبون عليها . . بشىء واحد . . هو الإيمان .

ومن ثم كانت وقفة أبى بكر الخالدة فى وجه قوى الأرض كلها.. بمفرده .. بمفرده مؤمناً بالله الإيمان الحق ، واصلا إلى الله الوصول الحق .. مسلماً لله الإسلام الحق .. فنصره الله ، وحول «شعوره» المؤمن إلى وقائع وأحداث وتاريخ . .

بذلك يضع الإنسان سلبيته الفطرية فى مكانها الحق .. ثم يصبح بعد ذلك أكبر قوة إيجابية على وجه الأرض !

من وسائل التربية

فى الفصول السابقة لمسنا تلك الدقة العجيبة فى العناية بكل وتر من أوتار النفس البشرية ، وكل جانب ، وكل اتجاه . ومع ذلك فالإسلام لم يستنفد بعد كل وسائل التربية ، وما زال فى جعبته مزيد !

إنه يربى بالقدوة ، ويربى بالموعظة ، ويربى بالعقوبة ، ويربى بالقصة ، ويربى بالعادة ، ويربى بالأحداث .

كل لون من هذه الألوان ينفذ إلى النفس من أحد منافذها ، ويلعب على بعض أوتارها .. حتى يغادر الإنسان فى النهاية ولم يبق منفذ واحد لم ينفذ إليه ، ولا وتر واحد لم يوقع عليه ، ولا جانب ولا اتجاه .

التربية بالقدوة

القدوة فى التربية هى أفعل الوسائل جميعاً وأقربها إلى النجاح .

من السهل « تأليف » كتاب فى التربية ! ومن السهل تخيل منهج ، وإن كان فى حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول .. ولكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق .. يظل معلقاً فى الفضاء .. مالم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك فى واقع الأرض .. مالم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه . عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة ، ويتحول إلى حركة ، ويتحول إلى تاريخ .

ولقد علم الله سبحانه — وهو يضع ذلك المنهج العلوى المعجز — أنه لا بد من ذلك البشر . لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوّله إلى حقيقة ، لكى يعرف الناس أنه حق .. ثم يتبعوه .

لا بد من قدوة ..

لذلك بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة للناس : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »(١) .

ووضع فى شخصه صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للمنهج الإسلامى .. الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ .

سئلت عائشة رضى الله عنها ، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن !

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة .. كان خلقه القرآن ! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته .. ومن ثم كان — كالقرآن — قوة كونية عظمى . قوة من صنع الله ، يتكامل فيها الناموس ، وتتكامل فيها القوى ، وتلتقى السماء بالأرض أروع لقاء شهده الكون . . لا عجب أن كان مولده مولد النور ..

لقد عرف العلم أخيراً حقيقة عرفتها الروح البشرية ببداهتها منذ آماد .. عرف أن المادة عبارة عن طاقة ، وأن الطاقة تتحول إلى إشعاع ..

ولقد أدركت الروح البشرية ببداهتها منذ آماد أن الإنسان طاقة . . وأن طاقته تتحول إلى إشعاع ، تتحول إلى نور ..

ولكنها لم تدرك هذه الحقيقة على تمامها وكمالها وحقيقتها ، حتى رأت

---

(١) سورة الأحزاب (٢١) .

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . طاقة من النور الشفيف بعثها الله لتنير للناس على الأرض السبيل : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »[١] .

ولقد فاض هذا النور فى القلوب وفاض فى الوجود ، وكشف الطريق للناس فساروا فيه مهتدين واصلين .

وبهر النور نفوس النـاس ، فتعلقت به وأحبته كما لم يحب أحد أحداً فى العالمين .. لم ينل أحد من البشر ما نال محمد من الحب .. حتى من المعارضين لدين الله ، والنافرين من الهدْىِ الجديد !

ولقد قامت المعركة بين الحق والباطل كما كان طبيعياً أن تقوم .. وانتصر الحق كما كان طبيعياً أن ينتصر ، فانزاحت الظلمة التى كانت تحجب النور عن الناس ، وبقى هذا النور — محمد بن عبد الله — ساطعاً مشعشعاً ، «وسراجاً منيراً» كما أراده الله ، يهدى الناس من خلال القرون ويربط قلوبهم بالله .

ولقد كان محمد عجيبة من عجائب الـكون . طاقة كونية كما قلنا ، صادرة من الله ، معجزة كآيات الله .

عظمات . . لا تحدّ .

شخوص كثيرة مجتمعة فى شخص واحد . كل واحد منها متـكامل فى ذاته كأنه متخصص فى جانبه منقطع له .. ثم تجتمع الشخوص كلها — على تـكامل كل منها — فتتـكامل على نطاق أوسع ، وتتناسق فى محيطها الشامل ، وتتألف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس ، وتجمعها فى توازن واتساق !

روح شفيفة تعدل وحدها كل روحانية المسيح عليه السلام . والمسيح كان « متخصصاً » فى الروحانية .

---

(١) سورة الأحزاب (٤٥ – ٤٦)

وقوة حيوية فياضة تعدل وحدها أشد الناس حيوية لو كان متخصصاً فيها بلا زيادة ! يمشي وكأنما يتقلع من الأرض تقلعا . ويمضي في الأمر كأنما كل نفسه فيه . يحارب منطلقا كالعاصفة لا يرده شيء . قال علي رضي الله عنه : كان أشجعنا أقربنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال ! ويتزوج ويستمتع بطيبات الأرض كواحد متفرغ لذلك المتاع ! يسلم على الناس بجميع يده وفي حرارة وقوة. يرضى من كل نفسه فيعرف أصحابه في وجهه السرور . ويغضب فيبدو الغضب على وجهه ويدر عرق في جبهته .. هي القوة الحيوية الفياضة في كل اتجاه .

ورجل سياسة يشيد أمة من الفتات المتناثر فإذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في التاريخ . ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وروحه وجهده ومشاعره ما يشغل — وحده — حياة كاملة بل حيوات .

ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر . . كقائد متخصص كل همه القتال ، متفرغا له عن كل ما عداه .

وأب وزوج ورب أسرة كبيرة كثيرة النفقات . . نفقات النفس والفكر والشعور فضلا على نفقات المال . . كرجل متخصص للأبوة على أعلى نسق شهدته الأرض ، ومتخصص للأسرة لا يشغله عنها شاغل من الحياة .

وصديق وقريب وصاحبٌ للناس تشغله همومهم ، وتملأ نفسَه مشاعرُهم ، ويعودهم ويزورهم ويعينهم ويمنحهم من مودته وعطفه ما يشغل رجلا إنساني القلب يهب حياته كلها لشئون الناس .

وعابد متحنث لربه ، كرجل منقطع للعبادة ، متخصص لأدائها ، لا تصله بالأرض رابطة ، ولا يشغله هم من الهموم ، ولا تجيش في نفسه نوازع ، ولا تتحرك في كيانه رغبات .

ومع ذلك كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض . الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل . وتغلغلت في كيانه كله فمدته على أقصى اتساع . عظمات .. لاتحدّ .

كل هذه الشخوص المتفرقة مجموعة في شخصه . مجموعة على تناسق وتوافق واتزان . كل منها يأخذ نصيبه كاملا من نفسه ومع ذلك لا يميل ، لأن طاقات أخرى عظيمة توازنه في كل اتجاه .

ذلك محمد بن عبد الله .. النور الكوني الذي بهر العالمين .

وحق للناس أن يحبوه كل ذلك الحب ويعجبوا به و يَتبَعوه .

ولقد كانت حكمة الله سبحانه من بعثه على هذه الصورة المتكاملة الشاملة العظيمة ، كحكمته في إنزال القرآن على هذا النهج الشامل المعجز العظيم ؛ فكان محمد — في كونه آية كونية — كفئا لهذا القرآن .. وكان خلقه القرآن !

* * *

وكان قدوة للناس في واقع الأرض .. يرونه — وهو بشر منهم — تتمثل فيه هذه الصفات كلها وهذه الطاقات ، فيصدقون هذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأى العين ولا يقرأونها في كتاب ! ويرونها في بشر ، فتتحرك لها نفوسهم وتهفو لها مشاعرهم . ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول . . كل بقدر ما يطيق أن يقبس ، وكل بقدر ما يحتمل كيانه الصعود . لا ييأسون ولا ينصرفون .. ولا يدّعونه حلما مترفا لذيذا يطوف بالأفهام .. لأنهم يرونه واقعاً يتحرك في واقع الأرض . ويرونه سلوكا عملياً لا أمانيّ في الخيال .

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل . وكان مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي

ينطلق به ، سواء فى ذلك القرآن المنزل وحديث الرسول .

عن طريقه أنشأ الله هذه الأمة التى يقول فيها سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .(١) وبه منّ الله على تلك الأمة : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »(٢) .

وهذه القدوة باقية مابقيت السماوات والأرض . .

إن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليست آية عصر ولا جيل ولا أمة ولا مذهب ولا بيئة . . إنها آية كونية . . للناس كافة وللأجيال كافة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٣) . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »(٤) .

فهو للعالمين كلهم . وللناس كافة . فى جميع الأزمان من لدن مبعثه . وفى جميع الأجيال . وفى كل الأرض . آية باقية لاتذهب ولا تنقص ولا تزول .

وإنه لحىّ اليوم فى هذه اللحظة كما كان حيا فى شبه الجزيرة قبل ألف وثلثمائة عام . لم ينقص شئ ولم يتغير شيء . كما لا تتغير الشمس ولا تتغير سنن الكون ولا تفنى الطاقات .

وإن سيرته حين تُقرَأ لتلمس النفس وتهزها من قواعدها كما لايهزها شيء . . وتتغلغل فيها إلى الأعماق .

وطبيعى أن الذين شهدوه صلى الله عليه وسلم وأخذوا الحياة مباشرة

---

(١) سورة آل عمران (١١٠) .
(٢) سورة آل عمران (١٦٤)
(٣) سورة الأنبياء (١٠٧) .
(٤) سورة سبأ (٢٨) .

عن شخصه الكريم ، قد أخذوا الشحنة كاملة فى أرواحهم وقلوبهم وأفكارهم ومشاعرهم وأجسادهم ، فانطلقوا — وهم حفنة قليلة — يصنعون أعجب أحداث التاريخ ، كما تنطلق الطاقة الذرية المركزة تحدث الأعاجيب .

ولكن القوة الحيوية العجيبة التى كان يشتمل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الضخامة والعظمة وقوة الإشعاع والإيحاء بحيث يملك استحياءها فى قلبه كل شخص يلقى إليها نفسه ويفتح لها مشاعره ، فتنتفض حية شاخصة كأنه يلمسها فى العيان .

وليس ذلك بدعا فى واقع النفوس وواقع الحياة .

إن الأمم تعيش أجيالا على سير أبطالها المحليين الصغار ، الذين يلبون حاجة جيل معين فى بيئة معينة فى بقعة من الأرض محدودة . وكلما ارتفع « البطل » فى مقياس الإنسانية كانت حياته أشمل وأطول ، وأخلد على مر الأزمان .. فكيف بداعى السماء للأرض ؟ كيف بالآية الكونية التى تشمل كيان الحياة ؟

لقد بعثه الله للناس كافة وللعالمين .. وهو أعلم حيث يجعل رسالته . وأعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير . وقد جعله القدوة الدائمة للبشرية ، يقبسون من نوره ، ويتربون على هديه ، ويرون فى شخصه الكريم الترجمة الحية للقرآن ، فيؤمنون بهذا الدين على واقع تراه أبصارهم محققا فى واقع الحياة .

وكان هذا تدبيراً لله سبحانه ، يكافىء تدبيره فى تنزيل القرآن .

* * *

وإذ يجعل الإسلام قدوته الدائمة هى شخصية رسوله ، فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال .. متجددة فى واقع الناس .

إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدى فى سبحات الخيال[1] .

إنه يعرضها عليهم ليحققوها فى ذوات أنفسهم ، كل بقدر ما يستطيع أن يقبس ، وكل بقدر مايصبر على الصعود . ومن ثم تظل حيويتها دافقة شاخصة ، ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم فى حبه الأرواح دون تأثر واقعى ولا اقتداء .

والإسلام يرى — كما أشرنا فى أول الفصل — أن القدوة أعظم وسائل التربية ، فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس .. لابد للطفل من قدوة فى أسرته ووالديه لكى يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع . ولا بد للناس من قدوة فى مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة لكى يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال ، ولابد للمجتمع من قدوة فى قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم ، تتحقق فى شخصه المبادئ ، وينسج على منواله المحكومون . .

والقدوة للجميع هى شخصية الرسول التى تتمثل فيها كل مبادىء الإسلام وقيمه وتعاليمه .

ومن ثم يقيم الإسلام منهجه التربوى على أساس أنه هو الذى يسيّر دفة المجتمع ودفة الحياة . .

إنه لا يجعل التربية مجهوداً فردياً يخفق أو ينجح . . وتذروه الرياح والأعاصير ! وإنما يجعله منهجاً شاملاً متكاملا يبدأ بولى الأمر وينتهى بالطفل الرضيع : حكم إسلامى ، ومجتمع إسلامى . . وتربية إسلامية . وتلك مسألة بديهية . فكل نظام يضع منهجه على أساس أنه هو الذى يقوم بتنفيذه .

---

(١) انظر مقدمة كتاب « قبسات من الرسول » .

والإسلام أولى النظم بتلك القواعد البديهية لأنه لا يستطيع أن يعمل بأدوات غيره . ولا بد له أن يستخدم أدواته الخاصة لتحقيق منهجه المتفرد على مدار التاريخ .

وحين يتكون مجتمع إسلامى فإنه يشْرِبُ أطفاله مبادئ الإسلام عن طريق القدوة القائمة فى هذا المجتمع ، متمثلة فى الأسرة والوالدين[1] .

إن الولد الذى يرى والده يكذب .. لا يمكن أن يتعلم الصدق !

والولد الذى يرى أمه تغش أباه أو أخاه أو تغشه هو نفسه .. لا يمكن أن يتعلم الأمانة !

والولد الذى يرى أمه مستهترة لا يمكن أن يتعلم الفضيلة .

والولد الذى يقسو عليه أبوه لا يمكن أن يتعلم الرحمة والتعاون . .

والأسرة هى المحضن الذى يبذر فى نفس الطفل أول بذوره ، ويكيّف بتصرفاته مشاعر الطفل وسلوكه .

ومن ثم ينبغى أن تكون أسرة نظيفة . أسرة مسلمة . حتى ينشأ جيل مسلم يحقق فى نفسه مبادئ الإسلام . يأخذها بالقدوة المباشرة . . المنقولة عن قدوة الرسول .

وينبغى أيضاً — بالإضافة إلى ذلك — أن تكون سيرة الرسول جزءاً دائماً من منهج التربية ، سواء فى المنزل أو المدرسة أو الكُتّاب أو الصحيفة أو المذياع . لتكون القدوة دائمة وحية وشاخصة فى المشاعر وفى الأفكار .

التربية بالموعظة

فى النفس استعداد للتأثر بما يلقى إليها من الكلام . وهو استعداد مؤقت فى الغالب . ولذلك يلزمه التكرار .

---

(١) انظر فصل « المجتمع المسلم » فى هذا الكتاب .

والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان . وتهزه هزاً . وتثير كوامنه . لحظة من الوقت . كالسائل الذى تُقَلِّب رواسبه فتملأ كيانه . ولكنها إذا تركت تترسب من جديد .

لذلك لا تكفى الموعظة وحدها فى التربية إذا لم يكن بجانبها القدوة والوسط الذى يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها . فالقدوة المنظورة الملموسة هى التى تعلق المشاعر ، ولا تتركها تهبط إلى القاع وتسكن بلا حراك .

وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ فى النفس ، وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع فى تربية النفوس ..

ثم إنها من جانب آخر ضرورة لازمة . . ففى النفس دوافع فطرية فى حاجة دائمة للتوجيه والتهذيب . ولا بد فى هذا من الموعظة . فقد لا يلتقط الإنسان القدوة الصالحة ، أو قد لا تكفيه بمفردها .

قد لا يسرق الوالد ولا الأم . . ولكن الطفل يجنح إلى السرقة بدافع من دوافع الأطفال .

قد لا يكذب الوالد ولا الأم . . ولكن الطفل يكذب ليكمل نواحى النقص التى يحسها فى نفسه أو فى بيته أو فى والديه !

قد لا يقسو الوالد ولا الأم . . ولكن الطفل يمسك الطيور فيخنقها ، والقطط فيشد ذيولها وينصل آذانها !

لابد حينئذ من الموعظة ! موعظة لطيفة خفيفة مؤثرة . ترد الطفل إلى صوابه وتعوده على مكارم الأخلاق .

والإنسان الكبير كالطفل الصغير فى حاجة دائمة إلى المواعظ ، فقد لا يلتقط القدوة الصالحة · أو قد لا تكفى وحدها للتقويم .

فقد يعدل الحاكم ويَظلِمُ المحكومون . ويستعلى القائد ويسفل الشعب ؛ مدفوعين بما ركب فى طبيعة الإنسان من ضعف واتباع للشهوات .

لابد حينئذ من الموعظة !

والقرآن ملىء بالمواعظ والتوجيهات :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به »[1] .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا »[2] .

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه : حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين . أن اشكر لى ولوالديك ، إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً . واتبع سبيل من أناب إلىّ ، ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا . إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »[3] .

---

(١) سورة النساء (٥٨) (٢) سورة النساء (٣٦)

(٣) سورة لقمان (١٣ — ١٩) .

« لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم . إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها »[1] .

وهذه مجرد نماذج من الوعظ . . وإلا فالقرآن كله موعظة للمتقين ! : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[2] .

---

(١) سورة الإسراء (٢٢ — ٣٨) (٢) سورة آل عمران (١٣٨)

التربية بالعقوبة

حين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة ، فلابد إذن من علاج حاسم يضع الأمور فى وضعها الصحيح .

والعلاج الحاسم هو العقوبة[1] .

وبعض اتجاهات التربية الحديثة تنفر من العقوبة وتكره ذكرها على اللسان!

ولكن الجيل الذى أريد له أن يتربى بلا عقوبة — فى أمريكا — جيل منحل متميع مفكك الكيان .

إن العقوبة ليست ضرورة لكل شخص . فقد يستغنى شخص بالقدوة وبالموعظة فلا يحتاج فى حياته كلها إلى عقاب . . ولكن الناس كلهم ليسوا كذلك بلا ريب . ففيهم من يحتاج إلى الشدة مرة أو مرات .

وليست العقوبة أول خاطر يخطر على قلب المربى ولا أقرب سبيل. فالموعظة هى المقدَّمة ، والدعوة إلى عمل الخير ، والصبر الطويل على انحراف النفوس لعلها تستجيب .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ؟ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[2] .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[3] .

« واصبر على ما يقولون »[4] .

---

(١) التربية بالعقوبة يكلها ويقابلها التربية بالمثوبة ، وقد تحدثنا عنهما هناك فى الخطوط المتقابلة ولكننا رأينا أن نفرد هنا كلمة خاصة بالعقوبة لأهميتها بعد القدوة والموعظة .

(٢) سورة فصلت (٣٣ — ٣٤)

(٣) سورة النحل (١٢٥)

(٤) سورة المزمل (١٠)

والموعظة وسائل مختلفة لا وسيلة واحدة . والقرآن ملىء باللمسات الدقيقة اللطيفة الموحية المؤثرة التى تهز الوجدان وتؤثر فيه بكل وسائل التأثير .

ولكن الواقع المشهود أن هناك أناساً لا يصلح معهم ذلك كله ، أو يزدادون انحرافاً كلما زيد لهم فى الوعظ والإرشاد !

وليس من الحكمة أن نتجاهل وجود هؤلاء أو نتصنع الرقة الزائدة فنستنكر الشدة عليهم !

إنهم مرضى . نعم. ومنحرفون. و « العيادات السيكلوجية » قد تصلحهم ! ولا أحد يمنع عنهم العلاج النفسى أو أى نوع من أنواع العلاج . ولكن فلنحذر أن نجعل وسيلتنا فى تربية النفوس أن نجاريها فى انحرافاتها ونتلمس لها الأعذار . فإن ذلك نفسه يبعث على الانحراف ويزيد عدد المنحرفين !

إن التربية الرقيقة اللطيفة الحانية كثيراً ما تفلح فى تربية الأطفال على استقامة ونظافة واستواء . ولكن التربية التى تزيد فى الرقة واللطف والحنو تضر ضرراً بالغاً لأنها تنشىء كياناً ليس له قوام .

والنفس فى ذلك كالجسم ! إذا رفقت بجسمك رفقاً زائداً فلم تحمله جهداً خشية التعب ، ولا مشقة خشية الإنهاك ، فالنتيجة أنه لا يقوى أبداً ولا يستقيم له عود . وإذا رفقت بنفسك رفقاً زائداً فلم تحملها أبداً على ما تكره، فالنتيجة أنها تتميع وتنحرف ولا تستقيم . . وفضلا عن ذلك فإنها تشقى صاحبها لأنها لا تدع له فرصة يتعود فيها على ضبط مشاعره وشهواته . . فيصطدم « بالواقع » الأرضى الذى لا يعطى للناس قط كل ما يشتهون !

ومن هنا كان لابد من « شىء » من الحزم فى تربية الأطفال وتربية الكبار . لصالحهم هم أنفسهم قبل صالح الآخرين .

ومن الحزم استخدام العقوبة أو التهديد باستخدامها فى بعض الأحيان .

والإسلام يتبع جميع وسائل التربية فلا يترك منفذاً فى النفس لا يصل إليه. إنه يستخدم القدوة والموعظة ، والترغيب والثواب .. ولكنه كذلك يستخدم التخويف والترهيب بجميع درجاته . من أول التهديد إلى التنفيذ .

فهو مرة يهدد بعدم رضاء الله . . وذلك أيسر التهديد وإن كان له فعله الشديد فى نفوس المؤمنين :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون(1) » .

ومرة يهدد بغضب الله صراحة (كما جاء فى حديث الإفك) وتلك درجة أشد :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم ؟ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين(2) » .

ومرة يهدد بحرب الله ورسوله :

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله(3) » .

ومرة يهدد بعقاب الآخرة :

« والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله

(1) سورة الحديد (16)   (2) سورة النور (14 — 17)

(3) سورة البقرة (278 — 279)

إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً »(1) .

ثم يهدد بالعقاب فى الدنيا :

« إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم »(2) .

« وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً »(3) .

« وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة »(4) .

« إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا »(5) .

ثم يوقع العقاب !

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة »(6) .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا »(7) .

درجات متفاوتة لدرجات من الناس ! فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ، ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف . ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح . ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ . ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه . ومنهم بعد ذلك فريق لا بد أن يحس لذع العقوبة على جسمه لكى يستقيم !

التربية بالقصة

فى القصة سحر يسحر النفوس !

أى سحر هو وكيف يؤثر على النفوس ؟ لا يدرى أحد على وجه التحديد !

---

(1) سورة الفرقان (٦٨ — ٦٩) .
(2) سورة التوبة (٣٩) .
(3) سورة الفتح (١٦) .
(4) سورة التوبة (٧٤) .
(5) سورة التوبة (٥٥) .
(6) سورة النور (٢) .
(7) سورة المائدة (٣٨)

أهو انبعاث الخيال يتابع مشاهد القصة ويتعقبها من موقف إلى موقف ، ومن تصرف إلى شعور ؟

أهو « المشاركة الوجدانية » لأشخاص القصة وما تثيره فى النفس من مشاعر تتفجر وتفيض ؟

أهو انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل الإنسان نفسه فى داخل الحوادث ، ومع ذلك فهو ناج منها متفرج من بعيد ؟

أيا كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية ، وسيظل معها حياتها كلها على الأرض .. لا يزول !

وأيا كان الأمر فلا شك أن قارئ القصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها وحوادثها . فهو — على وعى منه أو غير وعى — يدس نفسه على مسرح الحوادث . ويتخيل أنه كان فى هذا الموقف أو ذاك ، ويروح يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق ، أو يستنكر ، أو يملكه الإعجاب .

والإسلام يدرك هذا الميل الفطرى إلى القصة ، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب ، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم .

وهو يستخدم كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التى تعرض نموذجاً لحالة بشرية ، فيستوى أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك النموذج ، والقصة التمثيلية التى لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة من اللحظات وفى أى عصر من العصور .

من النوع الأول كل قصص الأنبياء . وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من جراء هذا التكذيب . وهى قصص تذكر بأسماء أشخاصها

وأما كنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر : موسى وفرعون . عيسى وبنى إسرائيل . صالح وثمود . هود وعاد . شعيب ومدين . لوط وقريته . نوح وقومه . إبراهيم وإسماعيل .. إلخ .. إلخ .

ومن النوع الثانى قصة ابنى آدم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك . إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك . فتكون من أصحاب النار . وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين .. »[1] .

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين : « واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا ؟ لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله ، لاقوة إلا بالله ؟ ! إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمره . فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ،

---

(١) سورة المائدة (٢٧ — ٣٠) .

ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً [1] .

والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التى يشملها منهجه التربوى : تربية الروح ، وتربية العقل ، وتربية الجسم ؛ والتوقيع على الخطوط المتقابلة فى النفس ؛ والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة . فهى سجل حافل لجميع التوجيهات ، وهى كذلك — على قلة عدد الألفاظ المستخدمة فى أدائها — حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصاته : من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقى ، إلى إحياء للشخوص ، إلى دقة فى رسم الملامح ، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة فى القصة لتوجيه القلب للعبرة ، والتوقيع عليه بالنغم المطلوب [2] .

وقصة آدم بصفة خاصة من أهم القصص التوجيهى فى القرآن . فهى قصة البشرية الأولى ، وقصة البشر كلهم على مدار التاريخ : « وإذ قال ربك للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم . الحكيم قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة

---

(١) سورة الكهف (٣٢ — ٤٣) .

(٢) لا علينا هنا ذكر التفصيلات الوافية فى شأن القصة . وهى مدروسة بالتفصيل فى فصل « القصة فى القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » لسيد قطب .

فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانافيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1] .

إنها قصة « الإنسان » الذى كرمه خالقه ورفعه ، ومنحه خلافة الأرض ، على أن يكون سيداً لنفسه ، وعبداً لله وحده دون شريك . ولكنه يضعف ، بسبب شهوة من شهوات نفسه : شهوة جنس ، أو شهوة مال ، أو شهوة مِلك ، أو شهوة قوة ، أو شهوة علم ، أو شهوة خلد .. فيسلم زمامه للشهوة ، فيستزله الشيطان من مقودها ، ويقوده ويستعبده فلا يعود سيد نفسه ، وينسى مهمته الضخمة فى خلافة الأرض وتعميرها . ينسى أن مهمته الحقيقية الكبرى هى وصل الأرض بالسماء . فيخلد إلى الأرض وينحصر فى عالم ضيق صغير محدود الهواتف محدود الجنبات . ولكن الله مع ذلك لا يطرده من رحمته : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » فهو قريب منه يحدوه ويهديه ، ما دام لا يصر على لحظة الهبوط ، وما دام يفتح قلبه وبصيرته لله . وعندئذ يعود إلى الخلافة الراشدة ، ويحقق كيانه الأسمى مهتدياً بهدى الله ، واصلا إلى حماه[2] .

وقد كان أمراً طبيعياً أن تكون القصة فى القرآن « موجَّهة » خاضعة للأغراض الدينية التى جاءت لتحقيقها . فليس القرآن كتاب قصص فى أصله، وإنما هو كتاب تربية وتوجيه . ولكن الدقة فى الأداء ، ومراعاة القواعد الفنية فيه ، يجعل القصة — مع خضوعها للغرض الدينى — طليقة من الوجهة

---

(١) سورة البقرة (٣٠ — ٣٩) .
(٢) انظر الجزء الأول من ظلال القرآن (الطبعة الثانية) ص ٧٠ — ٧٤ .

الفنية . ويجعل استخدام القصص للتربية — على إطلاقها — جزءاً من منهج التربية الإسلامية . بشرط واحد : هو أن تكون « نظيفة » .

وليس المقصود بالنظافة أن تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء !

صحيح أن القرآن يختار من نفس « بطل القصة » اللقطة المترفعة المستعلية النظيفة الرائقة الشفيفة ، التى تصلح للقدوة ، وتغرى بالارتفاع . ويختار من نفوس المنحرفين اللقطة التى تصور سواد قلوبهم وسوء انحرافهم ، لتصلح للتنفير من أفعالهم ، والاعتبار بمصايرهم — وهذا منطقى مع أهدافه ، فضلا على أنه كله حقائق — إلا أنه فى لقطات أخرى ، وخاصة فى القصص الطويلة التى تتسع للعرض والتحليل ، يعرض النفس البشرية كاملة ، بكل ما فيها من لحظات « الضعف البشرى » . كل ماهنالك أنه لايصنع كما تصنع الفنون « الواقعية ! » الحديثة ، المتأثرة بالتفسير الحيوانى للإنسان ، ولا يجعل من لحظة الضعف بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق والتهليل ! إنه يعرضها عرضاً « واقعياً » خالصاً ، ولكنه لايقف عندها طويلا ، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة .. لحظة التغلب على الضعف البشرى ، لأنها هى الجديرة فعلا بتسليط الأنوار عليها . وهى فى حقيقتها هى « الإنسان » الذى كرمه الله وفضله على كثير من الخلق ، وعهد إليه بالخلافة الراشدة فى هذه الأرض .

فهو إذ يعرض الفتنة التى وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى .. إلخ يعرض لحظة الضعف كما هى بلا « رتوش » . إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها — على واقعيتها — لاتستحق الاحتفال ! إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه . ويعرف أنها كانت لحظة ضعف . فيرتفع عنها ، وينيب إلى الله .

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف ! خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، ولا تُشْطِطْ ، واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة . فقال : أكفلنيها . وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وقليل ما هم ! وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[1] .

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد إنه أوّاب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى ، حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ ، فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً . ثم أناب . قال : رب اغفرلى . وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب »[2] .

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . . . . . قال : رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه . وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم »[3] .

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب

---

(١) سورة ص (٢١ — ٢٥) . (٢) سورة ص (٣٠ — ٣٥) .
(٣) سورة يوسف (٢٤ — ٣٤) .

بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب . فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه . قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما، قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل »[1] .

تلك وأمثالها لحظات « ضعف بشرى » يعرضها القرآن دون مداراة على أصحابها . . ولكنه لا يصنع منها بطولة . لأنها فى الحقيقة ليست كذلك ! وقصة آدم ذاتها من الأمثلة التى يتبين فيها المنهج القرآنى ، ويتبين إلى أى مدى يختلف هذا المنهج بوضوحه ونصاعته واستقامته عن المنهج الأوربى الذى يصنع من لحظة الضعف بطولة !

إنها — كما أسلفنا — لحظة ضعف أصابت آدم « فنسى » . نسى نفسه وعهده مع ربه ، وخلافته الراشدة ، وجنح إلى شهوة من شهواته فاستزله الشيطان منها ، وقاده من مقودها .

هكذا يعرضها القرآن . وهكذا تتبدى فى الحقيقة البشرية الواقعة على مدار الأجيال والقرون . ولكن الآداب الأوربية بما فيها من انحراف وتعثر ، تعرضها على أنها مفخرة لآدم وبطولة ! إن لحظة العصيان هى اللحظة التى حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيد نفسه ! وهى اللحظة التى أصبح فيها القوة المسيطرة

---

(١) سورة القصص (١٥ — ٢٢) .

الفعالة . ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التى كان فيها آدم ، فإنها لا تساوى شيئاً إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته ، واختياره مصيره بنفسه ، بحرية ، بعيداً عن وصاية الله !

كذلك تعرضها الآداب الأوربية المنحرفة المنقطعة عن هدى الله ، المتأثرة فى صميمها بما رسب فى كيانها من أساطير اليونان القديمة التى تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة ، وتتمنى انتصار البشر على الآلهة الظالمين الطغاة[1] .

وهى آداب ذات إيحاء خبيث لا يخفى . فهى توحى للناس بعصيان ربهم والإغراق فى الشهوات لكى يحققوا ذواتهم ! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان ! وكأنما الطاعة لله هى انعدام الشخصية وزوال الكيان ! إنها نظرة — فوق ما فيها من مرض وانحراف — فجة تعيش فى مستوى الأطفال ! فالطفل وحده هو الذى يظن أنه يثبت وجوده حين يعصى ، ويلغى كيانه إذا أطاع ! ولكنه حين يكبر وينضج ، حين يفهم الحياة فى عمقها وحقيقتها يعرف أن هناك طريقين لا طريقا واحداً لإثبات الذات : طريق الطاعة وطريق العصيان . طريق الهدى وطريق الضلال . وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق ، إلا فى حالة الضعف والمرض والهبوط . أما فى حالته السوية ، حالة الصحة والارتفاع ، فإنه يجد ذاته فى مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود ، ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيّرة المهتدية إلى الله . . أى بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته ليقدر على الصعود .

هذه حقيقة البشرية على الأرض .. وهى الحقيقة التى ترمز لها قصة آدم فى القرآن . .

---

(١) راجع الحديث عن أسطورة برمثيوس فى فصل تربية العقل .

كما أن هناك نقطة بارزة أخرى فى القصص القرآنى وهو يعرض قصص « الفاحشة » . إنه لا يعرضها لإثارة تلذذ القارىء أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة ، كما تفعل القصص « الواقعية » و « الطبيعية » فى المذاهب الحديثة الضالة . فلحظة الجنس — منحرفة أو غير منحرفة — لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرد الذكر . إنها ليست هى الحياة . إنها عارض يعرض فى الحياة ويُقْضَى . يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق . يفسح المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة والإنسان . لملء المشاعر بذلك التصور ، وإطلاق النفس فى واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله وجماله ما تقدر عليه : من إقامة مجتمع نظيف . من تربية نفوس مستقيمة . من إقامة الحق والعدل فى الأرض . من تمتيع الناس بحقوقهم ، وتجميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش — فى غير فتنة بها ولا انحراف .. وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الجنس البشرى ، وتشغل هم الإنسان الرفيع الذى ينبغى أن يعمر وجه الأرض . ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها ، وتفصيصها ، وإعادتها ، والتفنن فى عرضها ، لأن ذلك إسراف فى المقادير اللازمة بالنسبة للحياة البشرية ، وتحويل للوسيلة إلى أن تكون غاية ، وهى ليست كذلك فى الواقع ولا ينبغى أن تكون .. كل ذلك على فرض أنها لحظة جنس نظيفة عالية — لأنها فى حدودها المشروعة — فكيف إذا كانت انحرافاً وخروجا على المشروع ؟ إنها لا تستحق أن تروى بغير التنفير الذى يثير منها الاشمئزاز .

تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن « الفاحشة » ، وهى كذلك ينبغى أن تكون مرعية فى كل القصص « الإسلامى » . إن الإسلام لا يحرّم الفن . ولا يحرم وصف المشاعر الجنسية — نظيفة أو غير نظيفة — ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف . ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض . لحظة

ضعف لا لحظة بطولة . ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب ، ولا يلبث دائراً فى حلقتها المرتكسة على الدوام .

وهكذا تلتقى مطالب الفن ومطالب التصور الإيمانى دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة فى التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصيلة ، أو يجانب الحق ، أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير[1] .

التربية بالعادة

العادة — كما أشرنا من قبل — تؤدى مهمة خطيرة فى حياة البشرية . فهى توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشرى — بتحويله إلى عادة سهلة ميسرة — لينطلق هذا الجهد فى ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع . ولولا هذه الموهبة التى أودعها الله فى فطرة البشر ، لقضوا حياتهم — كما قلنا — يتعلمون المشى أو الكلام أو الحساب !

ولكنها على عظم مهمتها فى حياة الإنسان تنقلب إلى عنصر معوّق معطل ، إذا فقدت كل ما فيها من « وعى » وأصبحت أداء آلياً لا تلتفت إليه النفس ، ولا ينفعل به القلب .

والإسلام يستخدم العادة وسيلة من وسائل التربية ، فيحول الخير كله إلى عادة ، تقوم بها النفس بغير جهد ، وبغير كد ، وبغير مقاومة .

وفى الوقت ذاته يَحُولُ دون الآلية الجامدة فى الأداء ، بالتذكير الدائم بالهدف المقصود من العادة ، والربط الحىّ بين القلب البشرى وبين الله ، ربطاً تسرى فيه الإشعاعة المنيرة إلى القلب ، فلا ترين عليه الظلمات .

وقد بدأ الإسلام — وهو ينشأ فى الجاهلية — بإزالة العادات السيئة

---

(١) راجع فى هذا كتاب « منهج الفن الإسلامى » .

التى وجدها سائدة فى البيئة العربية . واتخذ لذلك إحدى وسيلتين : إما القطع الحاسم الفاصل ، وإما التدرج البطىء ، حسب نوع العادة التى يعالجها ، وطريقة تمكنها من النفس .

فكل عادة تتصل بأصل التصور والعقيدة والارتباط المباشر بالله ، فقد قطعها قطعا حاسماً من أول لحظة . فهى كالأورام الخبيثة فى الجسم ينبغى أن تستأصل من جذورها . وإلا فلا حياة .

والشرك بكل عاداته وتصوراته ، من عبادة للأوثان ، واجتماع حولها ، وأداء لمراسم معينة من أجلها . . كل ذلك قطعه من أول لحظة ، وبضربة حاسمة . لأنه لا يمكن أن يستقيم إيمان وشرك ، وعبادة لله وعبادة لغيره من الكائنات . ومن ثم كان ينقل المسلم نقلا كاملا حاسماً صريحاً من « البيئة الفكرية » التى كان يعيش فيها إلى البيئة الجديدة الإيمانية ، التى تقيم كل شىء فيها على أساس وحدانية الله الخالصة ، ووحدانية القوة المسيطرة على الكون والمصرفة لجميع أموره .

وعادة مثل وأد البنات لم يكن يمكن مهادنتها وهى تقوم على أساس غير إيمانى ولا إنسانى . والخوف من الفقر — وهو الدافع الأول لوأد البنات — لا يجوز أن يخالط النفس المؤمنة المطمئنة إلى الله . ثم إنه ظلم لا يستقيم مع « الحق » الذى خلقت به السماوات والأرض : « وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ »[1] .

وكذلك العادات النفسية من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكبر وعنجهية . . إلخ ، كان لا بد من مواجهتها مواجهة حاسمة ، وإن كانت

---

(١) سورة التكوير (٨ — ٩) .

الوسيلة إلى ذلك هى التوجيه المحي للقلب ، والاتصال بالله فى السر والعلن ، وفى الأخذ والعطاء .

وكلها عادات يمكن أن تنتقل فيها النفس — باللمسة الموحية — فى لحظة واحدة من أقصى الشمال لأقصى اليمين دون تدرج ولا إبطاء !

أما العادات « الاجتماعية » التى لاتقوم على مشاعر « الفرد » وحدها ، وإنما ترتبط بأحوال اجتماعية واقتصادية متشابكة فقد لجأ فيها إلى التدرج البطىء مع استمرار الوعظ والتوجيه واستحياء القلوب .

الخمر . والزنا . والربا . والرق .. لم تكن عادات « فردية » وجدانية بقدر ما كانت عملة سارية فى المجتمع . وهى كذلك ليست من العادات التى تستطيع كل نفس أن تحسم موقفها منها فى لحظة ، فلا يعاودها الحنين إليها ولا تعود !

لذلك لجأ فى علاج كل منها إلى التدرج على مراحل ودرجات ، أو أخر تحريمها حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم .

كانت أول إشارة لتحريم الخمر : « تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً »(١). ففصل بين السكر وبين الرزق الحسن . وكان توجيهاً لطيفاً أحس منه أذكياء القلب من المسلمين أن الله لابد محرمها ذات يوم قريب أو بعيد .

ثم كانت الإشارة الثانية : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس . وإثمهما أكبر من نفعهما »(٢) . إنها مرحلة الإقناع الوجدانى والعقلى ، لتتزحزح النفس عن إلفها ، وتتحول عن عادتها .

ثم كانت الإشارة الثالثة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم

---

(١) سورة النحل (٦٧) .　　(٢) سورة البقرة(٢١٩) .

سكارى »[1] . فنهى المسلمين عن السكر فى أوقات الصلاة . وهو نهى عن التعاطى فى الواقع . لأن الإنسان لايستطيع عمليا أن يشرب ثم يفيق قبل حلول موعد الصلاة .

ثم كانت الخطوة الحاسمة الأخيرة هى التحريم القاطع : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »[2] .

أما الزنا فقد تدرج به الأمر كذلك من النصيحة إلى التهديد بالعقوبة إلى تقرير عقوبة مجملة إلى تقرير عقوبة مفصلة محددة . . . كما تدرج من عدم إكراه الفتيات على البغاء مع إباحة زواج المتعة ، إلى تحريم البغاء وتحريم زواج المتعة كليهما ، والخلوص إلى إغلاق كل الطرق فيما عدا الزواج المؤبد الدائم المعقود باسم الله وبنية الدوام .

أما الربا فقد أخر تحريمه الى العام العاشر من الهجرة حتى اكتمل نمو المجتمع المسلم والنفس المسلمة .

وأما الرق فقد اتخذ فى معالجته وسائل بطيئة جداً تنتهى فى النهاية بتحرير الرقيق ، إذ كان إلغاؤه فى حاجة إلى التدرج البطىء ، وإلى تحرير الرقيق من داخل نفوسهم قبل تحريرهم من الخارج بقانون . وقد كانت وسيلته هى ردهم رويداً رويدا إلى الإحساس بإنسانيتهم ، بالمعاملة الحسنة ، وبربطهم بالله ، وتعويدهم على « تذوق » الحرية حتى لاينفروا من مذاقها حين يصبحون أحراراً يتولون تبعة أنفسهم فى مواجهة مشكلات الحياة[3] .

أما بذر العادات الصالحة فله كذلك عدة طرق وعدة مراحل .

---

(١) سورة النساء (٤٣) .　　(٢) سورة المائدة (٩٠) .

(٣) اقرأ بالتفصيل فصل « الإسلام والرق » من كتاب « شبهات حول الإسلام » .

فأما الإيمان بعد الكفر ، فقد كان يستخدم له الهزة الوجدانية المحيية الموحية ، التى تنقل النفس فجأة من تصور إلى تصور ، ومن شعور إلى شعور . ثم لا يدعها تبرد ! فنى الحال يحولها إلى عادة ! عادة مشتبكة بزمان ومكان وأشخاص . فهو ينقل المسلم من بيئته الكافرة التى كان فيها ليربط بينه وبين مؤمنين آخرين ، يتعاطف معهم وتنشأ بينه وبينهم صلات من المودة و « القربى » التى تعدل قرابة الدم بل تزيد ! ويتعود أن يلتقى هؤلاء المؤمنين على حديث الإيمان وأفعال الإيمان . فيصلى معهم . وتصبح الصلاة عادة . ويستمع معهم إلى القرآن . ويصبح استماع القرآن عادة . ويتواد معهم وتصبح المودة عادة . ويحتمل معهم الكروب . ويصبح احتمال الكروب فى سبيل العقيدة عادة ! ثم يجاهد معهم الكفار ويصبح الجهاد عادة !

وينشئ مجتمعاً تعيش فيه التصورات والفضائل الإسلامية ، وبذلك تصبح العادة عملا فردياً وارتباطاً جماعياً فى آن واحد ، فيضمن لها ذلك الدوام والاستمرار . كما يضمن لها الحيوية — التى تتضاعف بلقاء الآخرين — فلا تتبلد ولا تتحجر كما ينشئ منها نظاما اجتماعيا قوى الأسس متين البنيان .

وكذلك كل العادات النفسية من صدق . ووفاء . ومحبة . وعطف . وبذل . وإيثار ...

والإسلام يلجأ فى ذلك أولا إلى إثارة الوجدان وإنشاء الرغبة فى العمل . ثم يحول الرغبة إلى عمل واقعى ذى صورة محددة واضحة السمات ، فيلتقى الظاهر والباطن ويتطابقان ويتكافآن : رغبة وسلوكا . ثم يحول الرغبة والعمل من مسألة فردية إلى رباط اجتماعى .

الصلاة رغبة فى الاتصال بالله والدعاء إليه وطلب المعونة منه . فيحول هذه الرغبة إلى عمل محدد ذى مراسم وحدود . ثم ينظمها فى أوقات محددة . ثم يدعو إلى الجماعة ويحبب إليها .

والزكاة رغبة فى التحرر من الشح والعطف على المحتاج والتعاون مع الجماعة . فتتحول الرغبة إلى عمل ظاهل محدد . ذى نسبة معينة فى المال وأوقات معينة فى الأداء . ثم يحول العمل الفردى إلى نظام تقوم عليه الدولة والمجتمع .

وكذلك كل عادة من عادات الإسلام ، تبدأ بإستحياء الرغبة ثم تتحول إلى عمل حى ، لا يكلف أداؤه شيئاً من الجهد ، وهو مع ذلك رغبة واعية لا أداء آلى مجرد من الشعور .

تفريغ الطاقة

من وسائل الإسلام فى تربية الإنسان وفى علاجه كذلك ، تفريغ الشحنات المتجمعة فى نفسه وجسمه أولا بأول ، وعدم اختزانها إلا ريثما تتجمع للانطلاق .

إنه يملأ النفس والجسم بشحنات مختلفة ، هى إفرازهما الطبيعى الفطرى ، الذى يتكون على الدوام ما دامت الفطرة سليمة لم يصبها عطب ، ثم يطلق هذه الشحنات فى عمل إيجابى إنشائى ، لتعمل فى سبيل البناء والتعمير والخير .

إن هذه الطاقة التى يفرزها الكيان الإنسانى من تلقائه — ويجمعها الإسلام — هى طاقة حيوية «محايدة» تصلح للخير وتصلح للشر ، تصلح للبناء وتصلح للهدم ، كما يمكن أن تنفق بدداً بلا غاية ولا اتجاه .

والإسلام يوجهها وجهتها الصحيحة . فى سبيل الخير .

والمهم كذلك أنه لا يختزنها أكثر مما ينبغى . فالاختزان الطويل بلا غاية عملية مضرة بكيان الإنسان . وكثير جداً من ألوان المرض النفسى التى يتحدث عنها علم النفس التحليلى والأطباء النفسيون ، مردها إلى طاقة مختزنة بلا مبرر ، لم تجد منصرفها الطبيعى ، ولم تجد منصرفها الصحيح .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

لذلك لا يختزن الإسلام هذه الطاقة . وبذلك يقى النفس من كثير من أنواع الانحراف المعروفة فى علم النفس ، فلا تنشأ فيها تلك العقد المدمرة والاضطرابات التى تبدد طاقتها . ويعالجها كذلك بنفس الطريقة إذا حدث — لسبب من الأسباب — أن أصيبت بذلك الانحراف . ولا شيء يعالج النفس أكثر من إطلاق شحنتها فى عمل إيجابى يحقق كيان الإنسان ، ويحقق إحساسه بذاتيته ، ويفرغ كذلك الإفرازات المختزنة التى تسبب المرض والاضطراب .

من أمثلة ذلك ما يلجأ إليه الإسلام من تفريغ طاقة الكره — وهى طاقة فطرية طبيعية — فى كره الشيطان وأتباع الشيطان ، والشر الذى ينشئه الشيطان وأتباعه على وجه الأرض . بهذه الطريقة لا يتحول الكره إلى طاقة سامة مبعثرة لنشاط الإنسان ومسممة لكيانه . وفى الوقت ذاته يتحقق بها كيان إيجابى للفرد حين يعمل فى واقع الأرض لمقاومة الشر ، ويتدرب كيانه وينضج بهذه المقاومة والجهاد. وفوق ذلك يتحقق هدف إنسانى أعلى ، بتنظيف المجتمع من الفساد والشر ، وتتحقق الغاية من خلق الإنسان وتكريمه وتفضيله واستخلافه فى الأرض .

وكذلك تفريغ طاقة الحب فى حب الله والكون والناس والأحياء والخير بوجه عام . إنه يؤدى الأهداف السابقة ذاتها . فطاقة الحب — ذلك الإفراز البشرى — قمينة إذا لم تفرغ شحنتها أولا بأول ، أو لم تفرغها فى منصرفها الطبيعى ، أن تفسد وتتحول إلى طاقة سامة مدمرة لكيان الإنسان ! ذلك حين يحول الإنسان كل طاقة الحب مثلا إلى نفسه . . إلى ذاته . . إلى عشق الذات وعبادتها ! لأنها مختزنة لا تجد طريقها إلى خارج النفس . أو يحولها إلى معشوقات صغيرة فى عالم الحس من طعام وشراب وجنس ولذائذ لأنها لا تجد طريقها الصحيح. أو يحولها إلى حب الفاسد من الناس والأفكار والأشياء .

بينما يضمن الإنسان حين يفرغها أولا بأول ، وفى منصرفها الصحيح ،

أن تتحول إلى ثمرة جنية فى داخل النفس وفى واقع الحياة. تنصرف فى سبيل الخير، وتعطى الإنسان كياناً إيجابياً فاعلا، وتحقق غاية الله من خلق الإنسان.

وعلى هذا النحو ذاته يفرغ الإسلام الطاقة الحيوية فى الجهاد والزرع والإنتاج والتعمير.. تفريغاً بنائياً إنشائياً، يهدم الباطل ويزيل ما يخلفه من أنقاض، ويبنى فى مكانه الحق والعدل. ويعالج بذلك بناء النفس فلا تنحرف ولا يصيبها اضطراب.

ملء الفراغ

كما يفرغ الإسلام طاقة الجسم والنفس كلما تجمعت، ولا يختزنها دون ضرورة، فإنه فى الوقت ذاته يكره الفراغ!

إن الفراغ مفسد للنفس إفساد الطاقة المختزنة بلا ضرورة، وأول مفاسد الفراغ هو تبديد الطاقة الحيوية.. لملء الفراغ! ثم التعود على العادات الضارة التى يقوم بها الإنسان لملء هذا الفراغ.

والإسلام حريص على «شَغْل» الإنسان شغلا كاملا منذ يقظته إلى منامه، بحيث لا يجد الفراغ الذى يشكو منه، ويحتاج فى ملئه إلى تبديد الطاقة أو الانحراف بها عن منهجها الأصيل.

وليس معنى ذلك هو استنفاد المخلوق البشرى واستهلاكه.. فليس ذلك قط من أهداف الإسلام الذى يدعو إلى استمتاع الإنسان بالطيبات وتذكر نصيبه من الحياة الدنيا.

وليست المشغلة كلها إجهاداً واستنفاداً للطاقة، فإن منها تهوية العبادة، ومنها ذكر الله فى القلب، ومنها غفوة الظهيرة فى الهاجرة، ومنها السمر البرىء مع

الأهل والأصحاب ، ومنها التزاور ، ومنها الدعابة اللطيفة النظيفة .. إلى آخر أنواع الترويح .

ولكن المهم ألا يوجد فى حياة الإنسان فراغ لا يشغله شىء . أو فراغ يشغله الشر والفساد والتفاهة . وحين ألغى الإسلام عادات الجاهلية وأعيادها ومواسمها وطرائق حياتها ، لم يترك ذلك فراغاً يتحير المسلمون فى ملئه ، أو يملأونه دون شعور منهم فيما لا يفيد . بل جعل لهم فى الحال عادات أخرى وأعياداً ومواسم وطرائق حياة تملأ الفراغ . كانوا يجتمعون على موائد الخمر والميسر أو لعبادة الأوثان أو لسماع الشعر الضال الذى لا يعبر عن هدف إنسانى ، فجمعهم على عبادة الله يؤدون الصلاة جماعة ، ويتذاكرون القرآن جماعة ، ويستمعون إلى توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ويتزاورون لمثل ذلك . وكانوا يعيثون فى أعيادهم فساداً ، فألغاها وجعل بدلا منها أعياداً كريمة نظيفة زاخرة بالمعانى الطيبة والأهداف الرفيعة .

وحين قطع علاقة القربى فى أول عهده ، مع المشركين الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد ، ملأ فراغها بالولاية بين المؤمنين وجعلها مكان القربى ، فملأت فراغها حقيقة وصارت تعدل فى حسهم صلة الدم ، حتى إن المؤاخاة التى جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وصلت بالأخيرين إلى اقتسام كل شىء مع المهاجرين : « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] وكانت تصل إلى حد الاشتراك فى الميراث .

وهكذا لم يعد فى نفوس المؤمنين فراغ .

وتلك من أنجح الوسائل فى تربية النفس ، خاصة حين تمنع النفس

---

(١) سورة الحشر (٩)

— لتقويمها — من شيء من رغائبها . فالوسيلة الصحيحة لملء فراغ هذه الرغبة ، هي إيجاد نشاط جديد لهذه الرغبة ذاتها ، أو لرغبة سواها ، فالنفس من الداخل كلها وثيقة الاتصال !

التربية بالأحداث

الحياة الدنيا كد وكدح ونَصَب .. وتفاعل دائم مع الأحداث . وما دام الناس أحياء فهم عرضة على الدوام للأحداث .. تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة ، أو لأسباب خارجة عن تقديرهم وخارجة عن إرادتهم . والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدًى بغير عبرة وبغير توجيه . وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها ، فلا يكون أثرها موقوتاً لا يلبث أن يضيع .

ومزية الأحداث على غيرها من وسائل التربية أنها تحدث في النفس حالة خاصة ، هي أقرب للانصهار . إن الحادثة تثير النفس بكاملها ، وترسل فيها قدراً من حرارة التفاعل والانفعال يكفي لصهرها أحياناً ، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار . وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس . وليس من اليسير الوصول إليها والنفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها ، مسترخية ، أو منطلقة في تأمل رخي .

وصحيح أن بعض حالات الوجد والانفعال الروحي في العبادة لها من الحرارة ما يحدث هذا الانصهار في النفس . ولكنها حالات نادرة لا يقدر عليها إلا الأقلون . أما الحادثة — بقوتها المفروضة على النفس من الخارج — فهي تحدث هذا الانصهار بلا إرادة ولا وعي ، ولا رغبة ذاتية في الوصول إلى هذه الدرجة العالية من الإحساس . ومن ثم فهي أقرب تأثيراً في جموع الناس الذين لا يصلون بذاتهم إلى درجة الانصهار .

والمثل يقول : اضرب والحديد ساخن ! لأن الضرب حينئذ يسّهل الطرْقَ والتشكيل . أما إذا تركته يبرد فهيهات أن تشكّل منه شيئا ولو بذلت أكبر الجهود .

لذلك كان استغلال الحادثة و « الحديد الساخن » مهمة كبيرة من مهام التربية ، لينطبع على النفس فى حالة انصهارها ما يريد المربى أن يطبعه من التوجيهات والتهذيبات ، فلا يزول أثرها أبدا .. أو لا يزول من قريب .

ولقد قام القرآن — وهو يربى الأمة الإسلامية فى منشئها — باستغلال الأحداث فى تربية النفوس استغلالا عجيباً عميق الأثر ، كان من نتيجته تلك الأمة العجيبة الفريدة فى التاريخ كله . الأمة التى شهد لها خالقها فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ويبدو لأول وهلة فارق رئيسى بين التربية بالأحداث فى مكة ، والتربية بالأحداث فى المدينة . فى العهد المكى كان التوجيه إلى الصبر على الأذى ، واحتمال المكروه ، ومغالبة النفس على هذا الاحتمال . وفى العهد المدنى كان التوجيه إلى رد العدوان ، ومجابهة المعتدين بالقوة ، ورفض الخضوع والمذلة وإباء الضيم . .

وجهان متقابلان . . ولكنى أرى أنهما يهدفان إلى هدف واحد !

التجرد الخالص لله . والتوازن الذى يحدثه هذا التجرد فى داخل النفس . .

ولكى تُحدِثَ التوازن فإنك « تضغط » مرة من ناحية اليمين ومرة من ناحية الشمال حتى يستوى لك التوازن المطلوب !

كان فى العرب عنجهية بالغة واعتزاز عنيف بالذات .. فى الحق أو الباطل

سيان . لم يكن الاعتزاز « لمعنى » أو « لقيمة » من القيم العليا . وإنما كان للذات . لا يحتمل أحدهم أن يصيبه أذى — ولو بالحق — فينتضى سيفه ويخرج للقتال . لا يبالى أصيب أم أصاب . ولا يبالى أين وَجهُ الحق : معه أم عليه . لذلك كانت الثارات لا تنقطع فى أنحاء الجزيرة . والمظالم كذلك لا تنقطع . والقبائل لا تعرف السلام ولا تقوم بينها العلاقات بالحق . . وفى الوقت ذاته لا يرتفع العرب إلى معنى من المعانى الكبيرة التى تقوم عليها الإنسانية الرفيعة الجديرة بمعنى « الإنسان » . وحتى « فضائلهم » التى يمارسونها من كرم وقِرًى للضيف ، ووفاء بالعهد — أحياناً — وإباء للضيم ، فللمفاخرة التى « يجرى بذكرها الركبان » ودفعاً للعار الذى يعيرهم به الخصوم ، وليس إيماناً حقيقياً بهذه القيم يمارسونه فى جميع الأحوال ! وأبلغ دليل على ذلك أنهم فى الوقت الذى كانوا ينحرون الذبائح للأضياف — ليتحدث الناس بكرمهم — كانوا يأبون إباء شديداً أن يطعموا الضعيف والمحروم والمسكين الذى لا يحس به أحد ، ولا يصل حديثه إلى الأسماع ! مما جعل القرآن يلح فى هذه الدعوة إلحاحاً شديداً ، ويثير وجدان القوم بكل ألوان الإثارة ليحسوا بالوازع الإنسانى الحقيقى الذى يدفع إلى الخير ولو لم تعلم به الناس !

وفيما عدا حلف الفضول — وهو صحوة نادرة من صحوات الضمير البشرى — لم يكن للعرب « عهد » بالمعنى الإنسانى المفهوم . إنما كانت عهودهم أن يحالف بعضهم بعضاً فى العدوان وفى رد العدوان سواء . لا فرق بين حق وباطل ، ولا معيار يمكن الرجوع إليه إلا الأهواء ! وأعجب مثل لذلك ما كانوا يصنعونه فى الأشهر الحرم من تقديم وتأخير ونسىء ليوافق أمزجتهم فى العدوان أو رد العدوان ! فإذا أدركتهم الأشهر الحرم وهم فى المعركة ولم يشاءوا الانصياع لحرمتها أجلوها لحين الانتهاء من المعركة التى بين أيديهم ، أو أجلوها للعام المقبل

وجعلوا السنة التى هم فيها بغير أشهر حرام ! وقد يجىء العام المقبل فتعن لهم شهوة أخرى فينسئون الشهر الحرام مرة ثانية : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا . يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً »(١) .

لذلك كانت تربية القرآن لهؤلاء العرب بالأحداث فى العهد المكى هى « تجريدهم » من ذواتهم . تجريدهم من الاعتزاز بكل ما يعتزون به من أهواء ذاتية وقيم أرضية .. ليعتزوا « بالحق » وحده . الحق مجرداً عن أشخاصهم . الحق متلبساً بذواتهم ولكنه متميز فيها تميزاً واضحاً ، بحيث تتبع ذواتهم الحق ، ولا تتبع أهواءهم أو مشاعرهم الشخصية .. وذلك بأن يتجردوا لله .. يتجردوا له تجرداً خالصاً . . ينتزعون به أنفسهم من كل ما يجيش فيها من مشاعر ، وما ترتبط به من وشائج ، وما تعتز به من قيم وأشياء .

ولذلك كان الامتحان الأكبر لهم فى العهد المكى هو تحمل الأذى فى سبيل الله ، فى سبيل الدعوة الناشئة المضطهدة المطاردة .. دون رد على العدوان ودون أخذ بالثأر من المعتدين .

لقد كان فى وسع المسلمين الأوائل أن يثيروها حرباً قبلية . . أو حرباً شخصية .. كل إنسان يأخذ بثأره وينتهى الأمر . . ولو بمقتل المؤمنين جميعاً وفنائهم . . فما كانوا يبالون فى جاهليتهم أن يبقى منهم أحد بعد أخذ الثأر ! ولكن ذلك لم يكن ليصبح انتصاراً للدعوة ، ولا انتصاراً للدين الجديد ! إنه يكون استمرارا للجاهلية ! استمراراً للاعتزاز بالقيم الشخصية والقيم الأرضية المبتوتة الصلة بالله والحق والعدل و « الإنسانية » . استمراراً فى الهبوط لا أخذاً فى وسائل الارتفاع .

ولكن التربية التى منعتهم من أخذ الثأر . التربية التى وجهتهم إلى الصبر

---

(١) سورة التوبة (٣٧) .

واحتمال الأذى والعدوان دون رد . التربية التى وجهتهم إلى مايشبه — فى ظاهره — أن يكون رضىً بالهوان والظلم .. هذه التربية هى التى أنشأت النفوس الجديدة المعتزة بالله ، المعتزة بالقيم التى ينشئها الله ؛ والتى أنشأت أعز نفوس عرفتها البشرية وأكرم نفوس .. نفوس مستعلية بالإيمان : مستعلية على ذواتها ، وعلى شهواتها ، وعلى أهوائها ، وعلى كل قيمة مادية أو أرضية لاتسير فى طريق الله .

فى تلك الفترة كانت التربية تقول — فى سورة المزمل — « واصبر على مايقولون ، واهجرهم هجراً جميلا »(1) وكانت تقول فى نفس السورة : « قم الليل إلا قليلاً : نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه . ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »(2) .

كانت التربية هى الصبر على الأذى .. وقيام الليل للتجرد لله . . لعبادته وحده فى ناشئة الليل : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا »(3) .

وقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه يقومون الليل يتعبدون ويتهجدون ويتعلمون التجرد الكامل لله حولا كاملا حتى تورمت أقدامهم وتشققت ، فأنزل الله عليهم : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفةمن الذين معك . والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ماتيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله. فاقرءوا ماتيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »(4) .

(1) سورة المزمل (10). (2) سورة المزمل (2 — 5) .
(3) سورة المزمل (6) . (4) سورة المزمل (20) .

فلما علم المربى الرحيم أن هذه النفوس المؤمنة الصابرة قد تجردت له ، واهتدت بهديه ، وتربت على طاعته ، ولم يعد لها وجود إلا الوجود الذى يريده لها الله ، مطمئنةً فى ذات الوقت أنه الوجود الأرفع والأسمى ، الذى يحقق أرفع مافى كيان الإنسان .. عندئذ أذن للمؤمنين فى الهجرة ، ثم أذن لهم بإنشاء دولة لهم فى المدينة تقوم على أساس تقوى الله وتستمد من شريعة الله .. وتدافع عن كيانها بكل القوة المتاحة لهم حينذاك .

لم يكن الأمر كما يبدو من ظاهره أمر ضعف المسلمين فى مكة وقوتهم فى المدينة .. فقد كان المسلمون — على ضعفهم فى مكة — يملكون كما أسلفنا أن يتصرفوا تصرف العرب فى الجاهلية . كما أن المربى — فى المدينة — كان يمكن أن يكلهم إلى قوتهم ، ويتركهم يتصرفون بوحى هذه القوة دون توجيه !

ولكن الذى حدث لم يكن كذلك ! لقد كانت التربية بالأحداث فى عهد القوة فى المدينة قوية صارمة كما كانت فى مكة ، تهدف إلى الهدف ذاته : تخليص النفوس من أدرانها وتعلقاتها ، وتجريدها خالصة لله :

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين »(1) .

لقد كان الدرس هنا قاسياً عنيفاً .. يوم اعتز المسلمون بكثرتهم وأعجبتهم قوتهم فقالوا : لن نُغلب اليوم من قلة ! كان الدرس — كما كان فى مكة — هو ردهم إلى الله ، ليعتزوا به وحده ، ويستمدوا منه القوة وحده ، ولا ينظروا لأية قوة أرضية — معهم أو عليهم — على أنها العامل الحاسم فى المعركة ، أو أنها هى التى تقرر شيئاً على الإطلاق من مصاير الأمور ! لقد كانت القوة

---

(1) سورة التوبة (25) .

الأرضية فى مكة ضدهم . فرباهم هناك على أنها لاتعنى شيئاً فى حقيقة الأمر . وأنهاليست هى التى تقرر مصير الدعوة . وإنما الذى يقررها هو الله ، وهم مدعوون أن يلجأوا إلى الله وحده ويعتزوا به وبقوته . ثم كانت القوة الأرضية فى المدينة معهم . فرباهم كذلك على أنها لاتعنى شيئاً فى حقيقة الأمر . وأنها ليست هى التى تقرر مصير الدعوة . وإنما الذى يقررها هو الله . ودعاهم ـ كما دعاهم هناك ـ أن يلجأوا إلى الله ويعتزوا به وبقوته : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم »[1] .

وكذلك فى سبيل هذا التجرد ذاته كانت التربية بالأحداث فى سورة آل عمران ، للذين فتنتهم أسلاب المعركة فى أُحد فنسوا هدفها الأصيل .

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين »[2] .

وكذلك فى سورة الأنفال إذ يتحدث عن وقعة بدر : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »[3] .

---

(١) سورة التوبة (٢٦ — ٢٧) .
(٢) سورة آل عمران (١٥٢) .
(٣) سورة الأنفال (٧ ـ ١٠) .

وفى سورة التوبة كانت التربية بالأحداث للذين تخلفوا عن القتال فى وقعة تبوك : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا فى الحر ! قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين .... ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون . . . . . وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . . وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم .... إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين ... لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت

عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »(١) .

هذه الطرقات العنيفة كلها و « الحديد ساخن » لينطبع فى النفوس الأثر المطلوب ، ولا يتخلف الناس عن الجهاد فى سبيل الله .. وقد كان .. لم يتخلف بعد ذلك أحد من المؤمنين ولا من الأعراب !

وهكذا كانت التربية بالأحداث فى مكة وفى المدينة ، ذات هدف واحد فى الواقع وإن تعددت الصور والتوجيهات : إنها كلها دعوة للتجرد من القيم الأرضية كلها ، والوشائج الذاتية كلها ، ومن كل حرص على مصلحة أو مغنم شخصى .. ليكون كل شىء فى سبيل الله : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين »(٢) .

وحين يحدث ذلك فى داخل النفس تكون النفس قد توطدت وتثبتت ، وركزت على الركيزة التى لا تهتز ولا تختل ولا تضعف ولا تميد .. وتكون قد

---

(١) سورة التوبة (٨١-١٢١) . (٢) سورة التوبة (٢٤) .

توازنت فلا يفسدها الضعف ولا تفسدها القوة . لا تنحسر حيث ينبغى التقدم ، ولا تندفع حيث ينبغى الانتظار . وتكون قد تربت على طاعة الله ، وشفت وراقت حتى لهى نور متألق يشع فى الآفاق ؛ وعندئذ يصدق عليها وصف الله لها فى كتابه الكريم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

* * *

وقد لا نملك — ونحن نطبق منهج التربية الإسلامية — أن نعيد شريط الأحداث كما حدث أول مرة ، لنتتبع توجيهات القرآن فى التربية بالأحداث واحداً إثر واحد بحسب ترتيب النزول !

ليس هذا بطبيعة الحال هو المقصود .

إنما المقصود هو حكمة التربية بالأحداث . .

المقصود هو الطرق والحديد ساخن . حتى لا تفلت الحادثة بلا عبرة مستفادة ، ولا أثر ينطبع فى النفس ويبقى .

والهدف هو ربط القلوب دائماً بالله ، فى كل حادثة وفى كل شعور . والمجال دائماً مفتوح أمام كل مربٍ له عين مفتوحة وقلب واعٍ وإدراك بصير . إنه يستطيع أن يدرك اللحظة المناسبة للتوجيه ، اللحظة التى تبلغ فيها حرارة الانفعال درجة الانصهار . وعندئذ يعقد العقدة الوثيقة التى لا تنحل ، ويطبع الطابع العميق الذى لا يزول .

المجتمع المسلم

من البديهيات المقررة فى منهج التربية الإسلامية أن يكون هناك مجتمع مسلم. فكل الجهود المضنية التى تبذل فى التربية عرضة لأن تذهب كلها ضياعاً حين لا يوجد هذا المجتمع، أو حين يوجد مجتمع يعادى الفكرة ويعمل على تحطيمها.

وصحيح أن تكوين المجتمع المسلم هو الهدف الأخير من التربية الإسلامية، ولكنه فى الوقت ذاته هو الأداة الموصلة إلى تثبيت المفاهيم الإسلامية وتنشئة الأفراد عليها منذ نعومة أظفارهم، حتى ينطبعوا بانطباعاتها، ويكونوا صدى ذاتياً للتفاعل معها والتشرب بها.

وهذا التداخل بين الأهداف والوسائل، هو ذاته التداخل بين الفرد والمجتمع وبين الجيل والأجيال. لا تستطيع فى أية لحظة أن ترسم حداً فاصلا بين جيل وجيل، ولا بين فرد والمجتمع الذى يعيش فيه هذا الفرد، ولا بين وسيلة من الوسائل والهدف الذى تؤدى إليه الوسيلة.

وطبيعى — فى إنشاء مجتمع إسلامى — أننا نبدأ بالفرد، أو بمجموعة أفراد. كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقى الوحى والرسالة، وامتلأت بها نفسه، فتحركت للعمل فى واقع الأرض. وتلك سمة الرسالات الكبيرة كلها، وعلى رأسها هذه العقيدة الحية المتحركة التى أودع الله فيها خلاصة الدين كله، وخصائص الرسالات كلها، وأودع فيها من الحيوية والحركة

ما استطاعت به أن تثبّت جذورها فى التربة الجافية القحلة التى لم تكن تزكو فيها نبتة سليمة ، ثم تمتد فى آفاق الأرض بسرعة لا مثيل لها فى التاريخ كله . . وما استطاعت به أن تقاوم كل صنوف الكيد والتخريب من التتار مرة ومن الصليبيين مرة ومن الداخل مرات . . وما استطاعت به أن تقوم من كل نكسة صادفتها حية متوفزة مستعدة للنماء .

هذه الحيوية المتحركة التى ملأت قلب محمد صلى الله عليه وسلم — وتملأ كل قلب وهب نفسه لهذه العقيدة على مدار التاريخ — جعلته يتحرك فى واقع الأرض لبثّ الدعوة فى نفوس أفراد آخرين ، ليمتلئوا بالفكرة كما امتلأ ، وليتحركوا فى واقع الأرض كما تحرك . أى جعلته يتحرك لإنشاء المجتمع المسلم الذى تعيش فيه الفكرة ، ويكون هو التحقيق العملى لها فى واقع الحياة .

ثم تأخذ الدعوة دورتها ، فيتكون المجتمع المسلم الذى ينشّئ الأفراد على أخلاقه وتقاليده ومناهج سلوكه ومناهج تفكيره ، فيكون المحضن الدائم الذى يفرخ فى عشه كل جيل جديد . ويتحول الهدف الأول وسيلة لتحقيق الهدف ذاته ، كما يتداخل كل جيل فى الجيل الذى قبله والجيل الذى يليه .

ومنذ تلك اللحظة التاريخية أصبح المجتمع المسلم حقيقة واقعة ، وأخذ دوره فى التاريخ . .

ولكنه — مع ذلك — لا يستقيم دائماً على النهج ، ولا يسير فى طريقه القويم .

وقد كانت آخر نكسة أصابته على يد الغزو الصليبى فى القرنين الأخيرين ، حين أحس بالهزيمة من داخل روحه ، فراح يسلم حصونه وقلاعه واحدة إثر واحدة ، ويفرط فى مقدساته الفكرية والروحية ، ويتخلى عن مقومات وجوده .

حين ذلك انهار المجتمع المسلم وأصبح فى حاجة إلى إعادته من جديد !

« كما بدأنا أول خلق نعيده » .

كما نشأ المجتمع المسلم فى الجاهلية الجاهلة المتعنتة المعاندة الجافية ، كذلك ينشأ المجتمع المسلم فى كل جاهلية تمر بالبشر على مدار التاريخ ، وكذلك ينشأ فى الجاهلية الجديدة التى يعيش فيها البشر فى هذا القرن العشرين .

* * *

والمجتمع المسلم على أى حال ضرورة لازمة للتربية الإسلامية .

فالجهد الذى يبذل فى تنشئة أفراد المسلمين ، عرضة — كما أسلفنا — لأن يضيع كله هباء حين لا يوجد المجتمع المسلم ، أو حين يوجد المجتمع الذى يعادى الفكرة ويعمل على تحطيمها .

أنت تربى ابنك أو ابنتك على أخلاق معينة تستوحيها من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن تقاليد المجتمع المسلم التى تقرأ عنها وتتصورها ، ومن مفهوم التربية الإسلامية كما تمتلىء به نفسك . . ثم لا تستطيع أن تحبس ابنك أو ابنتك فى معزل عن المجتمع . . فإن ذلك مستحيل . بل إنهما لا يكونان مسلمين إذا تربيا فى عزلة كاملة عن الحياة الواقعة ، فالإسلام ليس عزلة عن الحياة ولا يمكن أن يكون ، بل هو حركة حية فى واقع الأرض وسلوك واضح للعيان .

وإذن فأنت — بالضرورة — تطلقهما فى المجتمع الموبوء . فما الذى يحدث ؟

الطفل الذى يجد غيره من الأطفال يسبونه بأقذع السباب ، المنتقى من ألفاظ قصد بها قصداً أن تخدش الحياء لتكون مؤلمة وموجعة . .

والطفل الذى يجد الغش والخداع والنفاق هو العملة السارية فى المجتمع . معلمه أو معلمته يغشانه فى الدرس . فلا يعملان بذمة وضمير إلا والناظر على مقربة

أو المفتش على الباب ، وبقية الدروس « بلطجة » أو تهويش . وبائع الحلوى أو التاجر الذى يتعامل معه يغشه فى البضاعة أو السعر . وكل إنسان يغش كل إنسان ، ويتملقه وهو حاضر أمامه فإذا انقلب من عنده راح يهجوه بأقذع لسان . .

والطفل الذى يجد العبودية بكل ألوانها ومختلف صنوفها هى المتحكمة فيما حوله ، الكبير يستعبد الصغير ، والقوى يستعبد الضعيف ، وهذا يخنع للعبودية ويذل . .

والمراهق والمراهقة اللذان يغشيان هذا المجتمع الدنس الذى تشيع فيه الفاحشة من كل صوب . .

الفتاة التى تجد زميلاتها فى المدرسة يقصصن مغامراتهن الدنسة ، ويروين من الحكايات ما يمليه خيالهن المريض .

والفتاة التى تجد نساء المجتمع يتبرجن على أبشع صورة لإبراز مفاتن الجسد وإبراز معالم الحيوان . .

والفتاة التى تطالعها إعلانات السينما بصورها المهيجة ومواقفها الفاضحة العنيفة ، ويطالعها الدنس فى كل صحيفة تقرؤها أو مجلة تقع بين يديها . .

والفتى الذى يعيش فى مثل هذا الجو الموبوء . . اهتمامات إخوانه تفاهة ، وحياتهم عبث ، وأهدافهم خواء . . وسلوكهم نكسة إلى عالم الحيوان ، فى قذارة يتعفف عنها الحيوان .

والشاب والشابة اللذان يجدان كل قيم المجتمع معكوسة ، وكل فضائله فى التراب .

الذى يصل هو الوصولى المنافق ، والذى ينجح هم العبيد .

الذى يحافظ على كرامته ، أو يحافظ على دينه ، أو يحافظ على أخلاقه هو في ذيل الصف إن لم يكن فى أسوأ مكان .

والتى تحافظ على دينها وأخلاقها وكيانها منبوذة من الجميع .

الفتاة النظيفة لا تجد أن تتزوج ، ولا تحقق — فى نظافة — رسالتها فى الحياة .

والفتى النظيف فى حيرة من أمره لا يصل إلى شىء مما يريد .

وهذا إن ظلا على نظافة . .

فهذا الإغراء العنيف كله ، والفتنة الجائحة ، والصور المثيرة ، والنسوة العارية ، والمشية الخليعة ، والقصة الخليعة ، والنكتة الخليعة ، والأغنية الداعرة ، والاختلاط الدنس ، والجو الموبوء . . .

ما نتيجة هذا كله بالنسبة للأطفال والمراهقين والشباب ؟

كيف يكونون مسلمين ؟

كلا . . لا يمكن أن نحلم فى الخيال ، ونفترض أن يكونوا مسلمين .

إنما الذى يحدث فعلا — وتلك سنة الله فى الأرض مع كل فكرة يريدها الله أن تنجو وتنفع وتمكث فى الأرض — أن قلة من الناس ، أفراداً معدودين ، يحققون البطولة . يمسكون فى أيديهم القياد . يرتفعون على المجتمع الدنس وعلى أنفسهم ، فلا ينجرفون فى التيار ، ولا يغرقون فى الوحل . يمسكون فى أيديهم الراية التى يتجمع حولها النظيفون والنظيفات ، ويتكون المجتمع المسلم على أيديهم: « كما بدأنا أول خلق نعيده »[1] « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »[2].

* * *

(١) سورة الأنبياء (١٠٤) (٢) سورة الأحزاب (٦٢)

المجتمع المسلم ضرورة للتربية الإسلامية .

فلن يكون كل الناس أبطالا يعيشون فى الدنس على نظافة ، ويعيشون فى الوكسة مرتفعين . والفرد العادى — مهما بُذل فى تنشئته فرداً — فى حاجة إلى المجتمع الذى يسانده ويرسّخ فى نفسه الإيمان بالفضائل التى يؤمن بها ، ويساعده بالقدوة الصالحة على تحويلها إلى سلوك عملى فى واقع الحياة .

والسمة الأولى للمجتمع الإسلامى أنه مجتمع متحرر وفى ذات الوقت نظيف.

والتحرر فى مفهوم الإسلام معنى شامل جداً وعميق .

تحرر من كل ما يكبل النشاط السوى للفرد والجماعة . تحرر من كل القيم الزائفة والعوائق التى تعوق رفعة البشرية وتقدمها ونماءها .

تحرر على مستوى الإنسان ، وليس انفلاتاً من قيود الإنسان . ومن ثم فهو تحرر نظيف لا يلتبس بانطلاق الحيوان .

حين يتحرر الإنسان من كل عبودية غير العبودية لله الحق ، فإنه يحس بنفسه قوة هائلة فاعلة منشئة موجِّهة ، لاتتقيد بشىء غير الحق ، ولاتخضع لشىء إلا ما أمرها به خالقها وهو دائماً حق. حينئذ تنطلق تنشىء فى واقع الأرض نظاماً يحقق ذلك التحرر المستمد من طاعة الله ، المحقق لمنهج الله .

وفى المجتمع المسلم — الذى تقوم فيه العلاقات كلها مرتبطة بالله — يتعاون الناس على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . ويتعاونون على تهيئة الجو للأجيال الناشئة أن تتربى فى ظل العقيدة النظيفة المتحررة من الأدران .

فى هذا المجتمع يتعاون الحاكم والمحكوم على تنفيذ منهج الله فى تقويم البشرية . منهجه الشامل الذى يتناول الإنسان فرداً وجماعة ، واقتصاداً واجتماعاً وحرباً وسلاماً وتنظيمات وشرائع .

ويتعاون الفرد مع أخيه فى إقامة المجتمع الصالح .

ويتعاون الرجل والمرأة فى تنشئة الأجيال .

فى هذا المجتمع توجد الحكومة المسلمة والشعب المسلم والاقتصاد المسلم والاجتماع المسلم والأسرة المسلمة والمدرسة المسلمة والصحيفة المسلمة والإذاعة المسلمة والفن المسلم ..

ويوجد بطبيعة الحال الرجل المسلم والمرأة المسلمة ..[1]

والمفاهيم الإسلامية تحكم الجميع .

مجتمع يقوم على التكافل الاقتصادى والاجتماعى والفكرى والروحى بين أفراده[2] .

مجتمع يقوم على النظافة . . نظافة التعامل بين الحاكم والمحكوم . نظافة بين الشاب والفتاة . نظافة بين الزوج والزوجة والأطفال . نظافة بين العامل وصاحب العمل . وبين الرئيس ومرءوسيه . نظافة السلوك الظاهر والنية المضمرة . نظافة العمل والتفكير والشعور .

مجتمع يقوم على الحق .. لا غدر ولا عدوان ولا باطل ينمو ويتاح له النماء .

مجتمع يقوم على القيم الإنسانية التى لا تهمل الواقع المادى والإنتاج المادى ، ولا تعطيهما كذلك فوق حقهما المقدر ، ولا تهمل الواقع الروحى للبشرية ، الذى هو وسيلتها الحقيقية للرقى النفسى والتحضر والارتفاع .

مجتمع يوجه الطاقة الإنشائية للناس فى سبيل البناء والتعمير والخير ، ولا يوجهها للعمل فى سبيل الشر والفساد .

مجتمع يقاوم الشر ولا يسمح له أن يستشرى فى الأرض . ويقاوم الفجور والفساد والفاحشة .

---

(١) انظر فصل « حين نكون مسلمين » فى كتاب « معركة التقاليد » .

(٢) انظر بالتفصيل فى هذا كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » .

مجتمع يقيم الموازين العادلة للناس فى الجهد والجزاء ، فلا يفتنهم عن الإيمان بالفضيلة ، والإيمان بالعمل فى سبيل الخير .

.. ذلك أنه مجتمع يقوم على الإيمان بالله ، ويستمد من منهجه وحده لا من أى منهج سواه(١) .

* * *

فى مثل هذا المجتمع ينشأ « الإنسان الصالح » .

ينشأ بقدر أقل من الجهد ، وقدر أكبر من الصلاح .

وليس معنى هذا أن نترك أبناءنا وبناتنا على هواهم حين يوجد المجتمع الصالح ، اتكالا على أن المجتمع سيصنع لهم كل شىء ، وسيربيهم على الفضيلة من تلقائه .

كلا ! فكل نبتة هى نبتة مستقلة تحتاج إلى العناية بها فى منبتها حتى تترعرع ويكتمل لها النضوج . وكل مايحققه المجتمع الصالح أنه يوجد الجو المعاون على النماء ، الخالى من الأعاصير التى تقتلع النبتة أو تميلها أو تحطم منها الأغصان والفروع .

والمنبت الطبيعى لكل نبتة هو الأسرة . الأب والأم مجتمعين فى عش سوىّ نظيف .

وقد مرت بنا عناية الإسلام بالأسرة ، وبالأب والأم كفردين مسلمين .

وإنما نزيد هنا أن الأسرة الفاضلة هى عماد المجتمع المسلم ، وهى وليدته فى ذات الوقت ، على التداخل الذى بيّنا بين الوسائل والأهداف .

وحين يوجد الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم نكون قد حققنا منهج التربية الإسلامية بحذافيره ، ويكون لنا أن نتوقع أطيب الثمار .

---

(١) انظر فى نهاية الكتاب فصل « بين الواقع والمثال »

ثمرة التربية

أى صورة من الأناسى تلك التى تطالعنا بعد هذا الجهد الذى نبذله فى التربية على منهج الإسلام ؟ أى إنسان هو الذى ربينا له روحه وعقله وجسمه على هذا النحو ، ووقّعنا على الخطوط المتقابلة فى نفسه ، وربيناه بالقدوة وربيناه بالموعظة وربيناه بالقصة وربيناه بالعادة وربيناه بالأحداث . . ؟

نقول إنه « الإنسان الصالح » . . فما صورة ذلك الإنسان .. الصورة التى يمكن أن نمسك خيوطها ونتتبع ملامحها ونعرضها نموذجا للاقتداء ؟

بديهى أن نقول إنه إنسان عابد . وإن العبادة — على النحو الذى شرحناه فى فصول الكتاب — هى منهاج حياته كلها ، وهى الصورة التى تطالعنا منه فى كل لحظة من لحظات حياته . . أى أنه لا يكون عبدا إلا لله ، وأنه فى كل عمل يعمله وكل سلوك يسلكه وكل فكرة تخطر فى باله ، متصل بالله ، مراعٍ له ، متوجه إليه .

ولكن هذا لا يعطينا فكرة واضحة عن « ملامح » هذا الإنسان ، وإن أعطانا « سَمْتَه » العام .

ما زلنا فى حاجة إلى مزيد من التوضيح .

سنقول إن ملامح التقوى والخشوع والحياء تظهر على وجهه :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(1) .

« سيماهم فى وجوههم من أثر السجود »(2) .

---

(1) سورة الحجرات (13) .   (2) سورة الفتح (29) .

« إن المسلمين والمسلمات ... والخاشعين والخاشعات ... أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما »[1] .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن »[2] .

« الحياء من الإيمان »[3] .

نعم . نحن أمام شخص تشع التقوى من وجهه ، ويبدو فى قسماته الخشوع ، ويتسم فى حركاته وفى حديثه بالهدوء والوداعة والحياء .

ولكن . لا ! لايخدعك هدوؤه ذلك ورقته واستحياؤه فتظن به الضعف!

إنه لا يضعف ولا يخشع ولا يحنى هامته إلى الأرض ساجداً .. إلا لله . وحده لاشريك له . أما ماعدا ذلك فهو قوى قوى . صلب العود . شديد المراس . متين .

اختبر هدوءه ذلك ورقته فى أن تحاول العدوان على شئ من مقدساته ! عند ذلك تبرز لك السمة الأخرى المتممة للأولى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم »[4] .

نعم . لا تمنع الشدة الرحمة . ولا تمنع الرحمة الشدة . هذه فى موضع وتلك فى موضع . وكلاهما صواب .

إنها ليست الرقة المطلقة والرحمة فى كل مناسبة ومع كل شخص .

وهى كذلك ليست الشدة الجافية التى تسم الطبع كله بالغلظ والجفاء .

وإنما هى المرونة الحية التى تقدر على مواجهة كل موقف بما يليق ، والتى

---

(١) سورة الأحزاب (٣٥) (٢) سورة النور (٣٠-٣١)
(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . (٤) سورة الفتح (٢٩)

تملك فى داخلها طاقة للرحمة وطاقة للشدة ، تستمد منهما بحرية حين تشاء .

كان التوجيه للرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للكفار والمنافقين : « يا أيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »[1] .

وفى الوقت ذاته كان التوجيه إليه بالنسبة للمؤمنين : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »[2] .

فالغلظة على الكفار ليست عن غلظة فى الطبع وفظاظة . فهاتان الصفتان البغيضتان ينفيهما الله سبحانه عن رسوله صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت عن قوة فى مواجهة الشر ، واجبة لأنها فى النهاية تؤدى إلى الخير .

وفى ذلك مفتاح الموقف بالنسبة للمؤمن . فهدفه الأخير هو الخير . وهو يصل إليه بكل طريق ممكن . قد تكفيه فى دفع الشر كلمة طيبة : « أدفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[3] . « ادفع بالتى هى أحسن السيئة »[4] . وقد تفلح الموعظة الحسنة : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[5] . وقد تخفق الوسائل كلها فلا تنفع إلا الشدة ، وعندئذ تكون الشدة هى الصواب .

* * *

المؤمن قوى فى كل حالاته ، مستعلٍ فى كل حالاته : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[6] .

وتلك سمة من سماته .

إنه لا يستعلى فى السراء كبرا وانتفاشا كاذبا وفرحا فى الساعة الرخية .

---

(١) سورة التوبة (٧٣)

(٢) سورة آل عمران (١٥٩) .

(٣) سورة فصلت (٣٤) .

(٤) سورة المؤمنون (٩٧) .

(٥) سورة النحل (١٢٥) .

(٦) سورة آل عمران (١٣٩) .

كلا . فما هذا استعلاء وإنما هو كبر وغرور لا يحبهما الإسلام :

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »[1] . « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »[2]

دعوة إلى التواضع والقصد والاعتدال .

إنما الاستعلاء الحقيقى هو الاعتزاز بالله ، والاعتزاز بالنفس وصيانتها عن كل مذلة لغير الله ، وكل دنس يصيبها ، وكل خضوع لما يملك الإنسان دفعه من الأذى والضرورات .

ومن ثم فهو غير مقتصر على ساعات النصر والغلبة والرخاء . فالتوجيه فى الآية للمؤمنين بأنهم الأعلون ، كان على إثر الهزيمة فى المعركة وغلبة الكفار : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس »[3] . فهم الأعلون حتى وهم منكسرون فى الحرب . بل هم الأعلون منذ أول لحظة يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وعدوهم ظاهر فى الأرض ومستحوذ على كل نصيب .

هذا الاستعلاء من أبرز سمات الإنسان المؤمن — وهو الإنسان الصالح — يصاحبه فى كل موقف من مواقف حياته ، فيملى عليه السلوك الذى ينبغى عليه أن يسلكه .

هو فى وجه الظلم والعدوان مستعلٍ ولو كان فى موقف الهزيمة . لأنه لا يستمد استعلاءه من النصر فتفقده الهزيمة إياه . وإنما يستمده من الإيمان بالله والاتصال به،

---

(١) سورة لقمان (١٨ — ١٩)　　(٢) سورة الإسراء (٣٧)
(٣) سورة آل عمران (١٣٩) .

ومن ثم لا يفقده فى الهزيمة ويسترده فى النصر ، بل هو كامن فى داخل نفسه ، مصاحب لها فى كل حال .

وهو فى وجه المغريات مستعلٍ ولو كان فى حاجة . لأنه لا ينبغى له — وهو المؤمن المتصل بالله — أن يحيد عن منهج الله ويخالف عن دستوره ، من أجل كسب مهما يكن من عِظَمِه فهو حقير ، ومهما يكن من كثرته فهو زائل ، ويبقى الله ، وحساب الله : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى »(١) .

وهو فى وجه الشهوات مستعلٍ ولو أحس بلذعها فى أعصابه . لأنه — وهو المؤمن المتصل بالله — أكرم عند الله وعند نفسه من أن يذل لشهوة تدنسه وتمرغه فى الوحل ، من أجل متعة عابرة لن تغنيه ، وسيجد أطيب منها فى الحلال ويجد أطيب منها دائماً عند الله : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله »(٢) .

وهو فى وجه القيم الزائفة مستعلٍ لأنه يملك القيم الحقيقية المستمدة من الله ومنهج الله ، فلا تزلزله قيم زائفة من صنع البشر ، لا ترفع ولا تخفض إلا فى ظاهر الأمر ، ولا يمكن أن تفرض نفسها على مشاعر المستعز بالله والمستعز بنفسه وقيمه ، لأنها لا تساوى شيئاً فى ميزانه ، ولا تغيّر حقائق الأشياء : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٣) .

والمستعلى على هذا النحو ، لا يصعر خده للناس ولا يمشى فى الأرض

---

(١) سورة طه (١٣١)　　(٢) سورة النور (٣٣)

(٣) سورة الكهف (٢٨-٢٩) .

مرحاً ، فذلك صغار هو يستعلى عنه ! إنما يحترمه الناس ويقدرونه من تلقاء أنفسهم لأنهم يحسون أن بداخله « حقيقة » صلبة ، لا خواء ولا نفخة فارغة .

* * *

نعم . هو فى استعلائه لا يحتقر الناس . فليس من سمات الإنسان المؤمن — وهو الإنسان الصالح — أن يحتقر الآخرين .. إلا أن يكونوا ينالونه بالأذى فهو يرد عن نفسه بأن يظهر لهم الاحتقار . وإذا كان الله قد صرح للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول وهو لا يحبه : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ، إلا من ظلم »(١) فهو كذلك يبيح رد عدوان الحقراء باحتقارهم وإظهار الاستعلاء عليهم : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما »(٢).

ولكن الإنسان الصالح — فى غير هذا — شخص إنسانى النزعة . يفيض قلبه بالعطف على بنى الإنسان ، بكل ما فيهم من ضعف بشرى ، وكل ما فيهم من طمع وجشع ولجاجة وغرور !

إنه يتذكر وحدة المنشأ : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة »(٣) ويتذكر أخوته لهذا البشر . ويتذكر أنه يجاهد نفسه فتغلبه أحياناً ويخضع لضرورة قاهرة .. فيدركه العطف على الناس ، والاعتذار لهم عما يرتكبونه من هفوات : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »(٤).

وهو إنسانى النزعة يحب للناس الخير ، ويحس نحوهم بالرحمة ولو كان

---

(١) سورة النساء (١٤٨)
(٢) سورة الفرقان (٦٣).
(٣) سورة الأعراف (١٨٩)
(٤) سورة آل عمران (١٣٣–١٣٤) .

لا يعرفهم ولا تربطهم به قرابة أو صحبة . إنسانى النزعة يعمل طاقته لينفع ، وليصيب النفع أكبر عدد من الناس :

« إن من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة . التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الأصم وتهدى الأعمى وتدل المستدل عن حاجته . وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف »[1] .

بل إنسانى النزعة حتى وهو يشتد ويحارب ويقتل فى سبيل الله :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[2] .

* * *

والحب . . القدرة على الحب . . سمة بارزة من سمات الإنسان الصالح المؤمن . بل هو إنسان بمقدار ما يقدر عليه من الحب : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[3] الحب الخالص الذى لا ينتظر جزاء ولا شكورا ولا يهدف لكسب . الحب فى الله .

إنها العظمة النفسية من الداخل ، والغنى النفسى . . هو الذى يفيض على الناس بالحب ويمنحهم العطاء . . لأنه يستمد من معين ضخم لا ينفد . . معين الحب الإلهى الزاخر الفياض .

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقى .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٣) رواه البخارى .

ومن حبه للناس يحب لهم الخير ، ويدعوهم إلى الخير .

إنه حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـ وتلك سمة دائمة من سماته ـ يصنع ذلك لأنه يحب للناس الهدى ويحب لهم الخير . لا لأنه يحب أن يسيطر عليهم ويسوقهم أمامه فيطيعوه .

وهو كريم ذو مروءة تنفعل نفسه بآلام الناس فيسرع إلى نجدتهم ، يبذل لهم المعونة ويبذل لهم من جهده وماله : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب »[1] .

* * *

وهو شخص متوازن . تلمح الاعتدال فى سلوكه وفى فكره وفى شعوره .

متوازن لأن طاقته كلها تعمل ، وتأخذ نصيبها من الحياة .

متوازن لا يندفع مع نزوة طارئة ، لأن عقله يرده عن الاندفاع .

متوازن لا يسبح فى برج عاجى من الأفكار والأحلام ويترك الواقع ، لأن قوته الحيوية ترده عن التحليق الفارغ وتوقظه لواقع الحياة .

متوازن لا يغرق فى متاع الأرض ولا يغرق فى عالم المادة ، لأن روحه المتفتحة الطليقة تنتشله من هذه الوهدة وتوازن مافيه من ثقلة الطين . فهو يستمتع بطيبات الحياة دون تكالب عليها ، وهو على استعداد دائم للتخلى عنها إذا دعا إلى ذلك داع من دواعى الجهاد فى سبيل الله .

متوازن لا يستطيره خبر يسمعه حتى يتثبت ويتبين : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[2] .

---

(١) سورة البقرة (١٧٧) (٢) سورة الحجرات (٦) .

متوازن لا تستطيره كل نظرية جديدة يسمعها ، حتى يزنها بميزانه ، ويتثبت مما فيها من الحق ، لأنه لا يحب أن يكون مثل الذين : « إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »[1]. « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً »[2].

وفى الوقت ذاته لا يجمد على كل قديم عنده ، فالجمود ليس من الإيمان ، والاعتراف بنعمة الله يقتضى إعمال الفكر الذى وهبه الله للإنسان للتدبر والمعرفة . ومن الواجب أن يبحث الإنسان عن الحق ويتبعه حالما يثبت له أنه حق . « الحكمة ضالة المؤمن »[3].

متوازن لأن فيه قوة ضابطة موجهة ، مهتدية بمنهج الله ودستوره ، تقول له افعل هذا ولا تفعل ذاك .

* * *

وهو قوة فعالة فى واقع الأرض .

يبدهك بفاعليته وإيجابيته .

إنه — بطبيعة إيمانه — لا يملك أن يكون سلبياً فى الحياة .

إن دفعة الإيمان الحية المتحركة تدفعه دفعاً لتحقيقها فى عالم الواقع المشهود المحسوس .

وإن دستور الله ومنهجه المفصل ليحتم عليه — بمقتضى إيمانه بأحقيته وأفضليته ووجوبه — أن يعمل على تنفيذه وتحويله من واقع شعوري إلى واقع عملى .

وإن طبيعة تصوره لحقيقة القوة الخالقة ، وحقيقة الإيمان وحقيقة الكون ، وحقيقة الإنسان ، وارتباطها بعضها ببعض ، لينشىء له رأياً ذاتياً فى كل أمر

---

(١) سورة النجم (٢٨)   (٢) سورة الإسراء (٣٦) .

(٣) رواه القضاعى والترمذى .

يَعرِضُ له أو يُعرَضُ أمامه، رأى موجَّه بتوجيهات المَنهج ، ومسترشد بوصاياه .
ومن ثم لا يملك أن يكون سلبياً إزاء حادث أو فكرة أو رأى أو عمل ، ما دام له تصور خاص لما ينبغى أن يكون عليه الحادث والفكرة والعمل .

ثم طاقته الحيوية التى رباها الإسلام . . رباها لتعمل ، لا لتظل مخزونة بلا انتفاع . تعمل لتعمير الأرض وترقيتها بمقتضى إرادة الله . فهو لا يمكن أن يظل خاملا كسولا متواكلا ينتظر حتى تدفعه الأحداث ، ولا يتحرك هو مع الأحداث وقبل الأحداث .

* * *

ومن إيجابيته الفعالة يقف فى طريق الشر .

إنه لا يمكن أن يسمح للشر أن يتعدى من جانبه وهو يملك وقفه أو تغييره . ذلك مخالف لما فى طبعه من إيجابية ، ومخالف لقواعد الإيمان .

وإنما هو يجاهد هذا الشر ما وسعه الجهاد . وحتى إن غُلِبَ لا يُسلِّمُ قلبه للشر ، وإنما يغير المنكر فى قلبه ، وهو أضعف الإيمان .

* * *

وهو بمقتضى إيجابيته وفاعليته شخص استقلالى النزعة .

استقلالى بمعنى أنه شاعر بوجوده وأهميته ووزنه فى هذه الحياة ، وعامل بمقتضى ذلك الشعور .

وهو لا يشعر بأهميته بوصفه فلاناً ابن فلان ، المعتز بكذا من الحسب والنسب والقوة والمال . . وإنما يشعر بأهميته لأنه مؤمن مهتدٍ إلى القوة الحقيقية فى هذا الكون ، ومعتز بهذا الإيمان .

هذا الهدى يجعله قوة كونية فاعلة ، ومن هنا يحس بقدره الحقيقى ، ويقدر

أهميته — فرداً — بهذا الميزان . وحينئذ يكون استقلالى النزعة لأنه يحس أنه لا يستمد وجوده من أسرة أو ميراث ، ولا من وظيفة أو مجتمع ، ولكن من ذاته . . ذاته المهتدية بالله .

* * *

وهو مع استقلاله بكيانه المتفرد شخص اجتماعى إلى أبعد الحدود .

فليس استقلاله حاجزاً يحجز بينه وبين الناس ! فالرباط الحى موجود دائماً بينه وبين غيره من الكائنات . . الرباط الحى هو الصلة بالله ، صلة يلتقى عليها جميع الأحياء .

والحب .. طاقة الإيمان الكبرى .. قوة واصلة تكسر الحواجز وتجرف السدود .

وما ركب فى طبع المؤمن من التعاون على البر والتقوى يقتضى بطبيعته الاجتماع بالناس .

والإسلام يكره العزلة وينفّر منها : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم »(١) .

ومن ثم فهو اجتماعى مصاحب وَصُول ودود .

* * *

ليس بينه وبين الناس حواجز ، ومع ذلك لا يزعجهم برفع الحواجز كلها و « برفع التكليف » !

إنه ليس معنى أنه يحب الناس ويخلطهم بنفسه أن يقتحم عليهم دورهم بلا موعد ، ويقتحم عليهم راحتهم بغير استئذان !

---

(١) رواه البخارى وأحمد .

كلا! فقد هذبه الإيمان وأصلح سلوكه .

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون »[1]

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم »[2]

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم »[3]

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث »[4] .

هذا التهذيب قد جعل منه شخصاً حساساً صاحب ذوق ، لا يجعل من حبه للناس ذريعة لإزعاجهم وإقلاق راحتهم ، لأنه بذلك لا يقوم بما يقتضيه الحب من إيثار ، وإنما فى الحقيقة يعمل بمقتضى أنانيته هو فى ذلك الحب ، فيمتع نفسه بصحبة الآخرين على حسابهم هم ؛ ويزعم لنفسه أنه يمتعهم بمودته . . ولا ينتظر حتى يطلبوا منه هذا الإمتاع ! وليس طلب الموعد والمحافظة عليه والاستئذان للزيارة إقامة للحواجز وتعطيلا للمودة ، بل هو حرص على المودة أكبر ، وإيثار للناس بالراحة . ومنطق الحب ليس إلا الإيثار .

* * *

---

(١) سورة النور (٢٧)

(٢) سورة الحجرات (٤ — ٥)

(٣) سورة النور (٥٨)

(٤) سورة الأحزاب (٥٣)

وهو شخص نظيف . .

نظيف فى ثيابه . نظيف فى سلوكه . نظيف فى تعامله مع الناس .

« وثيابك فطهر »[(١)].

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[(٢)].

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »[(٣)].

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون »[(٤)].

وهى نظافات متعددة فى كل باب .

فالخشوع فى الصلاة والمحافظة عليها نظافة فى التعامل مع الله ونقاء فى السريرة.

والإعراض عن اللغو نظافة فى الفكر والضمير واللسان ، وصون لها عن التفاهات والانحرافات .

والزكاة تنظيف للنفس من شح المال .

وحفظ الفروج نظافة من دنس الشهوة التى تدنس الفرد وتشيع الفاحشة فى المجتمع فتدنسه .

ورعاية الأمانة والعهد نظافة فى التعامل مع الناس واستقامة فى الطبع وصدق وإخلاص .

---

(١) سورة المدثر (٤)

(٢) سورة البقرة (٢٢٢)

(٣) سورة النساء (٥٨)

(٤) سورة المؤمنون (١ — ١١)

وكلها من سمات الإنسان المؤمن الصالح الذى يربيه الإسلام .

* * *

وهو شخص حساس للجمال . ولكن على نظافة واعتدال .

إن طول مصاحبته للقرآن والحياة الدائمة فى جوه قد فتحت بصيرته على مجالى الجمال فى الكون ، وأحدثت فى نفسه حساسية مرهفة لكل شىء حىّ وكل شىء جميل .

الليل والنهار . والسماء والنجوم . . والنبات المتفتح والطير والحيوان . . كلها آيات من الجمال فى الكون ، وكلها يلمس الحس ويثير الوجدان .

وفى نفسه حس شاعر يلتقى بالجمال فى كل هؤلاء .

ولكنه لا يقع فى الفتنة . . لا يقع فى فتنة الأجساد الجميلة والوجوه الفاتنة إلا فى حدود ما أباح له الله . فهنا قيد من النظافة قد تعمق فى حسه وقنع به وارتضاه .

* * *

ثم هو شخص مسلم أمره إلى الله .

إنه يؤدى واجبه فى الأرض ويتوكل على الله فى السماء .

يستعلى على الدنايا ، ويستعلى على القوى الزائفة ، ويستعلى على الباطل ، ويترك مصيره لله .

ويسعى للرزق بكل ما أوتى من قوة ويترك النتيجة لله .

وينفق مما أعطاه الله ، ويترك حساب الغد إلى الله .

ويسير مع الأقدار . . مؤمنا بأنه لن يصيبه إلا ما كتبه له الله .

ويحتمل الشدة ويصبر على الضراء . . فى سبيل الله .

ويرجو من الله الخير . . .

* * *

وفى الجملة فهو إنسان يعيش بأقصى طاقته فى عالم الواقع ، ويحاول فى الوقت ذاته أن يحقق المثال . ولا انفصال فى نفسه ولا فى عالمه بين الواقع والمثال !

بين الواقع والمثال

نظم التربية كلها — والتربية الإسلامية من بينها — متهمة بأنها ترسم نماذج مثالية خيالية لاتتحقق فى عالم الواقع ، لأنها غير قابلة للتحقيق .

وفى ظاهر الأمر يبدو فى ذلك شيء من الحق ، ولكنه عند التدقيق لا يلبث أن يزول .

إن مهمة كل منهج من مناهج التربية أن يرسم الصورة الصحيحة التى « ينبغى » أن تكون ، والتى يُرْجَعُ إليها دائماً فى تصحيح الأوضاع وضبط المقاييس . وبغير هذه الصورة المتكاملة لا يمكن أن نعرف بالضبط كم قطعنامن الشوط ، وكم بقى فى الطريق ، لنقيس الجهد الذى ينبغى أن يبذل ، ونقيس طاقتنا إلى هذا الجهد المطلوب .

كل المطلوب من منهج التربية ألا تكون الصورة التى يرسمها خارجة عن حدود الطاقة ، ممتنعة على التحقيق . وألا تكون موضوعة فى الوقت ذاته على صورة قالب محدود على سبيل الإلزام ، بحيث يصبح الإنسان ضائعاً إذا لم يصل إلى الصورة المحدودة والقالب المطلوب .

وهذا وذاك لا يوجدان فى منهج الإسلام .

لا الصورة المتكاملة مستحيلة التطبيق . . ولا هى مرسومة فى قالب معين على سبيل الفرض والإلزام !

الصورة المتكاملة وجدت بالفعل فى واقع الأرض ، متمثلة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومحمد رسول الله بشر . . يحمل كل طبائع البشر .

ولا نقصد بذلك أن أحداً من البشر سيصل به التهذيب القرآنى أن يصبح محمد ابن عبد الله .

ولكننا نقصد فقط أن القدوة به قائمة فى حدود أنه بشر . وأنه إذا استحال على الناس أن يصلوا إلى تلك القمة الشامخة التى لم يصل إليها أحد فى تاريخ البشرية كله ، من الأنبياء وغير الأنبياء ، فإنهم بالأسوة الحسنة فى شخصه صلى الله عليه وسلم يستطيعون — فى بعض جوانبهم على الأقل ، وفى حدود ما وهب الله لهم من طاقة — أن يقتربوا من هذه القمة الشامخة درجات من الاقتراب . وهذا هو المستوى الأعلى الذى تحقق فعلا على نطاق غير ضيق.. فى أشخاص الصحابة والتابعين ، وفى أشخاص متناثرين على مدار التاريخ .

وإذن فهذا المستوى الأعلى ممكن فى هذه الحدود .

وكل درجة يقتربها الإنسان من هذه القمة الشامخة فهى عظمة تحسب له فى ميزان الله وميزان البشر على السواء .

كل قوة فى الحق . كل تضحية فى سبيل الله . كل صدق وأمانة وإخلاص واستقامة . كل رحمة شفيفة . كل مودة وحب . كل عمل للخير . كل حس مرهف وسلوك مهذب . كل قوة حيوية دافعة . . كلها ، ما دامت مخلصة لله ، تحسب فى ميزان العظمة ويكتب لها البقاء .

وتلك ثمرة التربية الإسلامية فى واقع الأرض .

وفى التاريخ أمثلة لا تعد لهذه العظمات النفسية التى رباها الإسلام(١) .

---

(١) اقرأ بالتفصيل فصل « نظرة الإسلام » فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

كانت أبرزها تلك الفترة التى انطلقت فيها الأمة الإسلامية الناشئة المصنوعة على عين الله ورعاية رسوله ، تعمل فى كل ميدان ، وتكتب العظمات فى كل صفحة من صفحات الحياة. ثم قلت النماذج شيئاً ولكنها لم تنقطع قط عن الوجود ، فى كل صحوة من إغفاءة ، وكل هبة من انتكاس .

أولئك الذين حققوا المثال .

حققوه بقدر ما وهب الله لهم من طاقة ، وبقدر ما استطاعوا أن يبذلوه من مجهود .

وتلك قيمة المنهج الذى يرسم الصورة المتكاملة ويعرضها أمام الناس .

إنه ليس خيالياً ولا مثالياً ولا منقطعاً عن واقع الأرض .

بل إنه على العكس من ذلك واقعى فى الصميم .

واقعى بدليل أنه أنتج بالفعل ثمرات طيبة شهدتها البشرية ونعمت بها على مدار التاريخ .

وواقعى لأنه يخاطب الناس من طريق مقدرة كامنة فى نفوسهم ، موجودة بالفعل ، مشتمل عليها كيانهم . هى القدرة على الصعود حين يهتف لهم هاتف الصعود .

هذه المقدرة طاقة حقيقية أودعها الله فى الفطرة البشرية ، ووكل بها ترقية الحياة الإنسانية والصعود بها دائماً إلى الأمام .

والإسلام يحرص على استغلال هذه الطاقة ، ويصر على ذلك أشد الإصرار .

لأنه واقعى مغرق فى الواقعية !

إنه يعرف أن هناك نتائج واقعية معينة يصل إليها حين يهتف للناس من طريق الصعود .

إنه لا يتوقع — ولا يتطلب — أن يصل الناس جميعهم إلى القمة .

ولكنه يتوقع — ويتطلب — ويحدث ذلك بالفعل — أن يرتفع الناس في مجموعهم درجات مختلفة من الارتفاع .

بعضهم يقترب من القمة الشامخة ، وبعضهم يصعد درجات ، وبعضهم يتعب فيجلس فى الطريق ليستريح . . وبعضهم ينتكس فيهبط إلى الأرض . .

ولكن المجتمع يرتفع فى مجموعه . . .

كلهم يرتفعون . . حتى المنتكسون عددهم يقل ، وتوجد أمامهم فرصة دائمة للارتفاع !

فأية واقعية عميقة تلك التى تنبت من النظرة المثالية ؟ !

* * *

ولا يغفل الإسلام أبداً عن واقع الطبيعة البشرية وما ركب فيها من تنوع فى الطاقات والاتجاهات والمستويات .

لذلك لا يلزم الناس بصورة مثالية معينة مصبوبة فى قالب لا تتعداه . إنما هو يطلب إلى كل إنسان أن يبلغ حدود الكمال الممكن له هو بحسب استعداداته وطاقاته واتجاهاته . . وكل ما يفرضه هو المحاولة الدائمة لبلوغ ذلك الكمال الخاص فى حدود الإطار المثالى العام .

وهو واقعى فى ذلك إلى أبعد الحدود .

ولكنه فى واقعيته يختلف عن النظم « الواقعية » الأخرى التى عرفتها البشرية فى العصر الحديث خاصة .

إنه يشمل الواقع الأكبر للفطرة البشرية لا الواقع الصغير المحدود . الواقع الأكبر الذى يعمل حساب قدرة الإنسان على الرفعة كما يعرف استعداده للهبوط .

إنه لا يصنع كما تصنع بعض المذاهب الواقعية ، التى أخذت عن دارون وماركس وفرويد إيمانها بحيوانية الإنسان وماديته[1] ، فيقول : ما دام الإنسان يحمل هذا الاستعداد الدائم للهبوط مهما حاولنا أن نرفعه ، فلنكف إذن عن المحاولة ولنتركه يهبط حتى يقر على القرار !

كلا ! إنه لن يقر على القرار أبداً . سيهبط ويهبط ويهبط على الدوام !

سيهبط إلى بشاعة يتعفف عنها حتى ذلك الحيوان الذى رد دارون الإنسانَ إليه وتبعه ماركس فى عالم الاقتصاد وفرويد فى عالم المشاعر النفسية .

سيهبط لأنك تجذبه من خيط الهبوط دائماً ولا تهتف إليه من طريق الصعود.

تلك واقعية الحيوان ، التى هبطت بالإنسان فى العالم الحديث إلى ما تحت مستوى الحيوان .

أما الواقعية النظيفة التى يمارسها الإسلام ، فهى التى تحسب حساب الإنسان فى مجموعه ، بكل طاقاته واستعداداته ، فتهتف له دائماً من طريق الصعود ، لأنه ليس فى حاجة لمن يهتف له من طريق الهبوط ! وتحسب حساب الإنسان الفرد فتكلفه المحاولة الدائمة لبلوغ الكمال الذى يستطيعه هو ، وهو بفطرته يستطيع الكثير .. متى كان هدفه هو بلوغ الكمال .

والإنسان فى نظر هذه الواقعية كائن ليس بالملاك ولا بالشيطان. ولكنه قادر على الصعود إلى نظافة الملائكة ، وقادر على الهبوط إلى دنس الشيطان .

والطريق الواقعى لتربيته ومعالجته ، هو رسم الصورة المتكاملة أمامه ، وتدريبه دائماً على الصعود إليها والدنو منها ، بكل طريق ممكن ، وكل جهد مستطاع .

---

(١) انظر بالتفصيل فصل « حقائق وأباطيل » فى كتاب « معركة التقاليد » .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الكتاب	٧
تمهيد : الوسائل والأهداف	١١
خصائص المنهج الإسلامى	١٩
منهج العبادة	٣٨
تربية الروح	٤٣
تربية العقل	٨٩
تربية الجسم	١٢٦
خطوط متقابلة فى النفس البشرية	١٥٤
الخوف والرجاء	١٥٥
الحب والكره	١٧٢
الواقع والخيال	١٨٢
الحسية والمعنوية	١٨٥
ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس	١٩١
الفردية والجماعية	١٩٩
الالتزام والتطوع	٢٠٧
السلبية والإيجابية	٢١٤

الموضوع	الصفحة
من وسائل التربية	٢٢١
التربية بالقدوة	٢٢١
التربية بالموعظة	٢٢٩
التربية بالعقوبة	٢٣٣
التربية بالقصة	٢٣٦
التربية بالعادة	٢٤٦
تفريغ الطاقة	٢٥١
ملء الفراغ	٢٥٣
التربية بالأحداث	٢٥٥
المجتمع المسلم	٢٦٥
ثمرة التربية	٢٧٣
بين الواقع والمثال	٢٨٨

يصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ محمد قطب

١ ـ الإنسان بين المادية والإسلام .
٢ ـ سخريات صغيرة .
٣ ـ منهج الفن الإسلامي .
٤ ـ منهج التربية الإسلامية .
٥ ـ معركة التقاليد .
٦ ـ في النفس والمجتمع .
٧ ـ التطور والثبات في الحياة البشرية .
٨ ـ دراسات في النفس الإنسانية .
٩ ـ هل نحن مسلمون .
١٠ ـ قبسات من الرسول .
١١ ـ شبهات حول الإسلام .

مطابع الشروق ـ بيروت ـ ص. ب. : ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩ ـ برقيا : داشروق

Bibliotheca Alexandrina
0617328